"النساء يصلحن للانتقام فقط!"



جريمة في البوسفور

أسمهان أيكول

ترجمة: هند عادل



روايات مترجمة



جريمة في البوسفور

جريمة في البوسفور

تأليف: أسمهان أيكول

ترجمة: هند عادل

مراجعة وتحرير: هدى فضل

مراجعة لغوية: خالد رجب

الطبعة الأولى: نوفمبر 2017

رقم الإيداع: 2017/11575

الترقيم الدولي: 9789773193553

الغلاف: عصام أمين

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

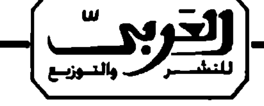
First published as *Kitapşi Dûkkâni* in 2001
by Everest Yayinlari, Istanbul

أسمهان أيكول

جريمة في البوسفور

رواية من تركيا

ترجمة: هند عادل



بطاقة فهرسة

أيكول، أسمهان

جريمة في البوسفور: رواية من الأدب التركي/ تأليف: أسمهان أيكول، ترجمة: هند عادل.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

تدمك 9789773193553

1- القصص التركية

أ- عادل، هند (مترجم)

ب- العنوان 894.353

1



أقودُ السيَّارة بلا توقف، لكن لا أجدُ مكانًا لأركنها قُربَ المكتبة. نصف الساعة ذلك الذي أقضيه في البحث عن مكان للركن كل صباح يُثير جنوني. شيء لا يُطاق. ماذا سيحدث إن فقدتُ أعصابي هنا؟ هل سيخرج صاحب المحل القريب لمساعدتي؟ هل سيوُقِع بائع الشاي صينية الشاي ويأتي مسرعًا ليُنجِدَني؟ ولو أسرع لمساعدتي، ماذا سيحدث عندها؟ عليَّ السيطرة على أعصابي.

في الوقت نفسه الذي كنتُ أهدِّئ فيه أعصابي، فتح مغفلٌ ما باب سيارته أمامي. حمدًا لله. يقولون إنه بعد كل ضيقٍ فرج.

يمكن تلخيص المشكلة في أن "خوان أنطونيو" أو "فوفو" صديقي العزيز قد وقع في الحب منذ أسبوعين. ومن وقتها وهو يتصرف بغباء حقيقي. يُفترض أنهما تقابلا حين كان "فوفو" يقضي العطلة الأسبوعية في قرية "شيله" على ساحل البحر الأسود. أجدُ صعوبة في تصديق فكرة أنهما لم يتقابلا قبل ذلك. وإن كانا لم يتقابلا في إسطنبول، فمن المؤكد أنهما لم يتقابلا في "شيله" كذلك. على أي حال، لقد تقابلا ووقعا في الحب. يدرس "ألفونسو" في المركز الثقافي الإسباني، و"فوفو"؟ يُفترض بــ"فوفو" أن يساعدني في المكتبة. لا تسيؤوا فهمي، لقد كان

يساعدني حقًّا منذ أسبوعين، لكنه الآن يبدو كمن يعيش على كوكبٍ آخر. بالطبع نرى بعضنا البعض في المنزل، لكن فقط حين يعود لتغيير ملابسه. لم نتبادل خلال هذين الأسبوعين سوى عشرين كلمةً فقط.. إن لم يكن أقل.

الآن، أفتح المكتبة بمفردي يوميًا منذ تحوَّل "فوفو" إلى مغرمٍ ولهان. ممَّا يعني أنه عليَّ الاستيقاظ باكرًا كل صباح، والانهيار على السرير من التعب كل ليلة. باختصار انتهت حياتي الاجتماعية.. لم أعد أقابل أصدقائي. حتى أنني لم أعد أستطيع التحدث فترةً طويلة مع "لالي".

لكنني ما زلتُ أحبُّ عملي، لكنني كنتُ أُفضِّله أكثر حين لم أكن مُقيَّدة بالمكتبة عشر ساعاتٍ يوميًا.

اعتاد "فوفو" أن يقول لي: "ما الذي يمكن أن يكون أفضل من بيع روايات الجريمة لشخصٍ يحبُّ قراءتها؟". في الواقع، أنا أيضًا كنتُ أفكر مثله عندما افتتحتُ المكتبة للمرة الأولى. غالبًا ما يتشابه تفكيرنا.

بفضل مكتبتي الحبيبة، صرتُ الآن أعرف جميع قرَّاء روايات الجريمة في إسطنبول أو على الأقل أولئك الذين يأتون بانتظامٍ إلى منطقة "كولاديبي". عندما افتتحتُ المكتبة منذ ثلاث سنوات، كان المغني "مايك جاجر" من زبائني الأوائل. لم أُصدِّق عينَيّ. تصرفتُ بطبيعيَّةٍ، لم أطلب توقيعه أو ما شابَه، لكنني أدركتُ كم كان من الصعب مقاومة التقاط صورةٍ معه! حتى أنني لم أُظهِر له أنني تعرفتُ إليه. أغاظتني "لالي" كثيرًا بسبب ذلك، فقالت إن طبيعتي الألمانية المتحفظة هي السبب. لا أظن أن للأمر علاقةً بجانبي الألماني، بل بغبائي، فقط. خشيتُ على ضياع مصداقيتي كوني امرأةً جادَّةً إذا ما شاع أني تعرَّفتُ إلى "مايك جاجر". عندما افتتحتُ المكتبة في البداية، ظننتُ أنني امرأة خارقة مثل

سيدة الأعمال "جولر صابانجي". لكن ذلك الإحساس لم يدم طويلًا، فالعمل بجدية عشر ساعاتٍ يوميًا جعلني أشعر أنني مجرد امرأة عاملة عادية.

لكن مقارنة بأحوالي في السابق، لا بأس بأحوالي الآن. تعلمتُ أصول المهنة، ولم أعد أقلق بخصوص المشكلات المادية. أظنني سأخبر "فوفو" أنه لو استمرَّ في حبه المرضيِّ هذا، ولم يعد للمكتبة، فسأبحث عن شخصٍ آخر ليساعدني. يملك "فوفو" عقلية ربة منزلٍ من الطبقة المتوسطة. أقولها في وجهه. إنه كالمرأة التي تترك كل شيء ما إن تجد رجلًا ليعولها، ثم تقول: "ما العمل؟" عندما يُطلِّقها ذلك الرجل فجأة.

هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك لـ"فوفو". حين تقابلنا للمرة الأولى منذ بضع سنوات، وَقَعَ في حُبِّ محامٍ تركي قابله في غرناطة. تركَ كل شيء وحمل حقيبة ظهره واستقل طائرةً إلى إسطنبول. ذلك المحامي التركي اسمه "علي". تنتابني القشعريرة كلما تذكرته. كيف يمكن لشخصٍ كهذا الحفاظ على علاقته بـ"فوفو" الذي نعرفه؟ ظلَّا معًا مدة عامٍ تقريبًا، وما زلتُ أقول إنه لا بأس بذلك. لم يخبر "علي" أصدقاءه أنه و"فوفو" حبيبان، حتى إنه لم يقدِّم "فوفو" إليهم. لسببٍ ما، أراد "فوفو" بشدة مقابلة أصدقاء "علي" في العمل. وهكذا بدأ يزور "علي" في مكتبه فجأة، ليس ظنًّا منه أن "علي" يخونه، بل لأنه أراد مقابلة أصدقاء "علي". كنتُ و"لالي" في قِمَّة الحيرة والقلق، فالأيام الأخيرة في علاقتِهما كانت كارثية. قضى "فوفو" وقته كله جالسًا في المنزل يشاهد التليفزيون التركي. بصراحة لم يكن هذا بالأمر السيئ، لأنَّه تعلَّم بعض التركية ويمكنه الآن التحدُّث مثلما يتحدَّث الأتراك الذين يظهرون في التليفزيون. يقول جملًا بسيطة مثل: "أهلًا يا رفاق، أنا جاهز للذهاب"، أو "اعتنوا بأنفسكم الآن". لا يهمُّ، على الأقل يمكن أن يفهمه أيُّ متابع مخلص للتليفزيون.

بعدما تعافينا من كارثة "علي"، بدأت حياتنا تنتظم إلى حدٍّ ما. انتقل "فوفو" إلى منزلي وبدأ يعمل في المكتبة. "فوفو" العزيز، إنه كطفلٍ صغيرٍ وسط عالمٍ من البالغين. أتساءل: ماذا سيحدث له مع ذلك الرجل الجديد؟ هذا الأمر يزعجني حقًّا منذ أسبوعين.

لم أقابل حبيبه بعد. استجوبتُ "فوفو" خلال مقابلاتنا القصيرة، لكنه شابٌّ صغيرٌ مولعٌ بالحب، لذا فأنا لا أستطيع تصديق حرفٍ ممَّا يقول.

تحاول "لالي" إخفاء الأمر، لكنها قلقةٌ أيضًا. تقول لي: "لقد أصبحتِ تركية بحق، تتصرفين كأي أمٍّ تركية مع ابنها". لا أظنها تعرف عمَّ تتحدث. يبدو أنها تظن أنها مختلفة. في الحقيقة كلانا قلق لأننا نعرف "فوفو" جيدًا، ونعلم كيف ينجرف مع التيار، لكن بعيدًا عن كل هذه المخاوف، فإن أعصابي حاليًا مشدودة لأنني أكره عدم استطاعتي إيجاد مكان للركن.

الطبيعي هو أن أفتح المكتبة ثم أقوم بتهويتها، بعدها أتناول كوبين من القهوة وأبدأ يومي. لكن لا، ليس اليوم. ففي اللحظة التي وضعتُ فيها المفتاح في قفل الباب، رنَّ التليفون. أكرهُ العَجَلَة، لكنني فتحتُ الباب بسرعة وجريتُ إلى التليفون. رفعتُ السمَّاعة لأسمع صوت امرأة تتحدث الألمانية بمرح. ما زال الوقتُ باكرًا للغاية لأرد عليها بالمرح نفسه الذي تُحدِّثني به. هذا حقًّا كثير. امرأة مرحة في هذا الوقت من اليوم؟ قالت:

- حصلتُ على رقم تليفونكِ من أمِّكِ، أمَّا رقمها هي فقد وجدتُه في دليل تليفونات برلين...

- حسنًا، لكن مَنْ أنتِ؟

إنها "بيترا" بالطبع! صديقتي من أيام الجامعة. لم نرَ بعضنا بعضًا منذ فترةٍ طويلة، على الأقل خمس عشرة أو ست عشرة سنة. في الواقع، أتابع أخبارها

من خلال الصحافة والإعلام، فهي صديقتي وإحدى أشهر نجمات السينما الألمانية. قد لا تكون مشهورة عالميًا، لكن هل سبق للألمان أن أخرجوا للعالم نجومًا سينمائيين عالميين بخلاف "مارلين ديتريتش"؟ غير أن "مارلين ديتريتش" كانت أمريكية أكثر منها ألمانية.

على أي حال، ماذا كنتُ أقول؟

كانت "بيترا" في قسم المسرح في الكلية. بعد التخرج، حزمتُ أمتعتي وانطلقتُ لأستكشف آفاقًا جديدة وفقدنا الاتصال ببعضنا البعض. لا شيء غريب في الأمر.

بدأت "بيترا" بالظهور على التليفزيون قبل مغادرتي لبرلين. حتى أنها شاركت في حلقة من برنامج "تاتورت" وهو أفضل برنامج في التليفزيون الألماني حتى الآن. لم نرَ بعضنا البعض لما يقرب من عشرة أعوام عندما كنتُ لا أزالُ في ألمانيا، لكنني لم أترك فيلمًا من أفلامها إلا وشاهدته. حتى أنني ذهبتُ لرؤية فيلم ألماني في مهرجان إسطنبول السينمائي فقط لأنها مثَّلتْ فيه.

تابعتُ أفلامها وقرأتُ كل المقابلات التي أُجرِيَتْ معها في المجلات، لكنك تعلم ذلك الشعور الذي ينتابك حين يكون لديك أصدقاء مشهورون، تكتسب شعورًا بالنقص وتبدأ بالتفكير كما فعلتُ: "إن تقابلنا في الشارع لن تعرفني"، أو "إذا اتصلتُ بها فلن تسمح لي سكرتيرتها بالتحدث معها". شعرتُ هكذا كثيرًا حيال "بيترا". في الواقع لم يكن هناك سببٌ منطقي لهذا الشعور، لأننا لم نتقابل يومًا وأنا لم أتصل بها. لا أعرف، هل تأثَّر عقلها بالشهرة؟ لكن الآن أنا أتحدَّث إلى "بيترا" عَبْرَ التليفون، وكأننا في رواية. بما أنها تتصل بي فمن الواضح أنها لم تصبح مغرورة، أو لأنَّها لم تعد مشهورة. ربما فقدت شهرتها وصارت أحد التعساء الذين يعيشون على معونة الدولة. ربما مرَّتْ بالإجراءات المعتادة

ودارت على مكاتب الخدمات الاجتماعية وأساؤوا معاملتها قبل أن تحصل على مُرتَّب الدولة البائس. ربما كانت تبحث عن وسيلة هروب من كابوس التأمين الاجتماعي وتتصل لطلب قرضٍ أو وظيفة. لديَّ القليل من المال لذا أستطيع إعطاءها قرضًا. هذه منطقتي، فدائمًا ما يجدني أصدقائي أكثر مرونة من الحكومة الألمانية. إن أرادت وظيفة، يمكنني التحدث إلى "فوفو" مباشرةً. مهما يكن الموقف، لقد اختارت الشخص المناسب للسؤال.

قالت:

– لقد فقدتُ أثَرَكِ تمامًا. حاولتُ الاتصال بكِ كثيرًا. كلما رأيتُ شخصًا من الأيام الخوالي، أسأله عنكِ. قابلتُ "أليكس" في مهرجانٍ للسينما أمس. إنه يعيش في برلين ويعمل مصورًا. قال إنه رآكِ منذ بضع سنوات في برلين، وأنكِ كنتِ تقيمين في بيت والدتك حينها. عندها فكرتُ في الاتصال بوالدتك. لا أعرف لماذا لم أفكِّر في ذلك من قبل. على أي حالٍ لمَ لا تتصلين بي أبدًا؟

لم أعرف ماذا أقول، شعرتُ بالذهول التام. مستحيل أن أقول: "لم أتصل بكِ لأنك مشهورة". على أي حال، لم نكن صديقتين مُقرَّبتين لدرجة أن نظلَّ على اتصال، لكن تلك مسالةٌ أخرى.

سألتني:

– هل ستأتين إلى ألمانيا؟

في تلك اللحظة، لم تكن لديَّ نية العودة إلى ألمانيا مُطلقًا، لكنني قلتُ:

– لا أعرف.

هذا لأني ربما أذهبُ لرؤية "بيترا". أحببتُ حقيقة أنها لم تبدُ مُتحفِّظة على الرغم من شهرتها. يستحق الأمر الذهاب إلى ألمانيا لرؤيتها مجددًا.

وضعتُ سماعة التليفون وحدقت إليها عشر دقائق على الأقل. ظلّت مكانها مثل ثعبان أسود الذيل على الترابيزة، لكني لم أكن أتأمَّلُ جمالَها. كنتُ فقط مصدومة من الدهشة. "بيترا" قادمة. ستلعب دور البطولة في فيلم ألماني تركي، وسيتم تصويره في إسطنبول، وهكذا ستبقى مدة شهر. لا تريد قرضًا ولا وظيفة. لا حتى تريد البقاء عندي خلال التصوير، لكنها فقط تُريد رؤيتي مجددًا لنتحدَّث بصفتنا صديقتين قديمتين. ستُعطيني نصائح عن أفضل كريم للوجه لأتخلَّص من هالات العين، أو ربما تعلمني خدعتها الخاصة للتخلص من مُخلَّفات أنابيب حوض المطبخ دون الإضرار بالطلاء. إنها فقط تريد فعل ما تفعله النساء عادةً والتصرف كأنها ليست مشهورة.

استجمعتُ أفكاري وقررتُ أن أبدأ يومي بصنع القهوة، حتى ولو أصبح الوقتُ متأخرًا لشربها. لدينا رُكْن في المكتبة نستعمله مطبخًا، حيث أقوم أنا و"فوفو" بإعداد الكثير من الشاي والقهوة. إن اشترينا الشاي من "ريجاي" بائع الشاي طوال الوقت فسننفق ثروة، ومع الوقت الذي سنكون قد اقتربنا من الانتهاء من تجهيز مطبخ مناسب، سيكون بائع الشاي هذا قد حصل منّا على مالٍ سيساعده على استبدال ناطحة سحاب بكُشْكِه ستنهار في النهاية مع أول هزة زلزال بقوة خمسة فاصل ثمانية ريختر.

في الواقع أنا أعشق بائعي الشاي، لأنهم – ببساطة - لا يمكن مقارنتهم بآلات البيع الجوفاء تلك.. بائع الشاي يعرف اسمك دومًا ويعرف إن كنت تشرب قهوتك بالسكر أم لا. إنه يعرف متى تريد شايًا ومتى تريد قهوة. إن كان بائع الشاي لديك مثل بائعنا "ريجاي"، فسيعرف إن كنت قد تركت حبيبتك أو حبيبك، وإن كنتما قد تصالحتا، سيعرف إذا سهرتَ الليلة الماضية تشاهد التليفزيون. باختصار، إنه يعرف أكثر مما يجب، لكن ليس عليك الخوف من

بائع الشاي إلا إذا كنتَ مُتورِّطًا في أعمالٍ غير شرعية. الجميع يعرف كل شيء عنك بأي حال، فتناقُل الشائعات في إسطنبول نشطٌ للغاية لدرجة أن شائعة أخرى لن تُشكِّل فرقًا.

بالطبع ليس من السهل متابعة جميع أخبار الشائعات في مدينةٍ كبيرةٍ مثل إسطنبول. لذلك يتحدث الأتراك دومًا في تليفوناتهم المحمولة، سواءً في الشارع أم حين يخرجون للعشاء مع حبيباتهم أم حتى في المسارح ودور السينما. أظن أن "أليكساندر جراهام بيل" - مخترع التليفون - لديه جينات تركية، وإن لم يكن لديه هذه الجينات، فكيف إذًا تأثَّر الأتراك هكذا بهذا الاختراع الغريب؟!

مجددًا.. وصلتُ المنزل في المساء وأنا أشعرُ بالإرهاق الشديد. أكرهُ هذه الأيام. أتعامل مع الزبائن، التليفون يرنُّ باستمرار، الناس يدخلون ويخرجون.. هذا مستشفى للمجانين! لا أكاد أمتلك القوة لأُدير المفتاح في الباب كي أُغلقَ المكتبة. دفعتُ أيضًا ثمن ذهابي للعمل بالسيَّارة غاليًا. في إسطنبول تُعتبر السيَّارة لعنةً، فعلى عكس ما هو مُسلَّم به، فإن السيَّارة هنا لا تُسهِّل الحياة على الإطلاق. إسطنبول مدينة عتيقة حيث الطُّرقات شديدة الضيق، وخاصةً المكان الذي تقع به مكتبتي في منطقة "كوليديبي" التي تعود إلى زمن سيطرة "جنوة" عليها.

أحيانًا أظن أن سكان المدينة الذين يصل تعدادهم إلى عشرة ملايين يقضون أوقاتهم في الشارع ولا يعود أحدهم لبيته مطلقًا. الشوارع مزدحمة ليلًا ونهارًا بالناس والسيَّارات. عشرة ملايين نسمة، من السهل أن نقول إن تعداد السكَّان في مدينة كذا يبلغ عشرة ملايين، ولكن في الواقع هذا تعداد سُكَّان أمَّةٍ كاملة.

في النهاية صعوبات الركن والاختناق المروري سيثيران أعصابك. كما أنني كسولة، فالمسافة من المنزل إلى المكتبة تستغرق نصف ساعةٍ سيرًا أو بالسيَّارة، لكنني دائمًا ما أختار الذهاب بالسيَّارة.

العمل كان كثيرًا للغاية ذلك اليوم حتى أنني لم يكن لديَّ الوقت الكافي لأفكر في اتصال "بيترا". لكن ما إن وصلتُ البيت، حتى ذهبتُ مباشرةً إلى التليفون مثل أي مواطن إسطنبولي طبيعي، واتصلت بـ"لالي". هي تعرف من تكون "بيترا"؛ لأننا ذهبنا معًا إلى مهرجان الأفلام لرؤية فيلمها. عرضتُ عليها ترجمة بعض مقابلاتها مع المجلات، لكن "لالي" لم تكن مهتمة. يمكنها أن تكون مستفزة بكل سهولة، لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ إنها أعزُّ أصدقائي.

بعد مكالمة "لالي" أردتُ الاتصال بـ"فوفو"، لكنني لم يكن معي رقمه. دخنّتُ ثلاث سجائر في ربع ساعة، ثم اتصلتُ بـ"لالي" مجددًا. كان الخطُّ مشغولًا. ذهبتُ لأستحمَّ لأقتل الوقت، ثم حاولتُ ثانيةً. ما زال الخطُّ مشغولًا. فكرت بالقفز في السيَّارة والذهاب لمنزلها، لكنني لن أتعب نفسي بفعل هذا. أعدت الاتصال، ما زال الخط مشغولًا. لأعزي نفسي، اتصلتُ بحبيبي السابق الذي أبقيه معلقًا وأتجاهله معظم الوقت. ربما خمنتم ما حدث تاليًا، نعم، هذا صحيح.. تليفونه مشغول أيضًا. ظللتُ أبكي حتى رحتُ في النوم، بسبب أعصابي المُتعبة. حلمتُ أنني أُحاوِلُ تحطيم رأس "أليكساندر جراهام بيل" بسماعة تليفون بينما تصرخ مدام "ماري كوري" عالمة الفيزياء البولندية وهي تصرخ: "قاتلة! قاتلة!". استيقظتُ فجأة وأنا غارقةً في العرق.

اليوم التالي كان يوم السبت.. أفضل أيام الأسبوع، يعقبُه الأحد.. ثاني أفضل أيام الأسبوع. العديد من المواطنين الجادين أو الذين يجلسون على مكاتبهم في اليوم الأول من هذين اليومين السعيدين ليحصلوا على زيادة لمرتباتهم. بالتأكيد

أنا لا أنتمي لهذين الصنفين من الناس. في أيام السبت، تتدلى لافتة "مغلق" بثبات على باب المكتبة، إلا إذا كان "فوفو" محبطًا، حينها يقرر القيام بالتنظيف.

أيام السبت أجلس مع جيراني وصديقي العزيز "يلماز" في الكافيه المحلي حيث نجلس لنتحدث في سيرة كل من يمرُّ أمامنا. "يلماز" في الخمسين.. قصير وبدين وأصلع، ويعمل في مجال الدعاية والإعلان. نموذج مثالي للمواطن التركي. إنه يعرف الجميع ويخبرني بجميع الشائعات، ثم يخبر الجميع عني. ومع ذلك، قررتُ منذ زمنٍ بعيدٍ أنني لن أهتمَّ، فأنا أعتبر "يلماز" أحد رفاقي.

وهكذا في صباح كل أحد أشتري مع "يلماز" المخبوزات المختلفة من الفرن، والجرائد من المحل الذي يقع على الناصية، ثم نجلس في الكافيه. تكون الساعة حينها في العاشرة. يمرُّ أمامنا جميع من يعيشون بحي "شيهانجير" بأكمله. بعضهم ندعوهم ليجلسوا معنا، لكن أولئك الذين لديهم أشياء أفضل ليفعلوها يكتفون بالتلويح لنا والاستمرار في السير. عندما نتعب من الثرثرة، نذهب أنا و"يلماز" إلى السينما إن كان هناك فيلم جيد، أو نعود إلى المنزل إن لم يكن.

لدينا اتفاقٌ مُتبادَل، فـ"يلماز" يشتري الجرائد بينما أشتري أنا ما نحتاجه من الفرن. في الواقع، أنا لا أقرأ الجرائد طوال الأسبوع، لذا فقراءتها أيام السبت يُعدُّ نشاطًا مختلفًا. التغيير جيد، أليس كذلك؟

صار الأمر عادة. يصل "يلماز" قبلي دائمًا دقيقٌ دائمًا في مواعيده. إنه لا يفوِّت أبدًا أي فرصةٍ لتوبيخي بشأن دقة المواعيد، خاصةً أنني ألمانية. أردُّ عليه بأن الأتراك دومًا يظنون أن الألمان دقيقون في مواعيدهم، ومجتهدون في العمل، ثم أقول له إنه ليس استثناء. يمكنك التخمين أن أسوأ إهانة يمكنك أن توجهها لـ"يلماز" هي القول إنه مثل الجميع.

لا يمكنني تَرْكُ الأمر دون ذِكر بعض التحيُّزات الغريبة التي كونًها الأتراك عن الألمان. مثلًا، يندهش الأتراك بشدة إذا رأوا ألمانيًا يضحك. يحبونني حين أبتسمُ، لأنهم يظنون حينها أنني اندمجتُ تمامًا مع مجتمعهم. لم أُقنِع أي شخصٍ منهم بعد بأنني كنت أضحك في ألمانيا حتى ولو قليلًا، وهذا لا يعني أنني كنت منعزلةً عن المجتمع. وصل الأمر لدرجة أنني أعرفُ بعض الناس الذين يظنون أني أتيتُ للعيش في إسطنبول بسبب عجزي عن الحياة في ألمانيا لأنني مرحة للغاية.

يبدو أيضًا أن حقيقة أن اسمي "كاتي" يجعل الأتراك يظنون أنني نوع مختلف من الألمان. قد لا تصدق ذلك، لكنني قابلتُ أتراكًا يظنون أن الألمان لا يسمون سوى اسمين: "هانز" للذكور و"هيلجا" للإناث. لماذا؟ ليس لديَّ أدنى فكرة.

مرَّت علينا ربع ساعة في الكافيه ولم ينطق "يلماز" كلمة واحدة عن دقة المواعيد وعن كوني ألمانية. على الأرجح كان منشغلًا للغاية بعمله. شركة الدعاية التي يعمل بها "يلماز" تمرُّ بأزمةٍ مالية، وهو حال العديد من الشركات في تركيا. من الواضح أنه سيتمُّ إقالة بعض الموظفين. اقترحت أنه في حال حدوث ذلك له، يمكنه العمل معي بدلًا من "فوفو". نظر إليَّ وكأنني أمزح. ولِمَ لا؟ هل يُفترض بي الشعور بالذنب لأنني لن أتمكن من دفع راتب شهري له يساوي عشرة آلاف دولار؟

قالت "بيترا" إنها ستتصل بي مجددًا عندما تعرف مواعيدها النهائية، أي عندما تنتهي وزارة الثقافة التركية ومنتجو الفيلم من الإجراءات اللازمة. مضى أسبوعان وأنا أنتظر "بيترا" كي تخبرني بموعد وصولها. لم أجلس بلا عمل في أثناء ذلك الوقت بالطبع. وجدتُ "فوفو" وأخبرته بحزم أني سأستبدله إن لم

يعد للعمل. في الواقع لا يوجد الكثير من الناس الذين يرغبون في العمل في مكتبة تبيع روايات جريمة، لكنني توقعتُ أن أجد مَنْ يريد العمل بهذه الوظيفة.

تردَّد "فوفو" وعجز عن إعطائي ردًّا مباشرًا. بدأ يثير أعصابي، لذا قاطعته قائلة: "في تلك الحالة، سأقوم بإحضار بديلًا مؤقتًا لك. سأعطيك إجازة مدة ثلاثة شهور. يمكنك استغلال ذلك الوقت لتُقرِّر ما تريد أن تفعله في حياتك. لا أفهم، أتنوي إضاعة عمرك في البحث عن رجلٍ أم ستتعلم الاعتماد على نفسك؟!".

بعد كلامي الصريح والمباشر معه صفقتُ الباب وغادرت. لا أظن أن أحدًا قد عامل "فوفو" أو حدَّثَه بتلك الطريقة من قبل، أو أن أحدًا قد صفق الباب في وجهه. كان متأثرًا بـ"ألفونسو"، لكنني أيضًا لديَّ كبريائي التي أرغب في الحفاظ عليها.

بعد بضعة أيام ذهبتُ لرؤية صديقتي "كاندان" التي تملك مكتبة كبيرة في منطقة "باياغلوا". أردتُ إيجادَ شخصٍ مناسبٍ لمكتبتي. "كامدان" بارعة في تلك الأمور. كلما طلبت منها شيئًا، أعطتني ما طلبته بالضبط. وهو ما حدث هذه المرة أيضًا. اتصلتْ بأربعة أماكن أو خمسة بتليفونها المحمول، وبعد ساعةٍ واحدة، جلستْ أمامي فتاةٌ جميلة تُدعى "بيلين".

"بيلين" تلميذة في جامعة إسطنبول، تدرس اللغة والأدب الإنجليزي. هي من مدينة "إزمير" وجاءت إلى إسطنبول من أجل الجامعة ومن أجل الابتعاد عن عائلتها كذلك. ظلت تدرس وتعمل مدة سبع سنوات، لذلك ظلت وقتًا طويلًا في الجامعة.

قلت لها:

- ليس لديَّ أي مشكلةٍ في هذا، فأنا على أي حال أكرهُ الأشخاص الذين يعملون بجهدٍ كبير.

سألتني "بيلين":

- على الرغم من كونكِ ألمانية؟

قمنا بتقسيم العمل. لم يكن تقسيمًا عادلًا، لكنه كان تقسيمًا على أي حال. ستقوم "بيلين" بفتح المكتبة ثلاثة أيام في الأسبوع، وهو ما سيسمح لي بالنوم حتى الظهر في هذه الأيام. عملتْ في مكتبة من قبل، لذا اعتادت الوظيفة سريعًا. ظَلَّ بائع الشاي يُراقِبُ قدومها ورحيلها بضيق، فهو لم يتحمل فكرة أنه لا يعرف شيئًا عنها.

"فوفو" صديقي، لذا فأنا لا أحبُّ قول ذلك، لكن "بيلين" أفضل، تعمل خمسة أضعاف "فوفو". فعندما يحين دورها لفتح المكتبة، تفعل ذلك في الموعد المحدد بالضبط. تقوم بنفض الغبار عن الكتب ووضع الأزهار على الترابيزة. كما تقوم دائمًا بعمل الشاي والقهوة الطازجين، هذا في حال كون مزاجها رائقًا. إنها نموذج مثالي لمعاييري الألمانية. عيبها الوحيد هو أنها لا تحب روايات الجريمة، لكنني ظننتُ أننا نستطيع التغاضي عن الأمر. على العموم هذا لم يزعجني حقًا.

قالت "بيلين" إنها تحب الكتب والعمل في المكتبات، حتى ولو لم تحب روايات الجريمة، لكنها عادةً ما تُلَمِّحُ إلى رغبتها في زيادة المرتب. الأتراك الذين ينتمون لعائلاتٍ طيبة، لا يتحدثون عن طموحاتهم المالية، بل يلمحون لها.

قلت لها وأنا أتَّبع أسلوب التلميح ذاته مثلها:

- سنتباحثُ بشأن ذلك، مَنْ يعلم ما قد يحدث؟

فكَّرت أنه لو لم يعد "فوفو" خلال ثلاثة أشهر فسأبيع سيارتي كي أستطيع إعطاء "بيلين" مرتبها، لكن صديقتي العزيزة "لالي" أنقذتني من تلك الأزمة المالية. فعندما قابلت "بيلين"، بدأت تحكي لها عني، وكيف أني لم أتخلص من الآثار الضارة لخلفيتي الألمانية الريفية الفظيعة، على الرغم من

أنني قضيتُ أول سبع سنواتٍ وآخر ثلاث عشرة سنةً في إسطنبول أي عشرين عامًا من حياتي. قالت إنني نموذجٌ مثالي للألماني البخيل. فأنا لا أشعل أضواء المنزل إلا للضرورة، ولا أستخدم حتى مصابيح الهالوجين لتوفير النفقات، والحرج فقط هو ما يمنعني من تمضية أمسياتي على ضوء الشموع مثل باقي الألمان. ما إن تبدأ "لالي" في التأليف حتى تعجز عن التوقُّف. ظلتْ تثرثر وتثرثر قائلة إنني لتوفير المال أرفض ركوب التاكسي وإنني أستخدم أكياس الشاي المستعملة عندما يأتيني ضيوف، وأحاول جعل الناس يدفعون ثمن وجباتهم في المطاعم، وهكذا. لا يمكنني ترك الأمر يمرُّ دون تعليق. عندما يدفع كل شخصٍ فاتورته الخاصة منفصلًا عن الآخرين يسمي الأتراك ذلك "الطريقة الألمانية". ينظرون إليَّ نظراتٍ جانبية، ثم يتبادلون النظرات الساخرة وكأنني من اخترعت الطريقة الألمانية في دفع الفواتير.

على العموم قالت "لالي" كل شيءٍ عني. ظللتُ صامتة لأنني لم أرغب في أن أكون مضطرةً للدفاع عن هؤلاء الألمان غير المحتملين. وبالطبع كما توقعتُ، صار الأمر لصالحي. تظنني "بيلين" الآن مهاجرة مظلومة، وتشعر بالتعاطف معي. أنا واثقة أنه حتى لو عرضَ عليها أحدٌ ثلاثة أضعاف راتبها الحالي فلن تتركني.



2



اتصلت "بيترا" مجددًا في شهر مايو.

كان ربيع إسطنبول الساحر على وشك التحوُّل فجأة إلى صيف. كنت أحبُّ أن ترى "بيترا" ربيع إسطنبول.. أن تشرب الشاي في ظِلِّ أشجار الصنوبر العتيقة في حدائق القصور العثمانية المذهلة.. أن تسير في الشوارع المفعمة برائحة شجر السنط.. أن ترتجف من رطوبة حوض الكاتدرائية البيزنطي.. أن تُشعل شمعةً في إحدى الكنائس بينما ينادي المؤذن للصلاة.. أن تنعم بدفء شمس الربيع على العُشب الرطب من ندى الصباح الباكر وهي تنظر إلى ميدان سباق الخيل ونافورة السلطان أحمد.. أن تأكل الخرشوف المُعدَّ بزيت الزيتون في مطعم "الحاج خليل"...

قالت "بيترا":

- لقد حصلنا للتَّوِّ على تصاريح التصوير.

البيروقراطية التركية تشبه البيروقراطية الألمانية.. كلاهما معروفٌ ببطئهما المستفز في الأعمال الورقية، لذلك لم أكن متفاجئةً على الإطلاق بهذا التأخير. كان مخططًا أن يبدأ التصوير في أواخر إبريل، لكنه الآن لن يبدأ إلا في بداية يونيو.

قلتُ في سري: "سيفوتكِ الربيع".

أخبرتُها أنني سأقابلها في المطار. فندقها قريبٌ من بيتي، لذا لن تكون هناك مشكلة في أن نتقابل.

ᘓᘐ

أمضيتُ واحدة من أطول الساعات في حياتي في كافيه مليءٍ برائحة الدَّخَان في مطار أتاتورك الذي تم توسيعه مؤخرًا في محاولة للتنافس مع مطار أثينا. إلى كل مَنْ يظنُّ أن عدد السجائر التي يدخنها الناس يزداد في لحظات الوداع أو اللقاء، فلتعلموا أن الأتراك لا يحتاجون لعذرٍ للتدخين، وهكذا كان من الطبيعي للغاية أن أجلس في كافيه، وعيناي تحرقانني بسبب الدخان الذي جعل التنفس مستحيلًا كذلك.

لا خيار لديَّ سوى الانضمام إلى الأغلبية المدخِّنة.

هل كنتُ متحمسة لأني سأرى "بيترا" قريبًا؟ هل افتقدتها؟

حاولتُ تخيُّل وجهها وآثار السنين عليه. يا لها من حياةٍ عاشتها! ويا لحياتي أنا؟! أوقفتُ نفسي عن التعمُّق في الأمر وعمل تقييمٍ شامل لحياتي في مكان وزمان غير مناسبين، وذلك حين تم الإعلان عن هبوط الطائرة التي تقلُّ "بيترا".

الذهاب لمقابلة "بيترا" في المطار كان مضيعة تامة للوقت. المكان مليء بالصحفيين الذين يحاولون التقاط أي صور لطاقم الفيلم، لكن، انتهى الأمر سريعًا. تحرَّك فريقٌ من حرَّاس الأمن لإبعاد "بيترا" عن الحشد، لكنها رأتني وأنا ألوِّح وأقفز في محاولة لجذب انتباهها، وصاحت في الرجال ليسمحوا لي بالمرور. بعد بضع ثوانٍ وجدنا أنفسنا جنبًا إلى جنب ويحيط بنا حائطٌ من الرجال ضخام الجثة يوجهوننا إلى المخرج.

لم أضع في اعتباري أن صديقتي القديمة نجمة سينمائية، ومن الواضح أيضًا أن طاقم الفيلم لم يتوقعوا أن "بيترا" ربما تكون لديها صديقةٌ حمقاء مثلي تعيش في إسطنبول. وقفت سيَّارة ليموزين تنتظرهم. عندما رأيتها، كان من المستحيل أن أقول: "لا تذهبي مع هؤلاء الهمج، سأذهب لأحضر سيارتي". فسيارتي البيجو موديل ٨٢ ستثير الشفقة مقارنة بتلك الليموزين الرائعة. في النهاية، بينما كانوا يدفعونها لتدخل السيَّارة، صحتُ قائلة إنني سأراها في الفندق. أشارت إليَّ "بيترا" بيدها موافِقةً، ثم ضغط السائق على دوَّاسة البنزين وانطلق.

قدتُ سيَّارتي على الطريق الساحلي من المطار حتى الفندق. كان مضيق البوسفور المتصِّل ببحر "مرمرة" على أحد جانبيَّ، وعلى الجانب الآخر يوجد خليطٌ من أحياء الفقراء ومتوسطي الدخل بمبانيها القبيحة والطويلة. ولأن اليوم هو الجمعة، لم يكن المرور مزدحمًا، حتى أنني قِدْتُ سيَّارتي بأقصى سرعة. كانت هذه هي المرة الأولى منذ مجيئي إلى إسطنبول التي لم يؤثر جمال المدينة - الذي نجا من الإهمال ومحاولات إفساده - في عقلي. كنتُ أفكر في "بيترا". ذلك التعبير الذي ظهر على وجهها لحظة.. وكأن قلبها بحاجة لإعادة الشحن، وكأنها عاجزة عن التأقلم مع الحياة، وكأنها مُحطَّمة بشكلٍ ما.. هناك نوعٌ من الحزن يحفر نفسه في وجوه الناس وتعبيراتهم لكنه لا يظهر في الصور.. لا يوجد كريم أو عملية تجميل لمحوه... إنه حزنٌ عميقٌ ومُظلِم ولا علاج له.

في النهاية ومع غروب الشمس على خليج القرن الذهبي، عَلِقتُ بالزحام في منطقة "سراي بورنو". أردتُ الاتصال بـ"بيلين" لأخبرها بألا تنتظرني وأن تغلق المكتبة وتعود للمنزل. عندما تركتها قلت لها إنني لن أغيبَ طويلًا، لكن فات الكثير من الوقت منذ أن أخبرتُها بهذا. لم أضع في حسباني زحمة مساء الجمعة، وكنتُ أُصارِع في زحمة فوضوية يحاول أي مواطن إسطنبولي حقيقي

تجنُّبها مهما يكن الثمن. إن عدتُ للمحل سأتأخر على "بيترا" في الفندق، وإن لم أعد للمحل فستظل "بيلين" تنتظرني.

إنها لحظة من تلك اللحظات التي تؤمن فيها بأن التليفون المحمول شيء أساسي ولا يمكن الاستغناء عنه حرفيًا. كان بإمكاني رَكْنُ السيَّارة والبحث عن كابينة تليفون، لكن حتى إن وجدت مكانًا للركن، فغالبًا لن أجدَ أي تليفون بالقرب منه. كنتُ على وشك البكاء من الإحباط حين واتتني فكرة مُبتكرَة. بدا أن سائق السيَّارة الواقفة بجواري رَبُّ أسرة طيِّب من المواطنين المحليين، لذا ناديته قائلة:

- بعد إذنك، هل معك تليفون محمول؟

اندهش الرجل المسكين من سؤالي بالطبع. فهذه الأيام حتى تلاميذ المدارس الابتدائية معهم تليفون محمول، لماذا أسأله ذلك السؤال الغبي إذًا؟

- أنا بحاجة لعمل مكالمةٍ طارئة. لم أظن أن المرور سيكون بهذا السوء. هل تسمح لي باستخدام تليفونك المحمول؟

بعدما أنهيتُ الاتصال لم أعرف كيف أُغلق التليفون، فناولته إيَّاه وهو ما زال مفتوحًا، وعرضتُ عليه دفع ثمن المكالمة، فقال:

- لا داعي لذلك يا سيدتي.

وليوضِّح أنَّه لا يجاملني، قام بعض شفته السُّفلى وأمال رأسه إلى الجانب ورفع يده قائلًا:

- حقًّا، لا داعي لكل هذا.

وصلتُ إلى الفندق الذي تقيم فيه "بيترا". جسدي المرهق المسكين كان يتعرَّق بغزارة، وساقاي كانتا متيبستين من الضغط المستمر على الدوَّاسة

والفرامل والتعشيق، أمَّا وجهي فكان مُصفرًّا من كثرة السجائر التي دخنتها للسيطرة على شعوري بالغضب. تأخرتُ أكثر ممَّا توقعت. لا بد أنهم قد وصلوا الفندق قبلي بوقتٍ طويل. من الغباء التفكير في مشهد تلك الليموزين الضخمة وهي تحاول الهرب من زحمة المرور، ألا توافقني الرأي؟

عندما طلبتُ من موظف الاستقبال إخبار "بيترا" بوصولي، لم أفهم لماذا نظر إليَّ بمزيجٍ من الاحترام والدهشة. حتى أدركت أنه ظنَّ أنني أحد المشاهير الأثرياء، بغض النظر عن مظهري.

كانت "بيترا" تقيم في جناحٍ رائع يطلُّ على منظر خلَّاب. يكاد جناحها يكون أكبر من شقتي. هذه المرة حظينا بلمٍّ شملٍ مناسب. بلا مبالغات، تصرفنا كألمانيتين لم ترَ إحداهما الأخرى منذ سنين وتقابلتا أخيرًا. تخيَّل أنك في فيلمٍ للمخرج الألماني "فولكر شلوندورف"، وهو أفضل المخرجين الألمان الذين نجحوا في إخراج مشاهد لَمِّ الشمل الألمانية. على سبيل المثال، كان هناك مشهدٌ في فيلم "أسطورة ريتا" الذي شاهدته في رحلتي الأخيرة إلى برلين. الفيلم يدور عن مقاتلتين في الجيش الأحمر تقدمتا للمحاكمة معًا، ثم تذهبان إلى فلسطين حيث تخطفان رجلًا من السجن وتقتلان رجل شرطة. أنت تظن أن مواجهة تلك الأخطار ستجعل تلك السيدتين الباردتين مقربتين للغاية، أليس كذلك؟ كلا، لم تفعلا هذا. على العموم تقابلت السيدتان مصادفةً بعد عدة سنوات في ألمانيا الشرقية. هناك حظيتا بلِمِّ شملٍ مناسب، لَمِّ شمل ألماني بحقٍ، تمامًا مثل لم الشمل بيني وبين "بيترا".. مصافحة بالأيدي وتلامس الخدين. هذا كل شيء. لا عناق ولا أحضان، ولا حتى تربيتٌ على الظهر. كما ترى، على الرغم من معارضتي للأفكار التقليدية المُبتذَلة عن الجنسيات، أحيانًا أضطرُّ للاعتراف بأن أفعال بعض الألمان النمطية تعكس الحقيقة صراحةً.

لكن لنعُد إلى ما كنتُ أقوله. اعتذرت "بيترا" بشدة، وقالت إنها لم تظن أن وصولها قد يسبب جلبةً كهذه، وتمنَّت لو أنها لم تطلب مني القدوم لمقابلتها في المطار.

كنا مرهقتين للغاية فقررنا عدم النزول للتجوُّل في الشوارع، لذا اقترحت "بيترا" أن نطلب الطعام في الغرفة وأن نتخلى عن أي فكرة للخروج. عليَّ الاعتراف بأنني شعرتُ بالعرفان لها على ذلك.

مضت سنواتٌ كثيرة منذ أن تقابلنا أخر مرة، لكن خلال أول تسعين دقيقةٍ من لقائنا لم نتحدث عن ماضينا إلا بكلماتٍ قليلة للغاية. مع ذلك، عجزتُ عن التخلص من الأفكار المظلمة التي راودتني منذ رأيتها في المطار. أصبحت "بيترا" أكثر تحفظًا. لم نكن مقربتين للغاية من قبل، لكنني لم أشعر قط أنها بهذا البُعد. عادةً حين ألتقي بأصدقاء قدامى نتحدث عن كل ما حدث منذ آخر لقاءٍ لنا، وكيف أننا لن نقطع الاتصالات مجددًا. لكن الأمر مختلف تمامًا هذه المرة. لا أعرف لماذا، لكن التوتُّر الذي شعرتُ به لم يكن فقط بسبب عدم رؤيتنا لبعضنا البعض منذ سنوات. هناك شيء ما مفقود. لا علاقة له بي أو بعلاقتنا. هل فقدت "بيترا" شيئًا بداخلها وأرادت إيجاده بداخلي أنا؟

تركتها مستلقية على الأريكة بسبب الإرهاق. أفكارٌ كثيرة تعصف برأسي. كنتُ كما يقول الأتراك "مثل حلة الطبخ" التي تغلي بما داخلها. أخرجتُ سيَّارتي من جراج الفندق. طال الزحام منطقة "أورتاكوي"، وهكذا انضممتُ للزحمة مرة أخرى. اتجهتُ إلى الكوبري الذي سيأخذني إلى الجانب الآسيوي من المدينة. قررتُ الذهاب إلى بيت "لالي". لم أرغب بقضاء مساء الجمعة وحدي بالمنزل.

حين استيقظتُ في الصباح التالي، بدأت باستيعاب أنني كنتُ نائمة على الأريكة التي تتحوَّل إلى سرير الموجودة في غرفة مكتب "لالي". أوَّل ما فعلته هو الاتصال بـ"يلماز". أخبرته أنني لن أستطيع مقابلته صباح السبت كالمعتاد.

ثم اتصلت بـ"بيترا". قالت إنها استيقظت باكرًا للغاية وتناولت فطورها أيضًا. أخبرتني بأنها ستعرف جدولها لهذا اليوم ثم ستتصل بي بعدها مباشرةً.

كنا نشرب القهوة وأمامنا أطباق الفطور الفارغة في الحديقة في حي "كوزجونجوك" حينما رنَّ تليفوني. كانت "بيترا" هي المتصلة. اتصلت لتخبرني بأنها لن تستطيع مقابلتي على العشاء الليلة. إنهم متأخرون كثيرًا عن جدولهم، ويريد المخرج أن يبدأ العمل فورًا دون إضاعة المزيد من الوقت.

شعرتُ بالضيق، لكنني لم أخبر "بيترا" بذلك. على العموم لم تكن غلطتها. لم تكن غلطة أحد، لكن ماذا يُفترض بي أن أفعل في يوم السبت اللطيف هذا؟

أحبطتني "لالي" أكثر. فهذا هو اليوم الوحيد الذي لا تذهب فيه للعمل. قضينا نصف ساعةٍ نتساءل: ماذا سنفعل؟ وأخيرًا قرَّرنا قضاء اليوم في صالون التجميل. على الأقل بعد قضاء يومٍ في الاعتناء بجمالك سيبدو شكلكِ معقولًا، خاصةً عندما تكونين امرأة في منتصف العمر وتبحثين عن شابٍّ لطيف.

عدتُ إلى المنزل في بداية المساء وأنا أشعر بالإرهاق والاسترخاء في الوقت ذاته، لكنني بدوتُ رائعة. أحد الأمور التي أحبُّها في إسطنبول هي صالونات التجميل. هذا جزء من حياتهم اليومية هنا، يذهب الناس لمصففي الشعر وصالونات التجميل كونه روتينًا يوميًّا. في ألمانيا معظم النساء أو كلهنَّ – ما عدا أمي وصديقاتها – يعتنين بشعورهن بأنفسهن. أمَّا عن الـ"مانيكير" والـ"باديكير" فلا يفكر أحدٌ بهما أساسًا. لذلك الشوارع مليئة بالناس الذين لا يُفضِّلون رؤيتهم. مدينة ميونيخ مختلفة. هناك تجد أشخاصًا ذوي حسٍّ جمالي، لكن النساء في برلين لا تشجعك هيئتهنَّ على الخروج حتى من منزلك. أمَّا الأشخاص الذين تقابلهم في المترو وفي الشوارع سيجعلونك تشعر بتقزُّز بالِغ.

في الوقع، أكثر الناس أناقةً في برلين هم الأتراك، لكن فقط الجيل الثاني أو الثالث من الفتيات التركيات اللاتي يرتدين الحجاب. تلك الفتيات المحجبات أنيقاتٌ بشكلٍ لا يُصدَّق. بالطبع حين أقول أنيقات فهذا لا يعني أنهن يرتدين آخر تصميمات "جيل ساندر". إنهن يصنعن تصميماتهن الخاصة ويُلحِقْنَ بها أحذيةً عصرية ذات نِعالٍ عالية تُدعى (platform shoes) وبنطلونات نايلون رخيصة، لكنها ذات تصميمٍ حديث ومعاطف من الجلد الصناعي. يرتدين الحجاب بأحدث الألوان ومعه بلطو طويل تتماشى ألوانه مع ألوان حجابهن.

الجيل الأول من المحجبات في برلين كان مختلفًا بالكامل. أظن أن المحجبات يفهمن تمامًا هذا الفرق بين الجيلين أفضل من أي شخص. في طفولتي كنا نطلق كلمة "بطاريق" على الجيل الأول من المحجبات. كن جميعًا متشابهات وبلا ملامح. نساء قصيرات سمينات يرتدين معاطفَ رمادية ويتهادين يمنة ويسرة مثل البطاريق. كن مختلفاتٍ تمامًا عن فتيات الجيل الحالي الشابات على الرغم من أنهن جميعًا يرتدين الحجاب.

عندما دقَّت الساعة الثامنة، اكتشفتُ أن العشاء الموعود مع "بيترا" لن يتم. من الواضح أنه من الضروري لها البقاء مع طاقم عمل الفيلم هذا المساء. تحدثنا قليلًا على التليفون. تشعر بأنها لا يمكنها تحمُّل المزيد. من الواضح للغاية أنها تفضِّل البقاء معي. كنت حزينة بحق، وبصراحة شعرت بالقلق عليها. أردتُ إخبارها بأنها تبدو متعبة، لكنني أمسكتُ لساني. من الأفضل عدم قول ذلك للناس. سيجرح شعورهم إن أخذوا كلامك على محمل الجدِّ.

يمكنك أن تتخيَّل شعوري حين انهارت خططي لقضاء أمسية السبت. بدا كل شيء أكثر إحباطًا مما كان في الصباح. بالتأكيد لا أتمنى البقاء في المنزل بأظفاري المطلية وشعري المُصفَّف وبشرتي المنتعشة. لا شيء سيقنع "لالي"

بالخروج من منزلها في يوم إجازتها الوحيد، لذا لم أحاول حتى الاتصال بها. اتصلتُ بـ"أرزو" على تليفونها المحمول. "أرزو" دومًا لديها ما يشغلها، وتلك الأمسية ليست استثناءً للقاعدة. قالت إنها ستقابل بعض الأصدقاء الذين أعرف بعضهم الساعة العاشرة في كافيه "كاكتوس". سيقررون ماذا سيفعلون باقي الأمسية حين يصلون. اتفقنا على اللقاء خلال ساعاتٍ قلائل وأنهينا الاتصال.

كافيه "كاكتوس" هو مكان مُهمٌ في إسطنبول. أظن أن ميزته الأساسية هو أن جميع الزبائن يعرفون بعضهم البعض. الزبائن المعتادون كلهم من الطراز نفسه: صحفيون وكتّاب ورجال يعملون في مجال الدعاية.

كنت على وشك مغادرة الشقة، وكنت أتفحَّص شعري وزينتي في المرآة الكبيرة في الصالة حين رن التليفون فجأة. كانت "بيترا" المتصلة.

قالت لي:

- تمكنتُ من التخلص من الطاقم هذا المساء، لذا يمكننا اللقاء إن رغبتِ بذلك.

لم أستطع إخبارها أني أعددتُ خُططًا أخرى في الوقت الراهن. قلت لها:

- سآتي لاصطحابك في نصف ساعة.

لم أجد مشكلة في الاتصال بـ"أرزو" مجددًا وإخبارها بعدم حضوري. لا تنزعج "أرزو" بتلك الأمور.

هذه المرة كنتُ متعقلة وتركت سيَّارتي عند المنزل. إن استطعت فقط أن تجزَّ على أسنانك وتحتمل السائقين فمن الأرخص أن تستقل تاكسي بدلًا من دفع أجرة ركن سيَّارتك. ولن تضطر لحرمان نفسك من شرب الخمر. شرطة المرور أكثر تسامحًا مع السائقات من النساء، لكن حتى مع ذلك، إلا أنهم قد بدؤوا بفرض القيود على شرب الكحوليَّات في حياة إسطنبول الليلية.

استغرقتُ أقل من نصف ساعةٍ لأصل إلى الفندق. اتصلتُ بـ"بيترا" عن طريق التليفون الداخلي في صالة استقبال الفندق، ثم جلستُ في الصالة أنتظرها لتنزل. فكرتُ، أين سآخذها لتناول عشاءٍ متأخر؟ أنذهبُ إلى بار تركي جيد أم إلى مطعم سمكٍ أنيق أو نصف أنيق يطلُّ على مضيق البوسفور؟ عجزت عن اتخاذ قرار.

عندما ظهرت "بيترا" في المصعد بعد ربع ساعة كان واضحًا أننا لن نستطيع دخول أي مطعمٍ معقول، فما بالك بمطعمٍ أنيق أو نصف أنيق. تحوَّلتُ فجأة إلى سائحة ألمانية من الطبقة المتوسطة، ترتدي حذاءً رياضيًا بجواربَ رياضيةٍ بيضاء، وشورت واسع وتي شيرت يبدو أقرب إلى خرقة بالية للتنظيف بمعايير إسطنبول. لو سألت طفلًا بعمر ثلاث سنوات: أين النجمة السينمائية؟ فسيشير إليَّ. لذلك لم يكن لاسم "بيترا فوجل" صدى البارحة نفسه عند مكتب استقبال الفندق. تساءلت عما كانت تفعله في نصف الساعة الماضية التي أمضيتها في الطريق إلى هنا وفي ربع الساعة التي انتظرتُها في صالة الفندق. التزمتُ الصمت مجددًا لأني لستُ فظَّة مثل معظم الألمان، خاصةً سكَّان برلين.

احتجتُ للتفكير بسرعة واتخاذ قرارٍ سريع. لديَّ الآن صديقة ترتدي جوارب بيضاء وحذاءً رياضيًا، هذا صحيح. قابلتُها بعد عدة سنوات وما زالت هناك رابطة بيننا، هذا صحيح. لكن، هل أردتُ أن تعرف إسطنبول بأكملها في تلك الليلة الجميلة أنني أعرف صديقة كهذه؟ لا. هُرعت إلى "بيترا" ودفعتها إلى داخل المصعد.

قلتُ لها:

- لا أشعرُ أنني بخير. المكان مزدحم بالخارج.. إنه زحام إسطنبولي طبيعي في مساء السبت.

توقفت لألتقط أنفاسي، ثم قلت:

- ماذا عن الجلوس في شرفتك وطلب بعض الطعام من خدمة الغرف مثلما فعلنا ليلة أمس؟

سألتني "بيترا" وهي تنظر إليّ بعدم تصديق:

- أنتِ واثقة من أنكِ لا تريدين الخروج؟

أجبتها:

- تمام الثقة.

تكلفة جناح "بيترا" يعادل على الأرجح إيجار شقتي مدة ستة شهور، لكن الفندق يستحق كل قرشٍ مدفوع. أيمكن لغرفة بفندق جعل الإنسان سعيدًا؟ حسنًا، هذه الغرفة يمكنها ذلك. جذبت "بيترا" للداخل، ثم أغلقت الباب وغمرتني سعادةٌ لا توصف.

اتصلنا بخدمة الغرف وطلبنا الخمر والجبن، ثم جلسنا في البلكون حيث يمكننا سماع موسيقى السول آتية من بار الجاز الشهير الخاص بالفندق. شعرت بسلامٍ داخلي، و"بيترا" كانت في مزاجٍ جيد. بدأتُ أثرثر.. أخبرتها عن علاقاتي الغرامية الماضية وما كنت أفعله في حياتي.

تحدثتُ أولًا ثم جاء دورها.

حينما وصلت لمرحلة العجز عن سماع المزيد من حديث "بيترا" كان الوقت قد تخطى الفجر بكثير. شربتُ الكثير من الخمر في محاولة مني لحماية نفسي من المأساة التي عاشتها صديقتي. غادرنا الفندق وسرنا في صمت حتى وصلنا إلى قصر "دولما باشا". أشعرني نسيم الصباح الباكر بالتحسُّن، على الرغم من أنه لم يرجعني للواقع. ذهبنا نحو الكافيه المجاور لقصر "دولما باشا" حيث شربنا شايًا لنزيل شعورنا بالبؤس ونمحو كوابيس الماضي.

كان الوقت ظهرًا حين عدتُ للمنزل. استغرقتُ وقتًا طويلًا في الاستحمام ثم ذهبت للسرير حيث تقلبتُ وتمطيتُ كثيرًا حتى ذهبتُ في النوم.

طاردني كلام "بيترا" وأمعنت التفكير فيه. ما مرَّتْ به كان واقعًا مرعبًا بحقٍّ. شيءٌ ما تغيَّر بداخلي، وكأن جزءًا بريئًا بداخلي قد صار فاسدًا. وذلك الفساد بدا وكأنه قد حُفِر في قلبي. كنتُ طفلةً صغيرة حين تعلمتُ للمرة الأولى كيف تؤثِّر فيك مآسي الناس الشخصية وتدمِّر إيمانك في الطبيعة البشرية. حتى لو لم تمر بتجربةٍ شخصية يمكن تسميتها بمأساة.

أقلق رنين التليفون المستمر الكوابيس التي ظلَّت تُطارد أحلامي. عندما قررتُ النهوض أخيرًا لم أشعر بمثل هذا التعب في حياتي. ظلَّت كلمات "بيترا" تعصف بعقلي، وبدا كل شيء أسوأ من الليلة السابقة. لن أتمكَّن من قضاء الليلة وحدي بالمنزل، لذا قفزتُ في السيَّارة وذهبتُ لرؤية "لالي"، وهو ما أفعله عادةً كلما شعرتُ بالحزن.

عندما استيقظتُ صباح اليوم التالي، كانت "لالي" قد ذهبت لعملها المفضل منذ وقتٍ طويل. مع ذلك كان الوقت ما زال مبكرًا لدرجة أن الناس العاديين بمن فيهم موظفو الحكومة لم يستيقظوا بعد. اتصلتُ بـ"بيلين" في المنزل وأيقظتُها لأخبرها أنني لن آتي للمحل حتى الظهيرة. أردتُ تجميع أفكاري وقررتُ أني سأشعر بتحسُّنٍ إذا تمشيتُ في الشارع قليلًا أو ذهبتُ لمشاهدة فيلمٍ كوميدي. في النهاية عجزت عن فعل أيٍّ من ذلك. كان عليَّ رؤية "بيترا". قد يساعدني الجلوس في مكان التصوير ومشاهدتها. السبيل الوحيد للهروب من ذلك الإحباط وذلك الكابوس هو الوجود مع "بيترا" ورؤية كيف تتعامل مع ذلك البؤس في حياتها. هذا أفضل حَلٍّ استطعت التفكير فيه.

بدا وكأن قلبي قد حَلَّ مكانه ثقبٌ أسود ضخم يبتلع مشاعري. أردتُ البكاء لكنني لم أستطع. أردتُ التحدث مع "لالي"، لكنني لم أستطع نطق كلمة واحدة الليلة الماضية، فبفضل الحبوب المُنوِّمة التي أعطتني إيَّاها "لالي"، تمكنّتُ من النوم بضع ساعاتٍ فقط لا غير. والآن مع طلوع الفجر كنتُ أجلس في الحديقة ممسكةً بفنجانٍ من القهوة بينما أفكر في كيفية قضاء الساعات الطويلة القادمة.

بحلول الساعة الثامنة قررتُ الاتصال بـ"بيترا". غالبًا هي مستيقظة لأنها ستقوم بتصوير عدة مشاهد اليوم. على العموم لم تكن "بيترا" من النوع الذي ينام حتى الظهيرة. يعتبر العديد من الناس أن الانضباط والنجاح متلازمان، في حين أن أشخاصًا مثلي يعبثون في الحياة دون أيٍّ منهما.

أجاب رجلٌ على التليفون الذي في غرفة "بيترا". رجلٌ في الساعة الثامنة صباحًا في غرفة "بيترا" ويجيب على التليفون بالتركية. فكرتُ في نفسي: "يا إلهي! يا للنفاق!". لقد أخبرتني البارحة فقط أنها لم تستطع الدخول في علاقةٍ جديدة بعد التجارب التي عاشتها، وأنها الآن متخبطة بسبب هذا الأمر. ومع ذلك، بعد ثلاثة أيامٍ من وصولها إلى إسطنبول يُجيب على تليفونها رجلٌ تركي! من المؤكد أنَّه أسمر ووسيم. ردُّ الفعل الأول الذي خطر على بالي كان أن أُنهي المكالمة وأمحو "بيترا" وكل ما أخبرتني به من حياتي. لكنني كبرتُ على مثل تلك التصرفات.

- هل يمكنني التحدث إلى "بيترا" لو سمحت؟

أجاب بلكنة سكَّان البحر الأسود الثقيلة:

- سيدتي، هل تتصلين من إسطنبول؟

منعت نفسي بصعوبة من قول: "وما شأنك أنت؟"، فهذا ردٌّ يعدُّه الرجال الأتراك فظًّا للغاية.

- لماذا تسأل؟

- أنا "علاء الدين"، ضابط شرطة من قسم شرطة "أورتاكوي". نحن هنا للتحقيق في جريمة قتل. لو تسمحين...؟

قتل... قتل...

لم أقابل تلك الكلمة إلا في الروايات. هذه أول مرة أسمعها في الواقع.

قلتُ بصعوبةٍ شديدة:

- قـــ.. قـــ.. قتل؟؟ أهي "بيترا"؟

تردد "علاء الدين"، فمن غير المسموح لهم إعطاء المعلومات، كما أنه لا يملك الصلاحية اللازمة بأي حال.

- اسمع أيها المفتِّش، أنا صديقة "بيترا فوجل". ما أريد معرفته ليس من أسرار الدولة. أنا فقط أريد معرفة إذا ما كانت "بيترا" بخير.

يمكنني إخبارك أن مخاطبة "علاء الدين" بلقب "مفتِّش" كانت فكرةً جيدة، فقد زال حذره مباشرةً.

- آنسة "فوجل" بخير يا سيدتي.

- أشكرك أيها المفتِّش.

قلتها هذه المرة كمكافأة. "بيترا" بخير. أو على الأقل ليست الشخص الذي قُتِل. لكن بما أن التحقيق يجري في جناح "بيترا" هذا يعني أن جريمة القتل متعلقة بها بشكلٍ أو بآخر. مما يعني على الأرجح أن أحد أفراد طاقم عمل الفيلم هو من قُتِل. ماذا عساه يكون غير ذلك؟ قررتُ ارتداء ملابسي والذهاب للفندق مباشرةً للأسباب التالية:

أولًا- قد تحتاجني "بيترا". رجال الشرطة هؤلاء يجب مخاطبتهم بلقب "مفتِّش". والمفتِّش ينادى بـ"رئيس المفتِّشين"، ورئيس المفتِّشين ينادى بـ"رئيس

شرطة المنطقة". أنا أحد القلائل الذين أدركوا أن استخدام رتبٍ وهمية يفتح الكثير من السُّبل في دائرة الشرطة. حان وقت استخدام تلك المعرفة.

ثانيًا- حدثت جريمة قتل. أنا أقرأ روايات الجريمة منذ طفولتي، وأبيعها منذ ثلاث سنوات. لم أعد مجرد قارئةٍ عادية. حان وقت استخدام معرفتي النظرية لخدمة المجتمع.

غادرتُ الشقة وقفزت في سيَّارتي. الأحداث تتوالى عليَّ منذ شهرين حتى الآن. أولًا، صديقي العزيز "فوفو" وجد حبيبًا واختفى من حياتي دون تردد. كنتُ أفتقد "فوفو". ثم جاءتني ما يمكن أن أعدَّها أخبارًا سارة، وهي أن صديقتي الأكثر شهرة "بيترا" التي لم أرَها منذ سنواتٍ آتية إلى إسطنبول. وبمجرد أن وجدنا فرصة لإجراء حديث مناسب، قصَّت عليَّ قصةً مأساوية كافية لجعل العالم أكثر سوادًا حتى لشخصٍ أسود القلب. والآن جناحها مزدحمٌ برجال شرطةٍ من قسم شرطة "أورتاكوي".

حاولت تهدئة نفسي بتكرار أن وضع "بيترا" أسوأ بكثيرٍ من وضعي، وأن تلك المشكلات المتراكمة صارت ذكرياتٍ حلوة بعد أن كانت كوارث سابقة في حياتي. هذا كان الجانب المشرق من الموضوع. لا أريد حتى التفكير في ما تخبئه الأيام القادمة.

في أثناء محاولتي عبور جسر البوسفور في الازدحام الصباحي المعتاد لإسطنبول كي أصل للجانب الأوروبي من المدينة، فكَّرت فيما حدث لـ"بيترا" خلال السنوات الماضية.



3



حينما أنهينا الجامعة في بداية الثمانينيات، قررتُ أن أتجوَّل وأسافر حول العالم فترة. كنتُ سأعيش مثل "الهيبي". أمَّا "بيترا" فكانت تتقدم بسرعة في عملها. لم أكن قد غادرت برلين حين بدأ يظهر اسم "بيترا فوجل" في السينما والتليفزيون. لم تكن شهيرة بالمعنى الكامل للكلمة في تلك المرحلة، لكننا علمنا أنها ستصبح كذلك عاجلًا أم آجلًا. في ذلك الوقت انقطع الاتصال بيننا. على الرغم من أننا لم نتقابل، ظللنا نتابع أخبار بعضنا البعض من خلال الأصدقاء المشتركين. آخر ما سمعته من هؤلاء الأصدقاء هو أنها كانت تعيش مع "فولفرام فون هيجن" أحد قادة حركة الطلاب الاشتراكية. "فولفرام" كان طالب طبٍّ عبقري، وصاحب خُطبٍ رنَّانَة، ورجلًا شديد الوسامة. نصف الفتيات اللواتي أعرفهن كنّ واقعاتٍ في حبه. حينما سمعتُ أن "بيترا" معه لم أصدق. صحيح أن "بيترا" صديقتي، لكن لم أفهم ما الذي رآه شخصٌ مثل "فولفرام" فيها. لم أكن أشعر بالغيرة لكن كيف!

"بيترا" و"فولفرام" متناقضان تمامًا. تمنت "بيترا" بداخلها أن تكون ربَّة منزل. لديها حبٌّ كبير للحياة، لكن يبدو أنها كانت تعمل فقط حتى تجد رجلًا

ينقذها ويبعدها عن الحياة العادية. لم تمتلك شغفًا حقيقيًا لمهنتها. ما زلتُ أفكر في "بيترا" بهذه الطريقة. إنها تعشق التنافس، لكن في رأيي.. السبب في بقائها ممثلة من الدرجة الثانية هو افتقارها للشغف.

أمَّا "فولفرام"، فلقد استمعتُ لبعض مناقشاته المفتوحة في الجامعة. على عكس "بيترا" يمكنه أن يكون شغوفًا بأي شيء. تحدَّث عن الثورة وعن الاشتراكية بطريقةٍ تقنع أكثر يميني متطرف وتثير أكثر الأشخاص خمولًا.

سمعتُ أنهما انتقلا للعيش معًا مُباشرة قبل مغادرتي لبرلين حاملة حقيبة ظهري وباحثة عن أفقٍ جديدٍ. في ذلك الوقت - وفقًا لما قالته "بيترا" - كانت علاقتها بـ"فولفرام" تنهار يومًا بعد يوم. من ناحيته ساءت علاقة "فولفرام" بعائلته الأرستقراطية الثرية التي قطعت بدورها علاقتها بابنها اليساري المتمرد. وهكذا، وقع عبء تسوية الأمور على "بيترا". عجز "فولفرام" عن أخذ قرار بما يجب عليه فعله بشأن شهادته في الطِّبِّ، وقضى كل وقته بين الاحتجاجات والاجتماعات السياسية.

بدأت "بيترا" تتوق لطفل. لم يكن الزواج عصريًا في منتصف الثمانينيات، والسبيل الوحيد لجعل العلاقة رسمية هو وجود طفل. في تلك الأيام كان الطفل يجعل العلاقة دائمة. مع ذلك أصر "فولفرام" دومًا على أنه لا يرغب بطفل، وأنه هناك الكثير من الأمور التي يرغب بفعلها في حياته. بدا واضحًا أنه يخشى إصرار "بيترا"، وليجد مهربًا بدأ بالبحث عن عمل خارج ألمانيا.

كانت "بيترا" حاملًا في شهرين حينما انضمَّ "فولفرام" إلى مجموعة أطباء يقومون بأبحاثٍ عن مرض الملاريا في مناطق متنوعة في أفريقيا. أصر "فولفرام" أن تخضع "بيترا" للإجهاض، لكنها كانت عنيدة وقالت إنها ستربي

الطفل بمفردها وأنها لا تريد شيئًا منه. تلك كانت آخر محادثة بينهما. لاحقًا بثلاثة أسابيع، سمعت "بيترا" أن "فولفرام" رحل إلى أفريقيا.

حينها كانت "بيترا" حاملًا في خمسة أشهر وتواجه مشكلةً عويصة. لم ترغب حقًا في الطفل، بل أرادت فقط استخدامه لإنقاذ عَلاقتيهما. لكن بما أن "فولفرام" لم يرغب في أن يكون لديه أطفال فقد انتهت عَلاقتهما على الرغم من طفلهما الذي لم يولد بعد.. لقد خسرت اللعبة.. على "بيترا" أن تفكر فيما ستفعله لو أنجبت الطفل. زارت العديد من الأطباء للقيام بالإجهاض، لكن لم يخاطر أحدهم بإجهاض جنينٍ بعمر خمسة أشهر. أخيرًا تقبَّلت "بيترا" قدرها، ستنجب الطفل وتتقبل هجر "فولفرام" لها.

كان مستحيلًا لـ"بيترا" أن تعمل ممثلة ببطنها المنتفخ. بعد التفكير مليًّا فيما ستفعله، حزمت أمتعتها وذهبت لبيت والدتها. تعيش والدتها بمفردها في بيتٍ بعيد قرب قريةٍ صغيرة على ضفاف نهر "الراين". بقيت "بيترا" هناك حتى تعافت من الولادة. ثم اتفقتا على أن تعتني أمُّها بحفيدها وسترسل "بيترا" إليها المال شهريًّا.

قليلون مَنْ عرفوا أن "بيترا" لديها ابنًا. لقد أخبرت أصدقاءها ومعارفها أنها خضعت للإجهاض، ربما لأن كبرياءها لم تسامح هجر "فولفرام". أخفتْ أمُّها أيضًا حقيقة أن الطفل هو ابن "بيترا". ففي المدن الكبيرة قد يبدو عصريًّا وجود أمهات عزباوات مثل "بيترا" يلدن أطفالًا بلا أب، لكن في ضواحي ألمانيا الريفية يُعد هذا تصرفًا غير أخلاقي. لم يكتشف أحدٌ الحقيقة. في القرية، عرفوا أن "بيتر" الصغير هو ابن شقيقة "بيترا" الكبرى المتزوجة والتي تعيش في كوريا. حتى أنهما لم تخبرا الطفل الحقيقة. كان يعتقد أن "بيترا" خالته.

كان "بيتر" طفلًا جميلًا. جميلًا لكن حزينًا كحال كل الأطفال الذين يكبرون على يد العجائز. كانت "بيترا" تزور ابنها في القرية مرة أو مرتين سنويًا، واستطاعت أن تُمضي معه إجازةً واحدة خلال السنوات الست الأولى من حياته.

أمَّا "فولفرام"، فقد استقرَّ في أفريقيا وذاع صيته في مجال أبحاث الملاريا. التقيا ذات مرةٍ في برلين مصادفةً، لكنه لم يسألها عن الطفل. قالت "بيترا": "ربما أخبره أحدٌ أني خضعت للإجهاض. مع ذلك كان عليه أن يسأل. عندما لم يذكر الأمر التزمتُ الصمت بدوري".

كانت "بيترا" تصعد سُلم الشهرة بسرعة. لم يعد لديها وقتٌ لأي شخصٍ ولا حتى ابنها. بمرور الوقت قلَّت رؤيتها له، لكنهما ظلا يتحدثان في التليفون. ظلت أمها تقول إن الطفل منعزل، وأنه لا يملك أصدقاء في المدرسة، وأن حياة الوحدة التي عاشها لا تناسب أي طفل. كانت "بيترا" تتناسى مخاوف أمها بمجرد أن تضع سمَّاعة التليفون، لكنها كانت دومًا ترسل مالًا إضافيًا في الشهر التالي.

منع العمل "بيترا" من رؤية ابنها الوحيد في يومه الأول بالمدرسة وفي عيد ميلاده السادس. بعد عيد ميلاده ببضعة أيام، اتصلت والدة "بيترا" لتقول إن "بيتر" لم يعد للمنزل تلك الظهيرة. تركت "بيترا" كل شيء وهَرعت إلى القرية.

"بيتر" كان طفلًا وحيدًا بلا أصدقاء، وأسوأ تلميذ في الصف، ودومًا ما يثير المتاعب. في ذلك اليوم رآه بعض الأولاد يتحدث إلى رجلٍ ما في أثناء خروجهم من المدرسة. بدا سعيدًا على غير العادة. كان يضحك بصوتٍ مرتفع وهو يمسك بيد الرجل ويستدير لينظر إلى الأطفال الآخرين. كان الرجل طويلًا وأشقر ويرتدي بذلة. لم يستطع الأطفال الإدلاء بالمزيد من الأوصاف عن مظهر الرجل. حسب كلام مالك البار بالقرية، تردد عليه كثيرًا رجلٌ بتلك المواصفات في الأسابيع الأخيرة. لم يتحدث إليه أحد، وهو لم يسعَ لجذب الانتباه إليه. كان غريبًا هادئًا في قريةٍ صغيرة.

قالت جدة "بيتر" إنه عاد للمنزل بدُميةِ دبٍ كبيرة في عيد ميلاده، لكنه لم يَقُل من أعطاه إيَّاها. قالت المرأة المُسنَّة: "لكنه تغيَّر بشكلٍ ما بعد عيد ميلاده ذاك. بدأ يقوم بواجباته المدرسية فور عودته من المدرسة، ويرتِّب غرفته، وبدا أسعد عن ذي قبل".

لاحظ مدرسوه أيضًا التغيير الذي طرأ عليه. قالوا: "بدأ يُظهِر اهتمامًا بكل شيء في الأسبوعين الأخيرين، وهو ما جعل أملنا فيه يعود من جديد".

ليس لـ"بيتر" أي صديق، ولا حتى واحد يشاركه أسراره. لم يعرف أطفال المدرسة، لماذا يتحدث "بيتر" إلى ذلك الرجل؟ أو لماذا يبدو سعيدًا؟ أو لماذا يمسك يده؟ أو متى قابلَه أول مرة؟ لم يكتب "بيتر" يوميات، في الواقع لم يكن يجيد الكتابة. لكنه كان يرسم. حاول طبيبٌ نفسي للأطفال يعمل مع الشرطة اكتشاف دلائل في تلك الرسوم لكن بلا فائدة.

تم توزيع صورة "بيتر" في جميع المدن والقرى المجاورة، لم يَرَ أحدٌ الفتى منذ تم اختطافه. ظهرت صوره في الأخبار وبرامج مكافحة الجريمة للحصول على أي معلومةٍ من أي شخصٍ رآه أو عرف مكانه. استأجرت "بيترا" مُحقِّقًا خاصًّا، لكنه عجز عن إيجاد أي دليل عن مكان "بيتر".

بعد اختطافه بشهرين، تم إيجاد جثة "بيتر" مجروحة ومشوهة في بلجيكا في الغابات المحيطة بإحدى القرى بالقرب من بروكسل. تعرَّض الجسد الصغير للاعتداء.

لم يتم التوصل إلى الجناة ولم تظهر أيُّ أدلة.



4



كان الطريق إلى أفخم فندق على البوسفور وأغلاه مكتظًا بالشرطة وسيَّارات الصحافة. بالتأكيد مقتل أحد نزلاء الفندق ليس جيدًا لسمعته، على الأقل حتى يتم حل المشكلة وينسى الجميع الأمر. مع ذلك أشكُّ في أن المالكين - أيًّا كانوا - يهتمون بالأمر كثيرًا.

يكاد فضولي يقتلني. أريد حقًّا معرفة هوية الضحية. عندما سألت في مكتب الاستقبال عن مكان "بيترا" المحتمل، أخبرتني امرأة أن السيدة "فوجل" لن تتحدث إلى الصحفيين.

أطلقتُ لعنة في سري.

- أنا صديقتها. أرجوكِ، هل يمكنكِ الاتصال بها وإخبارها أن صديقتها "كاتي" في صالة الفندق؟

لم تنتظر حتى أكمل جملتي بل استدارت وتركتني. في الوقت نفسه، رأيتُ موظف استقبال آخر يبدو أكثر إنسانية منها. هذه المرة قلت له إنني صديقة "بيترا فوجل" وأنني أريد رؤيتها. من الواضح أن الجميع بمزاجٍ متعكر، لأنه أيضًا ثبت على الموقف نفسه قائلًا: "السيدة "فوجل" طلبت ألا يزعجها أحد يا سيدتي".

عندما طلبت منه أن يبلغها رسالة على الأقل، لم يفلح الأمر مطلقًا.

لستُ ممن يستسلمون بسهولة، لذا قررتُ الذهاب لتناول الطعام في كافيه الفندق بينما أفكر في خُطة. الصحفيون أيضًا هناك ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض.

اقتربتُ من امرأة تجلس على ترابيزة بعيدة عن الآخرين. عرفتها من طريقة جلوسها وشعرها الأشقر المصبوغ. إنها مذيعة في إحدى قنوات الأخبار التجاريّة. استغللتُ مهاراتي في التواصل، وأخبرتها أنني شاهدتها في التليفزيون وكم أستمتع بعملها! ثم سألتها إن كان بإمكانها إجابتي عن سؤال مهمٍّ.

لم تبدُ منبهرةً بإطرائي. مع ذلك قالت:

- بالطبع، اجلسي.

- أنا صديقة "بيترا فوجل" وأريد رؤيتها لكنهم غيَّروا غرفتها، وموظفو الاستقبال رفضوا إعطائي رقم غرفتها الجديدة. ربما يمكنكِ أن...

نظرت المرأة سريعًا في مفكرتها بينما أتحدث، وتمتمت:

- "بيترا فوجل".. "بيترا فوجل".

ثم قالت:

- لم أدوِّن رقم غرفتها الجديد. انتظري هنا ريثما أسأل زملائي وأبلغكِ.

ثم اختفت.

لم أفهم من تعني بـ"زملائها"، لكنني لا أظنها ستعود بأي حال. قبل أيّ شيء هي ليست هنا لتأدية خدمةٍ عامة وإرضاء شخصٍ ما لأنه مدحها. لذلك ذُهلتُ حينما عادت بعد دقيقتين ومعها قائمة في يدها. قالت:

- أنتِ تبحثين عن النجمة السينمائية المقيمة في جناح "طبكابة"، صحيح؟

أجبتها بحماسةٍ:

- نعم نعم.

- نقلوها إلى غرفة ٧٢٤.
نظرتُ إلى المرأة شاكرةً.
- هل يمكن أن أسألكِ سؤالًا آخر؟
أومأت برأسها.
- مَن المقتول؟
- ألا تعرفين؟
نظرتْ إليَّ نظرةً فارغة وكأنها تتعجب لماذا أتعبت نفسها بمساعدتي.
- إنه مخرج الفيلم الذي تقوم ببطولته صديقتكِ.
مخرج فيلم "بيترا"!
ما كان اسمه؟ ماذا كان؟
لا فائدة من عصر ذاكرتي، فأنا لم أعرف اسم الرجل من البداية فكيف إذًا أتذكره؟
في الواقع لا بد أنني رأيت وجهه عندما ذهبت للمطار للقاء "بيترا". لكن وسط الزحمة لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن مخرج الفيلم أو عمن فقط يعمل في الفيلم. لا أظنني قرأتُ شيئًا عن هذا المخرج في أي مكان. ماذا قالت "بيترا" عنه؟ فجأة أدركتُ أن "بيترا" وأنا لم نتحدث عن الفيلم على الإطلاق. لم أعرف حتى أي دورٍ تلعبه "بيترا"، فما بالك باسم المخرج أو موضوع الفيلم؟! تلك الصحفية الشقراء حتمًا على علم بالأمر أكثر مني.
اتصلت بغرفة ٧٢٤ من تليفون مكتب الاستقبال. ظلَّ يرنُّ طويلًا دون أن تجيب "بيترا". تلك المبادرة فشلت أيضًا. كان يمكنني العودة للمنزل أو المكتبة، لكن فضولي تمكن منِّي. عدتُ للكافيه وجلست على ترابيزة قريبة من بعض الصحفيين لأتمكَّن من سماع ما يتحدثون عنه. انتظرتُ وانتظرت، ومن حينٍ

لآخر أذهبُ للاتصال بغرفة ٧٢٤ على التليفون الداخلي. لا أعرف ما الذي أنتظر حدوثه بالضبط؟! لكنني أعلمُ أنني حتمًا لا أنتظر لأن "بيترا" قد تحتاجني.

أدركتُ أنني لن أحصل على المعلومات التي أريدها من خلال استراق السمع إلى الصحفيين الجالسين بالقرب مني، لذا قطعتُ حديثهم وأنا أعتذر، ثم سألت عن اسم الضحية. أجابني أكثرهم ودًا وبدانة:

- لماذا تسألين؟

-أريد فقط أن أعرف إن كان مشهورًا. فالفندق مليء برجال الشرطة والصحفيين.

قال الشاب الودود:

- لم يكن حقًّا مشهورًا. اسمه "كيرت مولر"، لكنني لم أسمع عنه من قبل.

يبدو أنني في محادثة مع شخصٍ لا يعرف حتى من المخرج الشهير "ستيفن سبيلبرج".

تمتمتُ لنفسي وكررتُ الاسم "كيرت مولر". يا له من اسمٍ عادي حتى لضحية قتل!

بدا الشابُّ البدين متحمسًا للحديث، فسحب كرسيه إلى ترابيزتي وأشار ناحية علبة السجائر الموضوعة عليها. أعطيته سيجارة، وسألته:

- مَنْ "كيرت مولر"؟

قال وهو يُشعل سيجارًا:

- جاء طاقم فيلم من ألمانيا منذ ثلاثة أيام للتصوير هنا. لا بد أنكِ قرأتِ عن ذلك في الجرائد. المقتول هو مخرج الفيلم. وجدوه ميتًا في غرفته في الخامسة صباحًا. لا نعرف بعد كيف مات. لم تدلِ الشرطة بتصريحٍ حول أي شيءٍ بعد.

تخطى الوقت فترة الظهر بكثير، فقررتُ أنني لا يمكنني قضاء اليوم بأكمله في كافيه الفندق. يمكنني الذهاب للمكتبة وإراحة "بيلين"، على الأقل يمكنني

القول حينها إنني قمتُ بشيء مفيد. استخدمتُ التليفون الداخلي في مكتب الاستقبال لأتصل بـ"بيترا" مرةً أخيرة. لم أتوقع ردًّا ولم أحصل على واحد.

إذا ظنَّ أي قارئٍ أنني سأُجَنُّ من الإحباط فهو مخطئٌ تمامًا. على العكس، أنا في غاية الهدوء وراضية بقدري تمامًا. هل يمكن للحياة أن تكون أكثر وضوحًا؟ أنا بائعة روايات جريمة، جاءتني الفرصة لأصبح محققة هاوية، لكن الآن اختفت تلك الفرصة، وسأكمل حياتي العادية كما كانت. يكفيني تمامًا صدمات الأيام القليلة الماضية وتأثير القهوة التي شربتها في كافيه الفندق. وكأن القاتل سيقترب مني في أثناء انتظاري ممسكًا سلاح الجريمة بيدين يغطيهما الدَّمُ. قررت أن الوقت قد حان لأتخلى عن شغفي بعمل التحقيق.

مع ذلك، ولسببٍ ما، لم تتخلَ عنِّي فرصة العمل في التحقيق بعدما ظننت أنها قد تركتني للأبد.

عزيزي القارئ، بِتَ تعرف الآن عن مرور إسطنبول ومشكلات الركن. إنه حقًّا ليس مشهدًا جميلًا أن تراني أعاني كل ذلك. مع ذلك تمكَّنتُ من الوصول للمكتبة دون أن أخرج رأسي من النافذة وأسب السائق الذي أمامي أو أتشاجر مع المارة عند الإشارات الحمراء. أقول لك إنني كنت أشعر بالسلام والرضا مع حالي.

عندما دخلت المكتبة وفي يدي ساندويتشين محمصين بالجبن، وجدت مفاجأةً سارّة. "بيترا" تجلس في كرسيٍّ هزاز. ما إن رأتني حتى قفزت صائحة بهيستيريا:

- أين كنتِ؟

يبدو أنها انتظرت هنا فترةً طويلة. لأكون صادقة، تفاجأت لأنه لم يخطر ببالي قط الاتصال بالمكتبة.

قلت وأنا أقضم الساندويتش المحمص:

- ما الذي يحدث؟

خرجت "بيترا" لتناول الطعام مع طاقم عمل الفيلم في الليلة السابقة، لكنّها عادت سريعًا إلى غرفتها. لاحقًا علمتُ أن الآخرين لم يبقوا طويلًا بالخارج أيضًا، حيث عاد كل منهم إلى غرفته تمام الساعة الثانية عشرة والنصف. خطة العمل لليوم التالي هي التصوير في بعض الأماكن الخارجية، لذا كان عليهم الاستيقاظ مبكرًا واللقاء في صالة الفندق تمام الرابعة والنصف. اجتمع أفراد الطاقم في الموعد المحدد عدا المخرج. انتظروا قليلًا ظنًّا منهم أنه لم يتمكن من الاستيقاظ مبكرًا. بعد خمس دقائق اتصلوا بغرفته. لكن ما من مجيب، لذا انتظروا مزيدًا من الوقت. لا يمكنهم التصوير دون مخرج، لذا لم يكن أمامهم سوى الانتظار. في الساعة الخامسة والربع وبعد العديد من الاتصالات اقترح أحدهم الصعود لغرفته قائلًا: "لقد أكثر من الشراب ليلة أمس. لو أنه فاقد للوعي فلن يسمع رنين التليفون". وجدها الجميع فكرةً معقولة. ليس سِرًّا أن الرجل يشرب الخمر بشراهةٍ كالسمكة. في مكتب الاستقبال أخبروهم أن غرف الفندق لا يمكن فتحها إذا كان النزيل بالداخل. ثم استشاروا المدير الليلي للفندق الذي وافق في النهاية على أن منسقة أزياء - وهي أقرب أصدقاء المخرج - يمكنها دخول الغرفة مع أحد موظفي الفندق.

لم تكد منسقة الأزياء تغادر حتى عادت مندفعةً وهي تصيح: "لقد قتلوا "كيرت"!".

لم تعرف "بيترا" كيف قُتِلْ، فهي لم تسأل. كونها لم تشعر بالفضول لم يشعرني بالارتياح نهائيًا، وبدأ عقلي بالعمل. علق بذهني قول منسقة الأزياء: "لقد قتلوه".

لمحت منسقة الأزياء ما بداخل الغرفة لوهلة قصيرة، فكيف عرفتْ إذًا أنها جريمة قتل. بناءً على خبرتي من روايات الجريمة التي قرأتُها، أستطيع القول

بشكلٍ قاطع إنه إذا كانت الجريمة واضحة لهذا الحد فهذا يعني أنها تمت بمسدس. حتى لو كان مسدسًا فمن الطبيعي أن تظن منسقة الأزياء أنه قد انتحر، قبل التسرع في الاستنتاج أنها جريمة قتل. لماذا لم تقل: "لقد انتحر" أو "لقد مات"؟ لديَّ أكثر من إجابةٍ لهذا السؤال:

أولًا- منسقة الأزياء قتلت المخرج.

ثانيًا- القاتل لم يزعج نفسه بجعل الجريمة تبدو كحادث انتحار.

ثالثًا- منسقة الأزياء قارئة لروايات الجريمة، ولذا لا تصدق أن الأشخاص يموتون لأسبابٍ طبيعية أو ينتحرون.

رابعًا- قُتِل المخرج بمسدس. لكن مكان موضع الرصاصة ظاهر، ممَّا يعني أن إطلاقه النار على نفسه مستحيل. ومنسقة الأزياء أدركت ذلك من نظرة واحدة. ممَّا يعني أيضًا أنها لديها خبرة أكثر من مجرد قارئة لروايات الجريمة. كما أنني لا أظن أن الأطباء المتقاعدين والمحققين الجنائيين يعملون كمنسقي أزياء هذه الأيام بعد تقاعدهم.

خامسًا- لا يوجد سلاحٌ ظاهرٌ للجريمة. و"منسقة الأزياء التي كانت محققة جنائية سابقة" لاحظت ذلك بنظرة واحدة.

بعد مراجعة كل تلك الاحتمالات، استنتجتُ أن تفكيري لن يهديني إلى شيء. سأكون صادقة معكم. أنا لا أحب الشرطة. قد يظن البعض أن الأمر يتجاوز حدود عدم الحب، لكن دعونا لا نلجأ للتحليل النفسي. لنقل فقط إنني قد أغيِّر طريقي لأتجنب شرطيًّا. لطالما أخبرتني أمي منذ صغري ألا أصادق شرطيًا، وأنا لم أنس ذلك قط. في الواقع، يجب أن أذكر أن رأينا تجاه الشرطة هو الأمر الوحيد المشترك بيننا. أظنُّ أنا وأمي أن رجال الشرطة مخلوقات تتخطى حدود

الجنسيات. ولدينا لا فرق بين بريطاني وتركي ومكسيكي وألماني، لكن رجال الشرطة جميعهم مهما تختلف جنسياتهم فهم بالسوء نفسه.

على أي حال، ذلك الشرطي المبهر الذي دخل المكتبة منذ ثلاثين ثانية هدَّد ذلك الرأي الذي أشاركه والدتي.. تلك الرابطة المطلقة التي تجمعنا معًا. حاولتُ إخفاء ارتباكي التام بوجوده، وتظاهرتُ بعدم ملاحظة سيَّارة الشرطة التي تقف أمام المكتبة، و"ريجاي" الذي يقف أمام الفاترينة وعيناه تتابعان ما يحدث بفضول. قلتُ:

- نعم أيها الشرطي، أهناك مشكلة؟

خاطبته بتلك الطريقة لأهين كبرياءه، فمن هيئته يمكنني الجزم بأنه يحمل رتبة مفتِّش.

قال:

- أنا من المباحث الجنائية يا سيدتي. المفتِّش "باتوهان أونال". أريد أن أسألكِ بعض الأسئلة إن سمح وقتكِ بهذا.

الآن.. من يعرف منكم أي شيء عن تركيا والأتراك سيدرك أن ما قاله المفتِّش غريب بكل المقاييس التركية. لمن لا يعرفون، سأوضِّح قليلًا. مثلًا اسم "باتوهان" غريبٌ لمفتِّش. عادةً يملك المفتِّشون أسماءً تركية تقليدية مثل "أحمد" أو "علي" أو "محمد" أو حتى "أورهان". أمَّا اسم "باتوهان" فيليق أكثر بمغني البوب. أي عائلة تسمي ابنها "باتوهان" حتمًا لم تُربِّه ليصبح مفتِّش شرطة.

من المحتمل أن والدة المفتِّش "باتوهان أونال" أدمنت القمار وأدمن والده الهيروين بعد ذلك اليوم العصيب الذي التحق فيه ابنهما بأكاديمية الشرطة. لقد صار بلا شك سببًا في مأساةٍ عائلية. مع ذلك لا يزال هذا الرجل الوقِّح واقفًا أمامي مبتسمًا بتهذيب، وكأن لا علاقة له بما حدث لعائلته.

في رأيي ليس غريبًا وحسب بل غير ضروريٍ للمفتِّش أن يكون بهذا التهذيب. فذلك الصباح عندما حدثني ذلك الشرطي من شرطة "أورتاكوي" وخاطبني بلفظة "سيدتي"، شعرتُ بأنه على الاتحاد الأوروبي أن يؤمن بأن تركيا تسعى بجدية للانضمام إليه، والدليل هو احترام الشرطة التركية لحقوق الإنسان.

قلتُ:

- أتقصدُني أنا؟

أشرت برأسي ناحية "بيترا" وقلت:

- غالبًا أنتَ تبحث عن صديقتي "بيترا".

كانت "بيترا" لا تزال جالسة على الكرسي الهزّاز، وتواصل الاهتزاز وكأنها لا تأبه لشيء في العالم.

ظهر مزيجٌ من الدهشة والسرور على وجه المفتِّش "أونال"، مما يدل على أنه لم يلحظ "بيترا" حتى ذكرتها أنا. لكنه حاول إخفاء الأمر.

نظر إلى مفكرته التي أخرجها من جيبه وهو يقول:

- صديقتكِ "بيترا".. نعم، أنا أبحث عن "بيترا فوجل".

هذه المرة، أشرتُ ناحية "بيترا". ما زال "ريجاي" واقفًا أمام الفاترينة يتابع ما يحدث. طلبتُ ثلاثة أكواب شاي لأبعده.

بالطبع يتحدث المفتِّش "أونال" الإنجليزية. كنت لآكل نفسي من الغيظ إذا سمعتُ أيَّ شرطيٍ آخر يقول كلمةً بأي لغةٍ أجنبية، لكنني لم أندهش لمعرفته الإنجليزية. مَنْ كان لينتظر شيئًا أقل من ذلك منه؟

لطالما كانت وما زالت لغة "بيترا" الإنجليزية سيئة. حتى لغتها الألمانية كانت سيئة. ولأن "بيترا" والمفتِّش "أونال" لا يتحدثان لغةً مشتركة فقد كان عليَّ القيام بما هو أكثر من الاستماع لمحادثتهما.

كررت "بيترا" تقريبًا كل ما أخبرتني به منذ عشر دقائق، لا أكثر ولا أقل. لم يتفوَّه المفتش "أونال" بكلمةٍ حتى أنهت حديثها. قام المفتِّش بتدوين بعض الملاحظات القليلة.

عندما انتهت "بيترا" من الحديث، سألني المفتِّش:

- أيمكنكِ سؤالها من فضلك إذا ما كانت قد سمعت شيئًا غريبًا عندما عادت إلى غرفتها ليلة أمس؟

كان يسألني وهو لا يزال ينظر إلى "بيترا".

عجزت عن السيطرة على نفسي، فأنا أمَة للفضول، فسألته باندفاع:

- أي صوتٍ تقصد؟ صوت مسدس؟

استدار نحوي قائلًا:

- صوت مسدس؟ من أين جئت بتلك المعلومة؟

- لا أعرف.. ما أعنيه هو كيف قُتِل "مولر"؟

- أهذا ما تعنيه؟ كلا، لم يُقتل بواسطة مسدس.

ضحك فظهرت أسنانه البيضاء اللامعة. حاولت التركيز بصعوبة فيما يقوله بدلًا من التركيز على الرجل نفسه.

أكمل كلامه:

- في الواقع، يمكنكِ القول إنه قُتِلَ بطريقة بدائية.. بينما كان في البانيو، تم إلقاء مجفف الشعر داخله وقد تم تشغيله...

توقَّف بُرهةً وابتسم قليلًا هذه المرة ثم قال:

- جريمة سهلة جدًّا.

كررت لنفسي "جريمة بسيطة جدًّا". حسنًا، لكن ما الذي يجعلها بدائية؟ كونها بسيطة؟

نظر المفتِّش "أونال" إليَّ مباشرةً وقال بصبرٍ نافد:

- من فضلك، أيمكنكِ سؤال آنسة "فوجل" إذا ما كانت قد سمعت صوتًا غريبًا ليلة البارحة؟ هلْ رأت شيئًا؟ أي شيء قد يفيدنا. من فضلك، أيمكنكِ ترجمة ذلك؟

ترجمتُ ما قاله.

قالت "بيترا" بتأكيد:

- كلا، لم أسمع شيئًا ولم أرَ شيئًا. ذهبتُ في النوم بمجرد أن وضعتُ رأسي على الوسادة. كنت في غاية التعب.

دوَّن ما قالته "بيترا".

- علينا أخذ أقوالكِ مجددًا في حضور مترجمٍ مُعتمَدٍ منا يا آنسة "فوجل".

أظنه وجد ما قاله فظًّا لأنه أضاف بسرعة:

- عليَّ استخدام مترجمٍ معتمد كي أستطيع إدراج أقوالها في التحقيق الرسمي.

عندئذ استدار نحو "بيترا" وأكمل:

- آنسة "فوجل"، إذا سمحتِ تعالي إلى قسم الشرطة غدًا.. اسألي عني حين تصلين. ما رأيكِ بالساعة الخامسة؟

ترجمتُ ما قاله المفتِّش "أونال" إلى "بيترا" بينما بصعوبةٍ أجرؤ على التفكير في رد فعلي إذا طلب مني شرطي القدوم إلى المركز. مع ذلك ظلت "بيترا" تهز الكرسي بهدوء. وبهذا الهدوء نفسه أجابت الشرطي "أونال" أنها ستذهب لمكتبه الساعة الخامسة غدًا.

- أيمكنكِ سؤال الآنسة "فوجل" أيضًا إن كان لديها خُطط عاجلة لمغادرة إسطنبول؟ قال أفراد طاقم الفيلم إنهم باقون لإنهاء الفيلم، لكن إن كان للآنسة "فوجل" رأيٌ آخر أودُّ معرفته.

ترجمتُ ذلك للألمانية أيضًا.

قالت "بيترا" بإصرار:

- كلا، لن أذهب إلى أي مكان. سننهي الفيلم بـ"مولر" أو من دونه.

بعدما دوَّن المفتِّش "أونال" ذلك، نهض وصافحها. وقبل أن يصافحني سألني إذا كان يمكنه القدوم إلى المكتبة لاحقًا.

بلعتُ ريقي وسألته:

- لماذا؟ لا علاقة لهذا بي. أنا فقط أعرف "بيترا".

- لم أقل إني سآتي بشأن الجريمة. أريد الحديث معكِ عن روايات الجريمة، فأنا أقرأ الكثير منها.

عليَّ الاعتراف أن هذا أشعرني بالراحة كثيرًا. ابتسمتُ ابتسامةً غريبة وقلت:

- في الواقع أريد سؤالك عن أمرٍ ما أيضًا. كيف وجدتني؟

- سيدتي، هذا عملنا. يمكنني معرفة أي شيء عن أي شخصٍ قد تربطه أي صلةٍ بجريمة قتل، مهما تكن الصِّلة ضعيفة.

- نعم، لكن هذا لا يجيب عن سؤالي.

تمعَّن في وجهي بُرهة.

- قال طاقم الفيلم إن الآنسة "فوجل" لديها صديقة تبيع الكتب في إسطنبول.

قال ذلك وكأن مكتبتي هي المكتبة الوحيدة في إسطنبول، لكنني لم أُلِحَّ عليه في السؤال. لا فائدة من ذلك. عليَّ الحفاظ على طاقتي لما هو قادم.

بمجرد أن رحل "باتوهان"، اقترحتُ على "بيترا" البقاء في منزلي. لم ترغب في ذلك. وأنا لم أصر، فهذا قرارها.

ركبتْ تاكسي وعادت إلى الفندق.

5



في الصباح التالي، استيقظتُ الساعة التاسعة وهو ما أدهشني كثيرًا.. يبدو أن ما حدث من إثارة كان له تأثيره القوي عليَّ. اقتربت الساعة من العاشرة صباحًا وارتفعت الحرارة إلى ثلاثين درجةٍ مئوية. قررتُ النزول إلى الكافيه القريب من المنزل لأقرأ الجرائد هناك.

احتلت الأخبار الصفحة الأولى في جميع الجرائد التركية. قرأتُ كل كلمة كُتِبت عن الموضوع، لكنني لم أجد شيئًا جديدًا أو مختلفًا عمًّا قالته "بيترا" أو المفتِّش "أونال" ليلة أمس. إحدى الجرائد نشرت معلوماتٍ عن المخرج "كيرت مولر". قالت إنه وُلِدَ في مدينة "بيلفيلد" عام 1952. وقد أخرج فيلمين هما؛ "ليلة ممطرة" و"الحب الأبدي والحياة بدونه"، لم يحقق أيهما نجاحًا، إنني حتى لم أسمع بهما من قبل.

اتفقت جميع الجرائد على أن "ألف ليلةٍ وليلة في الحرملك"، الفيلم الذي جاؤوا إلى إسطنبول لتصويره، سيثير الكثير من الأقاويل. الفيلم مقتبس من الكتاب الأكثر مبيعًا، والذي يحمل العنوان نفسه للكاتب الإيطالي "جياكومو دونيتي". تشترك شركة "مومكولار" للأفلام في إنتاج الفيلم مع شركة ألمانية

أخرى، وقد صرَّح صاحبها "يوسف سيلام" أمس قائلًا: "لقد تلوَّث فنُّنا وفنانونا بذلك الفعل الشرير". لو سألتني، فسأقول إنه يبالغ قليلًا، لكن على أيِّ حال، أضاف "يوسف سيلام" أنهم سيستكملون التصوير في القريب العاجل، بغض النظر عن تلك المأساة، وسيبذلون قصارى جهدهم لضمان نجاح الفيلم.

بعد قراءة كل ذلك، تبقت نقطةٌ واحدة ببالي لم أستطع التوقف عن التفكير فيها. إن كان الفيلم مقتبسًا عن الرواية الأكثر مبيعًا للكاتب "دونيتي" الذي يُعد من أشهر الكُتَّاب وأكثرهم مبيعًا هذه الأيام، فكيف إذًا يتولى إخراج الفيلم مخرج من الدرجة الثانية مثل "مولر"؟

ارتفعت الحرارة بسرعةٍ إلى أربعين درجة. الشمس تحرق رأسي بينما أسير في الشوارع المنحدرة لمنطقة "شوكورجوما" متجهةً إلى مكتبتي المكيفة. فور وصولي، فتحت الإنترنت، أعظم اختراعات الإنسان منذ اختراع العجلة.

معظم المقالات التي نُشِرَتْ عن الجريمة حملت العنوان نفسه: "جريمة في البوسفور". أي خبر أو روايةٍ عن إسطنبول لا بد وأن يضعوا كلمة "البوسفور" في اسمها.

كانت صحيفتا "فيست دويتشه تسايتونج" و"تاجزبلات ديس أوستنز" أفضل قليلًا من الباقين، لكن على أي حال، ما زلتُ لم أجد أي معلومات كافية عن "كيرت مولر" في أيهما.

من كان "كيرت مولر"؟ بحثت عنه مستخدمة اسمه فقط، فظهرت لي ١,٦٤٥ نتيجة بحث. شعرت باليأس. لم أتفاجأ على الإطلاق بهذه النتيجة، فمن بين كل أربعة ألمان يوجد واحد على الأقل يُدعى "كيرت" أو اسم عائلته "مولر".

فتحت تقريبًا مئة موقع من الـ١,٦٤٥ موقعٍ التي ظهرت لي حتى شعرتُ بالملل. القليل من تلك المواقع كان به معلومات عن "كيرت مولر" الذي أبحثُ عنه بالفعل، لكنها كانت جميعها متعلقة بجريمة القتل والفيلم.

كدتُ أُحطِّم الكمبيوتر حين تذكرت فجأة صديقتي "ساندرا"، وهي طبيبة متقاعدة تعيش في مدينة "بيلفيلد". لو أنها لا تعرف هذا الرجل، فهي حتمًا تعرف شخصًا يعرفه. توجهتُ للتليفون مباشرةً.

انتهيتُ من تناول عشاءٍ مبكرٍ من الخبز العربي، وجلستُ أشربُ الكثير من الشاي الأخضر لأهضم. لمحت المفتِّش "أونال" وهو يقف أمام فاترينة المكتبة يحاول رؤية المكان بالداخل. غادرت "بيلين" العمل مبكرًا وذهبت للسينما.

هذه المرة كان يرتدي ثيابًا عادية. لكن لا تظن - عزيزي القارئ - أن ثيابًا عادية هنا تعني ثيابًا أنيقة. بنطلونه الرمادي وقميصه الأبيض قصير الكُمَّين كانا بديلين سيئين عن زيه الرسمي. مع ذلك - ولأكون صادقة - لا يزال وسيمًا حتى ولو ارتدى شوالًا.

دعوته للدخول فدخل فورًا. وبمجرد أن دخل قلت له:

- ما رأيك ببعض الشاي الأخضر؟ إنه طازج.

قال:

- لا تتعبي نفسك.

وهو ما يعني في ثقافة الأتراك "نعم بالطبع، سيكون هذا لطفًا كبيرًا منكِ".

ذهبتُ للمطبخ لأحضر كوبًا وسألته:

- هل هناك أي تقدُّم في التحقيق؟

- بسيطٌ جدًا. لم نستطع التحدث مع جميع أفراد طاقم الفيلم بعد. أخذ أقوال الجميع بوساطة مترجمٍ يجعل الأمور تتطور ببطء بالغ. في الواقع أشك في أننا سنستفيد من أي شيء ذي قيمة من وراء هذه الأقوال. جميعهم يقولون الكلام نفسه بالضبط.

سألته من المطبخ:

- حسنًا، لكن ماذا تعرف عن الضحية؟

- الضحية؟ تعلمين...

لم يُكمِل كلامه. كنت واقفة ممسكةً بالكوب أمام الستارة المخططة التي تفصل المطبخ عن المكتبة. قلت:

- مَنْ قد يرغب في قتل هذا المسكين؟ ولماذا؟ ظننته شخصًا هادئًا ومسالمًا.

- مسالمًا؟ لست متأكدًا بهذا الشأن. أنتِ مُحقَّة في كونه مسالمًا في مجال إخراج الأفلام. فهو لم يشتهر كثيرًا بصفته صانع أفلام، وأشكُّ في أن يكون الإخراج هو مهنته الأساسية.

ساد الصمت. انتفض قلبي وأنا أفكر في كلامه، هل أنا محقة؟ هل حقًّا قتل "مولر" يتعلق بأسلوب حياته وعلاقاته؟

قال:

- بالطبع لا يجب عليكِ الحديث عن تلك الأمور في العلن.

لم أفهم ماذا يقصد وقتها، لكنني اكتشفت ذلك فيما بعد.

قلتُ وأنا أفكر في كيفية دفعه لقول المزيد:

- إنها قضيةٌ مُعقَّدة كما أرى.

- نعم، في غاية التعقيد.

قلتُ فجأة:

- هل كان المخرج مُتورِّطًا في صفقات مخدرات؟

خطر لي ذلك الاحتمال فجأة وانتقل إلى شفتي. لستُ طائشةً إلى هذا الحد في العادة.

بدا "باتوهان" مندهشًا وهو يقول:

- من أين جاءتكِ تلك الفكرة؟

- إنها فكرة بديهية تمامًا.

نظر إليَّ بإعجاب ثم غيَّر الموضوع بمهارةٍ وبدأ يخبرني عن روايات الجريمة الكثيرة التي قرأها. بصراحة، عليَّ الاعتراف أن معرفته بقصص التحقيقات لم تكن سيئة على الإطلاق، كما أنه يحبُّ روايات الكاتب "رايموند تشاندلر".

بعد حوالي نصف ساعةٍ من الثرثرة، تمكنت من الهروب إلى المطبخ قائلة:

- سأعد المزيد من الشاي.

نظر في ساعته وقال دون رفع رأسه:

- تأخر الوقت قليلًا على الشاي.

عندما رفع رأسه لم ينظر إليَّ. تحدث بصوتٍ خفيضٍ لا يكاد يُسمع:

- أيمكنني دعوتكِ على العشاء؟ يمكننا التحدث براحةٍ أكبر.

أجبته بالألمانية، قلتُ: "Sie sind schneller als die polizei erlaubt"

فيما معناه: "أنت سريع في التحرُّك ككل رجال الشرطة".

قال بتهذيبٍ شديد:

- عذرًا، أنا لا أجيد الألمانية.

لستُ مهذبةً للغاية. لذا فقد ترجمتها إلى التركية قائلة:

- أنت سريع العمل.

بصراحة، إن الخبز العربي الذي تناولته قبل وصول المفتِّش لم يُهضم بعد.. شعرت به في معدتي كالخرسانة، لكن محال أن أرفض دعوة "باتوهان" على العشاء. عليَّ الاهتمام بمصالحي. منذ صباح أمس وأنا أصارع لأعرف معلومات عن الجريمة، ولم أحقق الكثير من التقدُّم في القضية، لذا فالسبيل الوحيد لهذا هو أن أجعل "باتوهان" يتكلم. وجبة لذيذة مع بعض النبيذ.. أو الأفضل، خمر

الـ"راكي" سيجعله يتكلم. نعم، خمر الـ"راكي" سيناسبه فهو شرطي، وجميعهم يشربونه. انتبهتُ إلى أنه قد ابتسم بمزيجٍ من الحياء والجرأة حين نظر إلى فتحة الرقبة في قميصي. وجبة كباب مع شراب الـ"راكي" كفيلة بجعل "باتوهان" يثرثر كالعندليب المُغرِّد.

قبلتُ دعوة العشاء على مَضَضٍ. لم أُظْهِر له حماسةً شديدة وكأنني أسدي له معروفًا. وأضفت فورًا قائلة:

- لكنني مَنْ سيختار المكان، حسنًا؟

لا ضرر من أن أكون صريحة معكم أعزائي القراء. كنتُ خائفة من أن يقترح الذهاب إلى أحد البارات في منطقة "باياغلوا" حيث يذهب أصدقائي، أو إلى أحد الأماكن التي لا يرتادها سوى رجال الشرطة. في العادة أترك أمر اختيار المكان للرجل. إن كان بشعًا فأنا قادرة تمامًا كأي امرأة على إبداء رأيي بتعابير وجهي وإشاراتي.

راجعتُ بذهني كل الأماكن المحتملة، وأخيرًا استقررتُ على مطعم كباب في منطقة "يشيل كوي".

تقع "يشيل كوي" في الجانب الأوروبي من إسطنبول إلا أنها تبعد عن مثلث "باياغلوا" و"جيهانجير" و"كوليديبي" حيث أعيش وأعمل، في الحقيقة، إنها تبعُد كثيرًا عن أي مكان. القراء الذين لا يعرفون إسطنبول، سأعطيكم فكرةً عن المسافة. "مطار أتاتورك" حيث قابلتُ "بيترا" سابقًا يقع في "يشيل كوي".

تقع "يشيل كوي" كذلك على ساحل بحر مرمرة على أطراف إسطنبول، حيث يمكنك أن ترى بعض المساحات الخضراء والبيوت ذوات الحدائق. بالطبع لهذا السبب، كانت أسعار البيوت مرتفعة بصورةٍ خيالية، لكن كل ذلك انتهى بعد زلزال مرمرة. لم يتمكن أحد من إثبات أن أرض تلك المنطقة ضعيفة في

مقاومة الزلازل، إلا أن كل من كان قادرًا على مغادرة "يشيل كوي" والمناطق المحيطة قد فعل. الآن تتكون "يشيل كوي" من مطاعم الكباب التي تحاول استرجاع ذكريات الأيام الرائعة، ومن الأرامل وأصحاب الفنادق الرخيصة الذين لا يملكون كلفة الانتقال.

غادرنا المكتبة وأسرع "پاتوهان" بفتح باب سيارته الـ"رينو" الحمراء لي. ظننتُ أن ذوق تلك السيَّارة مبهجٌ زيادة عن اللزوم لرجل شرطة أو مُحقِّقِ جرائم قتلٍ بأي حال.

تحدثنا نادرًا بينما نقود على الطريق من "كوليديبي" إلى "يشيل كوي". استغللتُ فرصة أنني لستُ مَنْ يقود كي أفكر في الأربعة أيامٍ الماضية. مضت أربعة أيام فقط منذ قدتُ على هذا الطريق.. لكن هذه المرة بأفكارٍ مختلفةٍ تمامًا في رأسي.

ما زال مطعم كباب "ساتشاكارا" في "يشيل كوي" موجودًا ومفتوحًا، حمدًا لله. لم أزره منذ سنوات، والآن لا أذكر حتى السبب الذي دفعني للأكل فيه أول مرة زرته فيها.

المكان بالداخل يشبه المستودعِ. بدا الأتراك الذين يجلسون بداخله أشبه بالإسكندنافيين بسبب أنوار المطعم الفلورسنت التي جعلت أوجههم تبدو شاحبة على الرغم من اشتهارهم بالخدود الوردية. لسببٍ ما لم أفهم سِرَّ حبِّ الأتراك للإضاءة الفلورسنت. لم أحب قط تلك الإضاءة المُشعَّة ولا ذلك العدد الهائل من زبائن الطبقة المتوسطة المنتظمين في المطعم. كانت التهوية تعمل بأقصى طاقتها لإنعاش غريبي الأطوار هؤلاء الذين يأكلون الكباب في حرارة الصيف، ومن بينهم أنا بالطبع. في تلك اللحظة لم أحب المكان على الإطلاق، أو لنقل فقط إنني لم أشعر أنني منبهرة به.

المهم أنني ركضتُ، حرفيًّا، إلى أبعد ترابيزة بالمطعم.

طلبنا طبقين من المُقبِّلات وكبابًا بالباذنجان مع خمر الـ"راكي". لا أهتم كثيرًا بالكباب الغني بالدهون وبصراحة لا أحب الـ"راكي" أيضًا، رائحته فقط كافية لقلب معدتي. لهذا السبب أمضيتُ الأمسية كلها أرفع كأسي وأتظاهر بالشرب.

لم تخرج محادثتنا عن أنواع الكباب أو قصص التحقيقات أو متاعب مهنة الشرطة أو السياسة التركية. لذا رفعتُ كأس الـ"راكي" مرة أخرى وأنا أشعر بالغثيان. سألته فجأة بصوتٍ أجش:

- مَنْ قتل "مولر" برأيك؟ عندما كنَّا في المكتبة قلتَ لي إنك تشتبه في أن مهنة "مولر" الأساسية ليست إخراج الأفلام، لكن...

فجأة لم أعرف كيف أكمِل جملتي. لم أرغب في إخافة "باتوهان"، لكنني لم أعرف كيف أصوغ السؤال بصورةٍ غير مباشرة. ربما لغتي التركية ليست جيدة بقدر ما ظننتُ، أو؟ أو هي ببساطة إحدى صفاتي الشخصية؟ طوال حياتي كنت شخصًا صريحًا. لن أتغيَّر فجأة لأنني أريد "باتوهان" أن يتكلم. على أي حال بدأت لعبة اللفِّ والدوران تلك ترهقني.

ابتعدت بظهري عن الكرسي، ثم أدرت جسدي إلى اليسار قليلًا لأسند مرفقي الأيمن على الترابيزة واضعةً يدي تحت ذقني. ظننتُ أنني هكذا سأكون أكثر تأثيرًا، وكأنني صحفية في جريدة مثلًا، بينما أحدِّق مباشرةً إلى الرجل الجالس أمامي. وقلتُ:

- أيها المفتِّش، أنت قارئ زميل لروايات الجريمة، لذا أظنك ستفهمني. بداخلنا جميعًا نتمنى أن نصبح محققين...

قال "باتوهان":

- أو قتلة.

- عليَّ القول إنه لم يسبق لي أن سمعت عن قارئ روايات جريمة يتحوَّل لقاتل.

ابتسمتُ مضيفةً:

- أم هل أنا على لائحة المشتبه بهم؟ هل لأنني أقرأ روايات الجريمة؟

- حسنًا، أنتِ لا تقرئينها فقط بل تبيعينها أيضًا.

قالها وضحك من دعابته.

- مذهل. بائعة روايات جريمة ترتكب جريمة قتل. لكن لماذا؟

- لأن القتيل هجر الصديقة المقربة لبائعة الكتب وكان على وشك اختيار غيرها لتقوم بدورها في الفيلم.

قلتُ وقد عرفت أن الكلام أصبح جادًّا:

- ماذا تعني؟

- بحسب ما نعرفه، صديقتكِ "بيترا" كانت واقعة في غرام "مولر". كل فريق التصوير يعرفون ذلك. من الواضح أن "مولر" و"بيترا" تشاجرا بعد وصولهما إلى إسطنبول. وقرر "مولر" إعطاء دور البطولة إلى ممثلةٍ تركية تُدعى "أيلا أوزدال". باختصار عندما قُتِل "مولر"، كانت "بيترا" على وشك مواجهته بهذين الأمرين.

لم يعد في إمكاني الحفاظ على وضعية الصحفية. بتُّ أعرف الآن ما قصده "باتوهان" سابقًا حين قال: "لا أظننا سنعرف المزيد من الأقوال المهمة من طاقم الفيلم". لقد أخذوا بالفعل ما يهمهم من تلك الأقوال.

أخرجت سيجارةً من جيبي وأشعلتها بالولاعة التي مدَّها نحوي. بينما أنفثُ الدخان، أملتُ رأسي إلى اليمين قليلًا ونظرتُ إليه بجديةٍ واحتقار، ثم قلت ببرود:

- أتظن أن هذا الدافع كافٍ لشخصٍ طبيعي كي يرتكب جريمة؟ أعني أن الشخص الذي نتحدث عنه ليس قاتلًا متحجر القلب بل هي شخصٌ عادي مثلي ومثلك. في الواقع هي إنسانة لديها ما تخسره أكثر مما لدينا. إنها ممثلة مشهورة.

مدى شهرة "بيترا" هو أمرٌ قابلٌ للتشكيك، لكنه ليس من أولوياتنا الآن.

قال:

- ما قلته يُشكِّل دافعًا ممكنًا للغاية لجريمة قتل. لشخصِية مشهورة ليس سهلًا عليها أن تخسر حبيبها وعملها في الوقت ذاته.

أخذ رشفةً كبيرةً من خمر الـ"راكي" المُثلَّج. لم يكن منظرًا جميلًا، ثم أكمل:

- على أي حال، أنا لا أقول إن الآنسة "فوجل" ارتكبت جريمة القتل. لا نملك دليلًا كافيًا لإثبات ذلك. كما تعرفين، المجرم بريء حتى تثبت إدانته.

قال جملته الأخيرة بغطرسة، ثم أخذ رشفة كبيرة أخرى من الـ"راكي". إن استمر الحال هكذا سيصبح مخمورًا قريبًا جدًّا.

- لنفترض أن "كيرت مولر" كان ينوى بالفعل طرد صديقتك. أنا لم أقل إنه فعل، نحن فقط نناقش الاحتمالات. قد لا يكون هناك شيء من هذا، فنحن ما زلنا نحقق.

أشعلَ سيجارة هو الآخر وأكمل:

- لكن لو أن هذا الافتراض صحيح، فهذا يعني أن الآنسة "فوجل" كانت ستحصل على مبلغ طائل من الأموال لو قُتِل "مولر" بعد فسخ العقد.

فركَ أصابعه وكأنه يعدُّ المال.

لو سألتني فسأقول إن الأتراك بدؤوا يأخذون الأمور المالية بجديةٍ كبيرةٍ منذ الأزمة الاقتصادية الأخيرة. ظل يقذفني بالكلمات دون أن يسمح لي بقول كلمةٍ وسط حديثه.

- إن قُتِل "مولر" لاحقًا ببضعة أيام ستلغي شركة الأفلام العقد الذي وقعته صديقتك. وحسب شروط العقد يحقُّ تمامًا للآنسة "فوجل" المطالبة بتعويض.

توقَّف لوهلةٍ وابتسم لي:

- لا يبدو الأمر في صالح الآنسة "فوجل" من أي ناحية.
فكرتُ أن "هناك شيئًا فجًا في تصرفات كل رجال البوليس حتى ولو كانوا وسيمين".
سألته:
- هل "بيترا" هي المشتبه به الوحيد لدينا؟
ردَّ بغير إقناع:
- لا، لا.
- مَنْ أيضًا؟
هز كتفيه وتمتم شيئًا.
سألته:
- مثلًا، هل من الممكن أن تكون جريمةً بدافع عاطفة ما؟
قال:
- دافع جريمة القتل قد يكون الحب أو المال أو الانتقام. لكن ما يهمنا أساسًا هو مُرتكِب الجريمة وليس الدافع. نحن نترك الأمر للمحامين كي يثبتوا الدوافع ويعرفوا علاقتها بالجريمة.

نظر إليَّ ليقيس تأثير كلماته الرنانة عليَّ. احمرَّت عيناه بسبب شرب الـ"راكي". أدركتُ أنني لم أعد أراه جذابًا وأن الموقف قد صار جديًا. أنا في مكان أعرفه فقط من خلال رحلتي للمطار، وآكلُ الكباب وأشربُ الـ"راكي" مع رجل شرطة يظنُّ أن صديقتي "بيترا" قاتلة.

حين استيقظت في الصباح التالي، لم تكن الحرارة قد ارتفعت بعد. اتصلت بالسوبر ماركت القريب لطلب بعض الأشياء. لاحظ "حمدي"، صاحب السوبر ماركت، أنني أشتري جميع الجرائد منذ يومين. لذا فبينما يملأ السَبَتْ الذي أنزلته من البلكون، ابتسم إليَّ، وسألني:

- ما الأمر يا "كاتي"؟ هل أصبحتِ تتابعين أخبار العالم الآن؟

أرجوك! لا أريدك أن تظهر توددك لي في الصباح الباكر. لكن لا بد من أنني اعتدتُ تلك الأساليب التركية لأني ضحكتُ وتركتُ الأمر يمرُّ.

من الواضح أن مرور يومين على الجريمة جعلها أخبارًا قديمة لدى الجرائد؛ لأن هناك صورةً للنجمة السينمائية "أيلا أوزدال" وهي تلعب التنس. ومن الواضح أنها أكثر فتنةً من صورة "مولر" الموجودة في جواز سفره والموضوع عليها الختم.

جميع الجرائد التي اشتريتُها نشرت بإسهابٍ كل ما قالته "أيلا أوزدال" في اليوم السابق في مؤتمرٍ صحفي مع مدير أعمالها. قالت بحزن إن موهبتها العظيمة لا تُقدر في تركيا، وإنه على الرغم من قدرتها التامة على تمثيل تركيا سينمائيًّا في الخارج، لكن الفرصة انتُزِعت منها في اللحظة الأخيرة بسبب جريمة قتلٍ جنونية. تحدَّث مدير أعمالها بالقليل من العقلانية. قال إن مستقبل الفيلم لم يعد واضحًا بعد الجريمة، لكن "أيلا" هي أعظم كنزٍ للسينما التركية وستتلقى حتمًا عروضًا جديدة وستشرِّف بلادها عندما تمثلها في الخارج.

بعد نشر تفاصيل المؤتمر الصحفي لـ"أيلا أوزدال"، أنهت الجريدة المقال ببضعة أسطرٍ تقول إنه لم يُلقَ القبضُ على قاتل "مولر" بعد، لكن إيجاده هي أولوية شرطة إسطنبول الآن.

اتصلت بـ"بيترا" فورًا. أظنني أيقظتها من النوم هذه المرة.

بدلًا من قول صباح الخير قلت:

- الجرائد التركية اليوم مليئة بأخبارٍ تقول إنكِ كدتِ تُطردين من الفيلم.

كنت غاضبةً منها بسبب الأمور التي سمعتها من المصادر المشكوك فيها والتي جعلتها المشتبه به رقم واحد، لكن لست غاضبة إلى حَدٍّ ألا أسألها إذا ما كانت حقًّا حبيبة "مولر".

قالت بصوت لم يتخلص بعد من آثار النوم:
- كدتُ أنا أُطرد؟ مَنْ قال هذا؟
- هذا ما تقوله الجرائد.
بقينا صامتتين بُرهةً، كلٌّ منا بانتظار أن تتكلم الأخرى. لم أفكر حتى في إخبار "بيترا" بأنني عرفت ذلك قبل قراءته في الجرائد. المرء يعطي بحسب ما يأخذ.
واضح من صوتها أنها لم تصدق ما سمعته مني للتَّوِّ، سألتني:
- هل كنت سأُطرد؟
- نعم، كنتِ ستطردين على ما يبدو.
فكرت في أنه من الأفضل لو تحدثت إليها حين تكون مستيقظة بالكامل.
- إن رغبتِ، يمكننا اللقاء في صالة استقبال الفندق ثم نذهب لتناول الفطور في أي مكان، وسأترجم لكِ ما تقوله الجرائد التركية.
بعدها مباشرةً اتصلتُ بـ"لالي".
"لالي" هي رئيسة تحرير أكبر جريدة تركية، "جوناباكان". لهذا يمكنها الحصول على معلوماتٍ من الشرطة والصحفيين، ويمكنها إخباري بها، فهي صديقتي المقربة كما تعرفون. وعدتني بترتيب موعدٍ لي مع اثنين من الصحفيين كانا يكتبان عن الجريمة في جريدة "جوناباكان" منذ يومين. ستتصل سكرتيرتها في غضون عشر دقائق لتحدد المكان والزمان.
بينما أنتظر اتصال السكرتيرة، أمضيتُ الوقت أمام الدولاب أحاول أن أقرر ماذا سأرتدي. في الواقع كانت مضيعةً تامةً للوقت. يمكنني ارتداء أي شيء لأنه بمجرد مغادرتي للمنزل سأغرق في العرق. في النهاية ارتديتُ قميصًا قطنيًا أبيض اللون مفتوح الرقبة وبنطلونًا بنفسجيًا من الكتان، ثم جلست على التسريحة. وضعتُ كُحلًا أزرق على عيني اليمنى، ثم رَنَّ التليفون. كانت

سكرتيرة "لالي". سينتظرني اثنان من الصحفيين في كافيه "كوليديبي" في الرابعة. "لالي" حقًا عظيمة. على الرغم من انشغالها الشديد، فقد فكرت في أنسب مكان للقاء لي. ما كان شخص في مركزها بصفتها رئيسة تحرير جريدة "جوناباكان" الضخمة ليهتم.

أنهيتُ وضع الكحل في العين الأخرى بسرعة. لم أتردد في التفكير ما بين أخذ السيَّارة أم تركها، ولوحت لأول تاكسي وقعت عليه عيناي.

انخفض عدد الناس الذين يستقلون التاكسي نظرًا للأزمة الاقتصادية، وبدا لي أن أخلاق سائقي التاكسي قد أصبحت أكثر هدوءًا لهذا السبب. تمكنتُ مرتين في الأربعة أيامِ الأخيرة من الخروج من التاكسي دون شجار. هذا لا يُصدَّق.

ما زال الوقت مبكرًا على موعدي مع "بيترا"، لذا تمشيت قليلًا في الشوارع القريبة من الفندق، ثم دخلتُ بار "جاز" حيث كان العامل يكنس أعقاب السجائر من ليلة البارحة ويجمع الزجاجات. جلستُ وأسندتُ ذقني على يديَّ، ونظرت نحو مضيق البوسفور الجميل، إنه منظر لم أملَّه قط. لكنني هذه المرة، كنتُ أنظر إليه لكن دون أن أراه حقًا، حيث كنتُ أفكر فيما عرفته ليلة أمس. يشتبه "باتوهان" في أن "بيترا" ارتكبت جريمة القتل. هذا هو الموقف، سواءً أعجبني أم لا. ومع ذلك، اشتباهه هذا لن يكون سليمًا في حال لم يكن "مولر" مخرجًا سينمائيًّا حقًّا كما قال عندما زل لسانه في المكتبة.

رأيتُ "بيترا" تنتظرني فور دخولي صالة الفندق.

تمشينا في الشارع المصفوف بالأشجار والمليء بعوادم السيارات والذي يؤدي إلى حدائق الشاي في "أورتاكوي". كنا نتحدث عن السينما الألمانية دون أن نأتي على ذكر الفيلم أو المخرج. ابتعنا بعض السميط من بائعٍ متجوِّل وجبنة بيضاء من محلٍّ صغير قرب الميدان في "أورتاكوي"، ثم جلسنا في إحدى حدائق الشاي الأقرب

إلى البحر. "أورتاكوي" منطقة ممتعة. الفجوة بين الطبقات الاجتماعية الواضحة كالشمس في إسطنبول ظاهرة هنا أيضًا، لكنها لا تؤثِّر في السُكَّان هنا. مثلًا كنا نجلس في حديقة شاي محلية رخيصة، ومع ذلك رأينا في الخلف سياراتٍ فاخرة بسائقيها. كانت مصفوفةً أمام قصر "إسما سلطان" من أجل حفل زفافٍ راقٍ. "أورتاكوي" هي واحدة من مناطق عديدة في إسطنبول حيث الأثرياء ومتوسطو الحال يمكنهم الحياة والاستمتاع في المكان نفسه دون أدنى مشكلات.

بمجرد أن تركَنا الجرسون، بدأت "بيترا" بسرد ما فعلته أمس. منذ وصولها إلى إسطنبول، كان أمس هو أول فرصة تُتَاحُ لها لرؤية إسطنبول. ومثل جميع السياح العاديين، زارت جامع السلطان أحمد. قبل تلك الجولة السياحية ربما كانت تظن صديقتي أن جمال إسطنبول يكمن فقط في منظر مضيق البوسفور الذي تراه من نافذة غرفتها بالفندق. بدأت تصف لي بحماسةٍ ودهشة عجائب قصر "توبكابي" "وآيا صوفيا" وصهريج البازيليكا الأرضي لجامع السلطان أحمد، هذا ما زارته في جولتها السياحية. قاطعتُها قائلة إنني أمضيتُ آخر ثلاث عشرة سنةً من حياتي وأول سبعٍ منها في إسطنبول، وإنني قابلتُ زوَّارًا دائمين يحكون القصص نفسها بتعبير الحماسة والدهشة نفسه. وجدتُ الأمر مثيرًا للغثيان. فضَّلتُ الحديث عن الصراع بين "أيلا أوزدال" و"بيترا" على دور البطولة، وعن العلاقة الغرامية بين "مولر" و"بيترا".

وجهت هجومي الأول وسألتها:

- أكنتِ تعلمين أنكِ على وشك الطرد؟

ردت وهي تبحث في حقيبتها عن علبة السجائر:

- كلا، سمعتُ عن الأمر للمرة الأولى منكِ هذا الصباح. ماذا قالت الجرائد؟

كان عليَّ إشباع فضولي أولًا قبل إجابة "بيترا". فقبل كل شيء، اضطررتُ لتحمُّل الثرثرة الطويلة عن الأفلام الألمانية السخيفة طوال الطريق من الفندق.

.دفعتُ نحوها جريدة تحوي صورة المرأة وسألتها:

- هل تعرفين "أيلا أوزدال"؟

بحثتْ في حقيبتها مجددًا عن ولاعة وأجابت:

- تلك المرأة؟ لا، لا أعرفها.

- واثقة؟

قالت وهي تشعل السيجارة:

- نعم، بالتأكيد. ماذا تقول الجرائد؟

- تقول الجرائد إن مخرجكِ السابق أراد إعطاء تلك المرأة دورَكِ أو بالأحرى هي مَن قالت في مؤتمرٍ صحفي إن "مولر" كان سيفعل ذلك لولا موته.

- حسنًا، هذا مثير. لا بد أنكِ تتساءلين: لماذا قد تقول شيئًا كهذا؟

- نعم، هذا بالضبط ما تساءلت عنه.

كنتُ فقط أفكر في أن اهتمام "بيترا" انصبَّ على حادثة "أيلا أوزدال" عندما طلبت مني فجأة تليفوني المحمول.

يظن أصدقائي أنني أستوعب الأمور جيدًا في معظم الأحوال، لكنني لم أرَ في حياتي من يتأثر بعادات الأتراك بسرعة هكذا مثل "بيترا"، على الرغم من أنها جاءت إلى تركيا منذ أسبوعٍ فقط. قلت لها بدهشة:

- أهذا وقت الحديث في التليفون؟

- ألا تريدين مني أن أكتشف إذا ما كنت سأُطرد أم لا؟ سأتصل بالمنتج التركي وأسأله. إن كانت جميع الجرائد قد نشرت أنني سأُطرد، فيمكنهم قول ذلك في وجهي.

إنها لحظة من تلك اللحظات النادرة التي يكون فيها التليفون المحمول مفيدًا، لكنني عجزتُ عن الاستمتاع بها. لم ننتهِ حتى من تناول الشاي والسميط، لكنني أخذتُ "بيترا" إلى أقرب تليفون، كان هذا في الفندق، لأننا بالطبع لم نستطع استخدام كابينة تليفون عام في "أورتاكوي".

قررتُ تأجيل إخبار "بيترا" عن معرفتي بعلاقتها بـ"مولر". مهما يحدث ستكون هذه ضربتي الأساسية.

لم يكن سهلًا قط الاتصال بالمنتج التركي. أولًا، تحدثت "بيترا" إلى الشخص الذي رد على تليفون المكتب الذي اتصلت به. يبدو أنها لا تحتاج مساعدتي لأنه من الواضح أن الشخص يتحدث الألمانية. قال إنه غير مسموح لهم إعطاء رقم المحمول الخاص بالمنتج لأنه في إجازة ولا يريد التحدث إلى أي شخص. وضعت "بيترا" سمَّاعة التليفون بانزعاج ثم اتصلت بالشركة المنتجة في ألمانيا. استغرقت خمس دقائق على الأقل للحصول على رقم تليفون المنزل الخاص بالمنتج من السكرتيرة. بحلول ذلك الوقت كنت قد نسيت كل ما يتعلق بـ"أيلا أوزدال"، وصرت قلقة من فاتورة التليفون، خاصةً بعد زيادة تكلفة الاتصالات منذ الانهيار الاقتصادي. بالطبع لم تكن "بيترا" قلقة من الفواتير أو الأزمات المالية، ففاتورة الفندق وكل نفقاتها يدفعها الرجال الذين تحاول الاتصال بهم الآن.

اتصلت بالرقم الذي أعطتها السكرتيرة إياه. حسب تخميني أن مَنْ ردَّ على التليفون كان المنتج نفسه.

لم تسمح له "بيترا" بالتحدث، بل لخَّصت له أخبار اليوم في الصحافة التركية بسرعة البرق.

كما تعلمون، لم أرها منذ سنوات ولم تكن صديقتي المقربة، لكن ليس عليَّ أن أعرفها جيدًا أو أن أكون خبيرة لكي أفهم أن "بيترا" كانت تخرج كل غضبها على الرجل.

نظرتُ حولي لأبحث عن مكان أهرب إليه من صياح "بيترا" المتزايد. لم أجد سوى الحمَّام. لم يكن جناحًا فاخرًا كالسابق، لكنها ما زالت غرفة فندقٍ فاخرة، خمسة وعشرين مترًا مربعًا من الأثاث الأنيق.

عندما أنهت "بيترا" محادثتها وطرقت باب الحمام كنتُ قد قرأت جميع الإرشادات على مستحضرات التجميل في الحمام، وكنتُ على وشك قراءة المكونات.

أخبرتني أن السيد "فرانز" المنتج الألماني أخبرها أن موضوع الطرد ليس صحيحًا حتمًا، وأنه سيجد مَنْ نشر تلك الإشاعة ولماذا فعل هذا، ثم سيعيد الاتصال بها قريبًا.

في الواقع، شعرت بالغرابة لأن "بيترا" صارت غاضبةً فجأة. فقد كنت مقتنعة بالانطباع الذي أعطتني إياه، وهو أنها لا تهتم إن خسرت وظيفتها.

سألتها:

- ماذا حدث؟ مِن قبلُ لم تكوني مهتمة بطردكِ. لماذا أنتِ غاضبةٌ الآن؟

التقطت ظرفًا كان على ترابيزة جانبية صغيرة، ولوَّحت به أمامي قائلة:

- أعطوني هذا حين أخذت مفاتيحي، ألم تلحظي؟

لاحظت. وأكثر من ذلك هو أنني رأيتها تعض شفتيها بغيظ بينما تقرأ فحوى الخطاب في المصعد، لكنني على غير عادتي، فضلتُ عدم التدخل وسؤالها عمَا يحتويه. على أي حال سألتها قائلة:

- بل فعلت. ماذا يقول؟

- لقد أرسلته شركة الإنتاج. السيد "فرانز" لا يعرف شيئًا عن الأمر. لو أنني فقط علمتُ ما ينويه ذلك المنتج التركي.. من الواضح أنهم لن يدفعوا تكلفة هذه الغرفة. بعد جريمة القتل مباشرةً قالوا إن الجناح باهظٌ للغاية، والآن يقولون إن تكلفة هذه الغرفة مرتفعةٌ للغاية أيضًا. يقولون إنَّه عليَّ البحث عن فندق أرخص للإقامة فيه. ارتفعت التكاليف بسبب الوقت الإضافي الذي نضطر لقضائه في إسطنبول، لا يمكنهم تحمُّل تكاليف فندقٍ بتلك الأسعار...

قلت في عقلي: "رائع!"، هل ستدفع فاتورة تلك المكالمة إذًا؟".

فكرتُ في أن أقترح على "بيترا" الانتقال إلى شقتي، لكنني غيَّرتُ رأيي مباشرةً. لم أكن واثقة بأنني سأتمكن من مشاركة شقتي مع أي شخصٍ غير "فوفو" بعد. الحل الأمثل هو اقتراح فندقٍ ذي منظرٍ جميل في الحي الذي أسكنُ فيه.

أثناء انتظارنا لاتصال المنتج الألماني، طلبنا شايًا من خدمة الغرف، مع العلم أنه من الآن فصاعدًا لن تدفع شركة الإنتاج فاتورة أي شيء.

عندما رَنَّ التليفون، كنت أفكر في أنه عليَّ الرحيل كي ألحق بموعدي في الساعة الرابعة.

المتصل كان المنتج التركي. بما أن الرجل قطع إجازته ليقوم بالاتصالات فهذا يعني أن مكالمة "بيترا" للمنتج الألماني قد أثمرت.

قالت "بيترا" بالإنجليزية:

- لحظة واحدة.

ثم مرَّرت السماعة لي قائلة:

- لا يمكننا فهم بعضنا البعض. إنه لا يعرف الألمانية، لكنه يتحدث الإنجليزية لكن تعلمين أن... تحدثي إليه وأخبريني ما يقول.

قدَّمتُ له نفسي، ومن الجملة الأولى بدأ يتحدث إليَّ بألفةٍ. سألني:

- هل ستقومين بالترجمة؟

- نعم. تريد "بيترا" أن تعرف إذا ما كنتَ تعلم شيئًا بخصوص أخبار الجرائد اليوم؟

- لقد شرحتُ للتَّوِّ لشريكنا المنتج الألماني. "أيلا" تحاول فقط جذب الانتباه لها و.. أعني أن الفنانين يفعلون ذلك لإحداث ضجة. على الآنسة "فوجل" معرفة ذلك. استغلت "أيلا" الفرصة لأننا لم نكن في إسطنبول. لا صحة مطلقًا لهذه الأقوال...

قاطعته:

- أتعني أن "أيلا" لديها بعض الصلة بشركتك؟ لا أفهم ما تعنيه.

- سيدتي، "أيلا" كانت زوجتي. آمل أن الآنسة "فوجل" تسامحنا. سنعمل على تعويضها بسبب ذلك الخطأ.

كررتُ ما قاله لأتأكد من أنني فهمت بشكلٍ صحيح:

- أتعني أن زوجتك السابقة اخترعت تلك الإشاعة لأن شركتك متعلقةٌ بالأمر. أهذا صحيح؟

- نعم، نعم، هذا صحيح. لا يهم. لا تخشوا شيئًا.

نظرت إلى "بيترا" وأنا أعض شفتي السفلى. إنها حركة يقوم بها الأتراك كثيرًا، لذا فهي لم تفهم ما قصدته بها. قلتُ له:

- لكن "بيترا" تسلمت خطابًا من شركة الإنتاج الخاصة بك اليوم، يخطرها بمغادرة الفندق لأنكم لن تدفعوا الفاتورة بعد الآن.

- أوه، لا ليس عليها المغادرة. سنرتب الأمر فور عودتنا إلى إسطنبول. سجِّلي رقم تليفوني المحمول، ويمكن للآنسة "فوجل" الاتصال بي إن طرأت أي مشكلة.

ضحكتُ بسخرية بعدما أنهيت الاتصال. لأربعةٍ وعشرين ساعة ظلت "أيلا أوزدال" تناقش نظريات مؤامرة سخيفة مع العديد من الناس، بما فيهم المفتِّشون الجنائيون، مع ذلك لم يخطر ببال أحدٍ أن تلك المرأة ربما تكون قد اخترعت كل ذلك.

لخّصتُ المكالمة لـ"بيترا". هدأتْ حين سمعت أنهم سيدفعون فاتورة الفندق. قالت بابتسامةٍ هادئة:

- خمَّنتُ أن سببًا مشابهًا لذلك يكمن وراء أقاويل "أيلا أوزدال".

- حقًّا؟

- بالطبع. تلك الأمور تحدث طوال الوقت. تذكَّري أنني أعمل في السينما منذ عشرين عامًا. على أي حال، تلك المرأة يافعة للغاية، ما كانت لتصلح قط للدور. لا يمكنك زيادة عمر المرأة ثلاثين عامًا حتى مع أمهر فناني المكياج.

شعرتُ بالضيق من نفسي لأنني لم أفكِّر في مشكلة السن من قبل. تمتمت:

- نعم، إنها بالفعل يافعةٌ للغاية.

- سمح لها "كيرت" أن تأمل في المشاركة حتى ولو بأي دور. لقد لاعبَها بلعبتها نفسها.

أزاحت شعرها وأمالت رأسها للخلف وهي تبتسم نصف ابتسامةٍ ساخرة وتقول:

- على أي حال، مَنْ "كيرت" أصلًا؟ مَنْ هو ليطردني؟

لم أطق إضاعة المزيد من الوقت في سماع ألاعيب الناس الراغبين في أن يكونوا مخرجين أو ممثلين سينمائيين. دقَّت الساعة الثالثة والنصف.

وصلت الكافيه بمنطقة "كوليديبي" متأخرة ربع ساعة. كان الصحفيان يشربان الشاي ويدخنان على ترابيزة مزدحمة بآلات التصوير. أسرعت على قدميِّ إلى هناك بعد مكالمتي مع المنتج.. زوج "أيلا أوزدال" السابق. لم يعد

هناك سوى القليل لأعرفه منهما، لكنني لم أرغب في إغضاب "لالي"، فقبل كل شيء، لقد رتبت لي بضع ساعات معهما.

صحفي الحوادث - الذي خمَّنت أنه في الخمسينيات من عمره - كان نحيلًا ومدخنًا شرهًا حتى أن أصابعه متسخةٌ بالنيكوتين. أمَّا صحفي المجلة فبدا يافعًا بدرجة كافية ليبدو طالبًا متغيبًا عن المدرسة. كانا ثنائيًّا غريبًا.

بعد التعارف المُعتاد، سألتُ الشاب:

- مَنْ "أيلا أوزدال"؟

سأل وكأنه يتهمني بجهلي وكأننا نتحدث عن "كلوديا كاردينال" مثلًا:

- ألم تسمعي عنها؟ تُوِّجَتْ "أيلا" ملكة جمال تركيا عام ٢٠٠٠، ثم أصبحت عارضة أزياء. منذ ثلاثة أشهرٍ أصدرت ألبومًا لكنه لم يُبَعْ جيدًا. من الواضح أنها ستقوم بدورٍ سينمائي جديد سيبدأ عرضه الموسم القادم. مِنْ سوء حظها أن المخرج قد قُتِل، لأن اشتراكها في فيلم دولي كان يمكنه تغيير كل شيء لها. يا للخسارة!

أعطاني ذلك الصحفي الشاب إحساسًا بأنه من أكثر معجبي "أيلا" إخلاصًا. سألته:

- أظنها كانت مرتبطةً بـ"ماسوت مومكو"، أليس كذلك؟

"ماسوت مومكو" هو اسم المنتج التركي الذي تحدث معي في غرفة "بيترا" بالفندق.

- نعم، هكذا تقول الإشاعة. بعض زملائنا رأوهما معًا بضع مرات، لكن "أيلا" تقول إنهما مجرد صديقين. أظن أن عليكِ التصديق أنهما مجرد صديقين إلى حين ثبوت العكس. الأمور تتشابك بسهولةٍ في هذا المجال. هناك إشاعات على الجميع. لمَ تسألين؟

- من الطريقة التي يتحدث بها "ماسوت" بك عن "أيلا أوزدال". أعطاني انطباعًا أنهما كانا متزوجين.

وجد الصحفي ما قلتُه مسليًا. ابتسم وقال:

- في هذا العالم تكون العلاقات.. امهم، من الصعب أن يفهم الأجانب طبيعة الأمر.

ربما يظن أن الأجانب من كوكبٍ آخر. لم أحاول إثبات العكس له.

أكمل:

- قال "ماسوت" بك ذلك لكي يتجنَّب قول إنها مجرد امرأة ينام معها.

ثم أضاف بابتسامةٍ خبيثة:

- هل تفهمين ما أقصده؟

سألته وكأنني من كوكبٍ آخر حقًا:

- أتعني أنهما لم يكونا متزوجين حقًّا؟ أيقول "زوجتي" من باب الأدب؟

- لا أعرف. ربما أقاما زواجًا عرفيًا دون وثائق. لكنني أشكُّ في أن تكون العلاقة جدية أو طويلة الأمد. كما أقول، نحن الصحفيين لم نكن حتى واثقين بوجود علاقةٍ ما بينهما.

قلت ضاحكة:

- أظن أنه عليَّ مشاهدة بعض برامج النميمة.

قال صحفي المجلة بشكلٍ قاطع:

- تلك المهنة لها قوانينها الخاصة. عملنا هو تزويد المجتمع بمعلوماتٍ عن حياة الأثرياء، لكننا لا نطلق شائعات.

أومأ صحفي الحوادث موافقًا. يبدو أن القليل من الدعم المهني مطلوب.

وجهت كلامي لصحفي الحوادث هذه المرة، قلت:

- لم تكن هناك أي أخبارٍ عن جريمة القتل في جرائد اليوم. ألا توجد أي تطورات؟

- الشرطة لا تعطينا أي معلومات. أظنهم يحققون في شيء آخر منذ وقعت الجريمة. "ماسوت مومكو" هو أحد الذين أُطلِقَ سراحُهم ضمن العفو العام الأخير...

عندما وصل الموضوع لدائرة اختصاصه، أضاف صحفي المجلة - باركه الله - سيلًا من المعلومات.

- "ماسوت" هو الحبيب السابق لـ"صَدَف أرمَن". كانا يستعدان للزواج. في الواقع جهَّزت "صدف" ثوب الزفاف. كانت مستعدةً تمامًا لتصير سيدة المنزل إلى أن غيَّرت رأيها فجأة. باحت بالأمر لرئيسي "فتح" وقالت إنه بعد الزواج ما كان "ماسوت" ليسمح لها بالعمل، خاصة أنَّها اجتهدت سنواتٍ طوال في العمل لتصبح معروفة، لذا هي لم تكن لتسمح بضياع كل شيءٍ بضربةٍ واحدة. لم يكتب "فتح" شيئًا من هذا، فليس من أخلاق المهنة أن ينشر محادثة شخصية. لكن لاحقًا كتب "كمال جونجر" عن الموضوع في عموده.

قاطعته قائلة:

- لحظةً واحدة. مَنْ "فتح" و"كمال جونجُر"؟

أظنه بات واثقًا الآن بأنني أنتمي لكوكبٍ آخر. بصراحة هذا ما بدأت أظنه أيضًا.

- "فتح" هو رئيس وكالة الأنباء التي أعمل بها. إنه مشهورٌ في عالم الفن. و"كمال جونجُر" هو رئيس تحرير مجلة النساء الأسبوعية "قدنن رسمي".

- ماذا تعني بعالم الفن؟

- حسنًا أعني الفنانين.

بدأتُ أشعر بالملل، لكن على الرغم من معرفتي بالأتراك وذكائي الحاد، لكن هذه المجلة غريبة تمامًا عني، سألتُ:

- أتعني المطربين وملكات الجمال وهكذا؟

أومأ برأسه بمبالغة ليجيب بنعم.

- حسنًا. لماذا دخلَ "ماسوت مومكو" السجن؟

تمتم صحفي الحوادث بشيء سوقيٍّ لصحفي المجلة، وأخذ رشفةً من الشاي قبل أن يجيب سؤالي:

- دخلَ بسبب بضع جرائم؛ اختطاف وتحريض على العنف وقتل. لولا قرار العفو، لكان الآن في مأزقٍ كبير. مضت سبعة أشهرٍ على إطلاق سراحه. تفككت عصابته تقريبًا في أثناء وجوده في السجن، لكن فور خروجه جمعَ فريقه القديم ووسَّع نشاطه. مثلًا، دخل مجال صناعة الأفلام. هذا هو فيلمه الأول.

- هل "ماسوت مومكو" متورطٌ في تجارة المخدرات؟

أشكُّ أن أحدكم قد يراني مخطئة بشأن شكي في كون المخدرات وراء قتل "مولر". تكاليف إنتاج فيلمٍ دولي، وأجر نجمةٍ سينمائية شهيرة، ونفقات إقامة الجميع في أفضل الفنادق... أي زعيم عصابةٍ لن يموِّل كل هذا ويواجه كل هذا العناء ما لم يكن في سبيل صفقة مخدراتٍ ضخمة. لو فكرنا في الموضوع أكثر، لوجدنا أنه ليس من الطبيعي أن يُسَلَّم نصٌّ لـ"جياكومو دونيتي" إلى شخصٍ مثل "كيرت مولر". حتمًا هناك أمرٌ مريبٌ وراء ذلك.

- لا يتاجر "ماسوت" في المخدرات بنفسه. يتولى أخوه "أكسوت" فرع تجارة المخدرات في المنظمة. ينتميان لأكبر العائلات في الشرق الأوسط. هناك سبعة إخوة، وبعض الأعمام أيضًا، لكن والدهما هو من يدير كل العمل فعليًّا. الأخ الأكبر "ماكسوت" نائبٌ في البرلمان، أمضى فترتين حتى الآن. الأخت "ياقوت" هي سيدة أعمال. لا بد أنكِ سمعتِ بشركة "مومكو للسياحة"، لديهم فنادق وقرى سياحية. زوج "ياقوت" ألماني، لكنه تطهَّر وأسلم. لقد أصبح مواطنًا تركيًّا منذ أربع أو خمس سنواتٍ الآن. قابل "ياقوت" حين جاء إلى تركيا

في إجازة، وكان حُبًّا من النظرة الأولى. سحرته "ياقوت" حقًّا، فهي امرأة فائقة الجمال. شعرها بسواد الليل وقوامها متناسق وبشرتها ناعمة.

توقَّف لحظة، ثم نظر إلى صحفي المجلة الشاب، ثم لي. أضاف:

- إنها مميزة بالفعل، حتى أنها درست في الخارج.

انبهر صحفي المجلة تمامًا بسعة معرفة صحفي الحوادث البالغ. أما أنا فقاطعته قائلة:

- ماذا عن الثلاثة الآخرين؟ ألم تنجب تلك العائلة أشخاصًا عاديين؟ لا ربَّات بيوت أو معلمين؟

- أحدهم كان مقربًا للرئيس السابق "توركوت أوزال". تبًّا، نسيت اسمه. ماذا كان؟

كان يسأل صحفي المجلة لكنه لم يعرف، بدا ذلك واضحًا من الصوت الذي أصدره وهو يقلب الشاي ومن تعابير وجهه.

تُرى ماذا قد يكون اسم الصبي الخامس؟ مع العلم أن والديه سميا أطفالهما الآخرين "ماكسوت" و"أكسوت" و"ماسوت" و"ياقوت". كنت على وشك قول "لا يهمُّ" حين تذكرته فجأة. حتى أنا لم يفتني الأخبار الخاصة بهروب "تورجوت مومكو" للخارج.

سألته:

- "تورجوت"؟

- نعم، بالطبع "تورجوت". كان لديه اسم الرئيس نفسه. عندما هرب إلى أمريكا، كانوا يطاردونه بتهمة تزوير سجلات استيرادٍ وفواتير مزيفة وتهرُّب ضريبي وأشياء كهذه. غالبًا يتمتع بحياته في ميامي الآن.

علَّق صحفي المجلة:

- عندما يموت أناسٌ كهؤلاء، تعاني مهنتنا.. لن نجد شيئًا لنكتب عنه.

فكَّرت أنه عليَّ الإكثار من قراءة الجرائد باقي أيام الأسبوع، وليس فقط أيام السبت. سألته:

- قلتَ إنهم سبعة، هكذا يبقى اثنان. أتعرفهما أيضًا؟

أومأ وقال:

- نعم، هناك شقيقان آخران. الجميع يعرف قصتهما.

ثم نظر إلى صحفي المجلة وسأله:

- أنت تعرف، صحيح يا "جومالي"؟

قال "جومالي":

- نعم، نعم بالطبع.

لكنني أكاد أقسم أنه لا يعرف.

- الأخَان الأصغران هما "دورسون" و"يتار". كانا قريبين في العمر، لكنني أظن أن "دورسون" هو الأكبر. عندما رحل الأخان الكبيران وأختهما إلى إسطنبول، صار "دورسون" هو كبير الأسرة. كان صغيرًا لكنه أكثر مَنْ شابَهَ والدَه. أظنُّه نوى الانضمام للسياسة، فقد أسَّس شبكة لجان شعبيّة ضخمة في المنطقة.

توقَّف ليشرح لي معنى "لجان شعبيّة"، فقال:

- إنهم يعطون القرويين الأسلحة كي يقاتلوا الإرهابيين...

- أعلمُ، أعلم. بعض القادة يؤسسون ميليشيات شعبية لحماية الدولة.

صحيح أنني لا أقرأ الجرائد، لكنني لم أكن جاهلة لدرجة ألا أعلم معنى "لجان شعبيّة".

- "يَتَار" شقيقة "دورسون"، بدأت دراستها الجامعية في مدينة "ديار بكر". تورطت مع الإرهابيين في عامها الدراسي الأول. يقول الناس إنها رحلت

إلى سهل "البقاع" في لبنان. بالطبع كان هذا صدمةً رهيبة للعائلة. أخبروا الجميع أنها قد اختُطِفَتْ، لكن الجميع علم أنها رحلت من تلقاء نفسها.

- كيف تعرف الكثير عن تلك العائلة؟

قال وهو يشعل سيجارةً أخرى:

- أنا من المنطقة نفسها، من قرية تقع في الجنوب الشرقي. عاشت العائلة في المدينة الأقرب إليَّ.

- هل قُتِلَت "يَتَار"؟

سألته لأنني شعرتُ أن القصة مأساوية، ولم أجد نهاية أكثر مأساوية من تلك. أومأ برأسه بهدوء، وقال:

- أُصيبت إصابة خطيرة في صراعٍ ما خارج "ديار بكر"، وتُوفيت لاحقًا بعد بضعة أيام. ذهبتْ عائلتها لاستعادة الجثة من أجل الجنازة. حزنت الأم كثيرًا عندما انضمت ابنتها للإرهابيين، فما بالك بما حدث لها عندما عرفت بموتها.

- و"دورسون"؟ ماذا حدث لـ"دورسون"؟

- فَقَدَ صوابه بعد ذلك. كان يخرج مع رجاله لاصطياد الإرهابيين في الجبال. قال الناس إنه جُنَّ إلى حدٍّ ما. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى قتلته رصاصة إرهابي.

صمتنا جميعًا بُرهةً.

قال صحفي الحوادث القادم من جنوب شرق البلاد:

- كنتِ مهتمة بجريمة قتل المخرج السينمائي، صحيح؟ لذا كيف وصلنا لهذا الموضوع؟

أجبته:

- بسبب صلة "ماسوت مومكو" بالمخدرات.

- أوه، نعم.. صحيح. كما قلت، يتولى "ماكسوت" أمر تجارة المخدرات.

سألته:

- هل يعلم الجميع هذا الأمر؟

- ماذا تعنين بـ "يعلم الجميع هذا الأمر"؟

من الواضح أننا وصلنا لنقطة بدأ فيها الصحفيان ينتبهان لحديثهما معي.

- لا أعني شيئًا.. أنا فقط أتكلم بشكلٍ عام.

- بالطبع، هذا ليس سِرًّا. نحن لا نكتب عنه في الجرائد لكننا نعلم مَنْ يتورط وفيما يتورط.

- قلتَ إن الشرطة متكتمة للغاية بشأن التحقيق. لماذا برأيك؟ أعني هل هناك أمر غريب؟

لم يرد فورًا. تلاعب بولاعته البلاستيكية بين سبابته وإبهامه، ثم مالَ إلى الأمام وطلب من الجرسون ثلاثة أكوابٍ من الشاي، وقال:

- حين قالت رئيستنا "لالي" هانم إن صديقتها تريد الحديث إلى صحفي بشأن جريمة قتل المخرج السينمائي ظننتُ أنّها لا يمكن أن تكون جريمةً عاديّة.. هناك.. كيف تصفين شيئًا مختلفًا؟

اقترحتُ:

- شيئًا متضاربًا؟

- أين تعلمتِ التركية؟

- وُلِدْتُ في إسطنبول وعشت هنا أول سبع سنواتٍ من عمري وآخر ثلاث عشرة سنة.

قال في حيرة:

- اسمكِ أجنبي، لذا...

قلت محاولةً العودة لموضوع المناقشة:

- إذًا هناك شيء مُتضارِب حول جريمة القتل هذه...

- لمَ أنتِ مهتمةٌ للغاية هكذا؟ المباحث الجنائية تتصرف بغرابةٍ بالتأكيد. عادةً يعطوننا معلوماتٍ أكثر، لكن هذه المرة لم يخبرونا حتى كيف وقعت الجريمة. كل ما قالوه هو إن أحدهم ألقى مُجفِّف الشعر في الماء حين كان الرجل يستحم.

- هذه هي المشكلة حاليًا. حين أخبرتني رئيستي أن أكون هنا في الساعة الرابعة، اتصلتُ بصديقٍ قديم في قريتي. ظننتُ أنني سأحصل على بعض المعلومات منه. إنه شرطي. سألته إذا ما كان يعرف شيئًا ووعدته ألا أكتبَ عنه. لكن من الواضح أن التحقيق يجري على مستوياتٍ عُليا. حتى رجال الشرطة لا يملكون أي فكرة عمَّا يجري. هذا غريب. ما السِّرُّ في الأمر؟ قال صديقي إن هناك بعض القيود. الضحية ألماني، لذا يرغب الألمان بوجود عناصرهم ضمن فريق التحقيق. المشتبه بهم أيضًا ألمان، أي إن أحد أفراد طاقم الفيلم قد يكون القاتل. إن عادوا لوطنهم لن يكون ممكنًا القبضُ عليهم. يجب حلُّ الأمور بسرعةٍ أو على الأقل إيجاد دليلٍ منطقي.

- هممم.

إن كانوا يأخذون الأمر بهذه الجدية فهذا يعني أن "باتوهان" خاطَرَ كثيرًا بالحديث معي في مطعم الكباب.

أصررتُ على دفع ثمن الشاي ونهضتُ لأعود للمكتبة. تصافحنا وقال صحفي الحوادث إنه سيخبرني إن عَلِمَ شيئًا. دوَّن اسمي واسم مكتبتي على علبة سجائره. أومأت برأسي شكرًا له.

يبعدُ الكافيه الذي قابلتُ فيه الصحفيين دقيقتين فقط عن المكتبة. حين دخلت، كانت "بيلين" تعمل على الكمبيوتر. قلت لها:

- مرحبًا.

ردت بإشراق:

- أهلًا.

- تعملين بجد، جميل.

- كل حسابات المكتبة كانت في فوضى عارمة. الإيرادات والمصروفات والمدفوعات النقدية والشيكات، كل سجلاتها ناقصة. استغرقت الكثير من الوقت لإنجاز الأعمال الورقية.

شددتْ على كلمة "الكثير من الوقت"، لكنني لم أفهم ماذا تعني.

- هل جاءتني أي اتصالات؟

- الكثير.

نهضتْ وحملت حقيبة ظهرها وقالت:

- على أي حال، سأغادر. سأفتح المكتبة غدًا. ألقي نظرةً على الكتب إن كان لديكِ وقت. تركتُ قائمة بالمتصلين على الترابيزة.

اختفت دون إعطائي الفرصة لأقول لها: "أراكِ لاحقًا". ظل التكييف يعمل طوال اليوم مما جعل هواء المكتبة ثقيلًا. خاطرت بفتح الباب والسماح بدخول بعض الهواء الساخن.

صديقتي الأسترالية "سيندي" اتصلت بي لسببٍ ما. لكن ما جذب انتباهي حقًّا هو رؤية اسم "ساندرا" في القائمة. "ساندرا" هي الطبيبة المتقاعدة من بلدة "كيرت مولر" الأم.

ذهبت للتليفون مباشرةً. سحبتُ نفسًا عميقًا، وتأهبتُ لترك رسالةٍ صوتية بعد الرنة الرابعة، ثم تفاجأت بـ"ساندرا" تردُّ على التليفون شخصيًّا. كل ما استطعتُ قوله هو:

- "ساندرا"!

ردَّتْ بتلك النبرة الخاملة التي يستعملها المتقاعدون فقط:

- "كاتي"! لقد وصلتكِ رسالتي بغاية السرعة.

حاولت عدم التفكير في كلفة المكالمات بين تركيا وألمانيا، وسألتها:

- هل تمكنتِ من معرفة أي شيء؟

- بالطبع فعلتُ واستمتعتُ. أخبريني إن كان لديك المزيد من التحقيقات التي تحتاجينها. أشعرُ وكأنني "جيسيكا فليتشر" من المسلسل البوليسي المعروف.

جيد، لقد جلبت بعض الإثارة إلى حياة صديقتي المتقاعدة.

- حسنًا، ماذا عرفتِ؟

- حسنًا، كما تعلمين "مولر" هو اسمٌ منتشر جدًّا. لذا فكرتُ في أنه لا فائدة من استخدام دليل التليفون. اتصلت بـ"رينارد" صديق ابني، إنه يعمل في صحيفتنا المحلية "بيلفيلد بوست". لم يسمع شيئًا عن ضحية قتل يُدعى "مولر". الرجل نكرة، لا يقترب حتى من شهرة المخرج "فين فيندرز".. آلو! مرحبًا! "كاتي"؟

- ما زلتُ على الخطِّ، أنا أسمعكِ.

- أوه، ظننت الخط قد انقطع. الخطُّ ليس جيدًا، هناك صدى مزعج. ساءت جودة الصوت كثيرًا منذ تمت خصخصة شركات الخطوط الأرضية. على أي حال، اتصل "رينارد" بعائلة "مولر" ليقول إنه يكتب مقالًا. أعطاه رجلٌ عنوان دار المسنين الذي تقيم فيه الأم. لكن المرأة كانت عجوزًا ولا تجيد الكلام. إنها مصابةٌ بالشيخوخة على الأرجح. من الواضح أن "مولر" لديه شقيقٌ أصغر يعيش في مدينة "دوسلدورف"، وقد وافق على لقاء "رينارد". سألتُ عن

مهنته. في الواقع إنه جراح. والأكثر، إنه الطبيب الاختصاصي الذي كان مسؤولًا عن رسالة أخي في الدكتوراه. ظننتُ أن تلك المصادفات تحدث في الأفلام فقط.

التقطت أنفاسها وأطلقت ضحكةً عالية. أظن أن "ساندرا" عاشت لتوها أكثر يومين إثارة منذ تَقاعُدها.

- اتصلت بأخي "ديتليف" على الفور. كان مندهشًا بالفعل لسماع صوتي. فنحن نادرًا ما نتقابَل، خاصة بعد وفاة أمِّنا. لم تقابلي زوجته بعد. إنها الثالثة، وهي تصغره بخمسةٍ وعشرين عامًا. هذا ليس صائبًا...

- "ساندرا"!

- أوه، نعم، نعم. ماذا كنتُ أقول؟ أوه، نعم.. اتصلت بـ"ديتليف" وطلبت منه أن يرتِّب لي موعدًا مع السيد "مولر" بصفتي مريضةً عادية. بالطبع لم أقل شيئًا لأخي عن جريمة القتل. بما أنني لا أعرف اختصاص "مولر"، ادعيتُ أنني مصابة بمرضٍ ما. لكن "ديتليف" أصرَّ أن لديه صديقًا متخصصًا في المخ والأعصاب، وهو جراحٌ أفضل، وقال إنه سيرتب لي موعدًا معه. هذا الصديق تركي، وأنا أعلم أنكِ تحبين الأتراك. أخبرني "ديتليف" اسمه لكنني نسيته. سأعرفه إن رغبتِ، إن كنتِ ما زلتِ...

مؤكد أن الشعور بالوحدة لدى كبار السن في ألمانيا يجعلهم ثرثارين. ناديتها مجددًا "ساندرا!" بنبرةٍ تحذيرية. كانت تثرثر كثيرًا بالفعل.

- حسنًا، حسنًا.. على أي حال، رتَّب "ديتليف" لي موعدًا مع "مولر" هذا الصباح في العاشرة. قدتُ إلى مدينة "دوسلدورف" القريبة كما تعلمين. السيد "مولر" شابٌّ في الخامسة والثلاثين. أخبرته على الفور أنني كنت طبيبة كي أقترب منه، وحدَّثته عنكِ. لم يكن لدى الشاب المسكين أي فكرةٍ عمَّا أتحدثُ حتى ذكرتُ إسطنبول، عندها بدا غريبًا جدًّا. شرحتُ له بسرعة أنني لستُ

مريضة، وأنكِ طلبتِ مني البحث عن معلومات حول أخيه، وهذا هو سبب موعدي معه. بدا قلقًا، وأدركتُ فورًا أنه متوترٌ بشأن "ديتليف". فقلت له: "أيها الشاب، الجميع، عدانا، يظن أن هذا كشفٌ طبي عادي سيستمر مدة نصف ساعة. الأمر لا يتعلق بشخصٍ آخر". عندها استرخى.

- إذًا، ماذا عرفتِ يا "ساندرا"؟

- أنتِ لا تمنحينني أي فرصةً للأحاديث الجانبية.

توقفت وهلةً. لقد قالت الكثير من الأحاديث الجانبية حتى أربكت نفسها.

- ماذا عرفت؟ قال السيد "مولر" إنه لم يرَ أخاه الأكبر منذ وقتٍ طويل. لقد فقدوا الاتصال ببعضهما البعض إلى حدٍ ما. من الواضح أن الجراح الشاب كان يدفع جميع تكاليف دار رعاية والدتهما، يبدو أن أخاه الأكبر كان بلا فائدة. قال إنه كان يصنع أفلامًا سخيفة. آخر لقاءٍ لهما كان منذ اثني عشر عامًا، حين طلب منه "كيرت" العيش معه لقليلٍ من الوقت. صديقنا الجراح ذكر أن "كيرت" كان في ورطةٍ رهيبة، وإلا لماذا يريد البقاء في شقة الطلبة الخاصة بشقيقه في حين أنه من الطبيعي أنه يملك الكثير من المال. لكن الجراح رفض السماح له بالبقاء ولم يسمع شيئًا عن أخيه بعد ذلك، حتى رأى الأخبار المنشورة عن وفاته. لم يذهب "كيرت" حتى لزيارة والدته في دار الرعاية. قال السيد "مولر" إنه لا يريد أن يرتبط اسمه باسم أخيه.

سألتها بإحباط:

- هل هذا كل شيء؟

أجابت "ساندرا":

- نعم، هذا كل شيء.

- أليس لديه أصدقاءُ مقربون؟ هل سألتِ: هل هناك أي شخصٍ يمكننا الاتصال به؟

- نعم، سألته هذا أيضًا، لكن يبدو أن "مولر" لا يعرف. سألته من أصدقاء أخيه عندما كان في المدرسة في "بيلفيلد"، فقال إن صديقه المقرب كان "جونتر باسيل".

- هل لا يزال هذا الرجل في "بيلفيلد"؟ أتعرفينه؟

- ماذا تعنين بـ"هل أعرفه"؟ كل ألمانيا تعرفه. أما زلتِ لا تقرئين الجرائد؟

تجاهلت الملاحظة الأخيرة عمدًا وسألتها:

- مَنْ "باسيل"؟

- إنه الرجل الثاني في حزب الديمقراطيين الليبراليين...

- وهو وزير الدفاع السابق، تذكَّرتُ الآن.

- نعم، كان في الحكومة الأخيرة. لكنني أشكُّ في أن يقبل سياسي ناجح مقابلتكِ أو مقابلتي للحديث عن صديق طفولةٍ قديم منسي.

- هممم.

لم تجد "ساندرا" أي شيء جديد يُساهم في التحقيق.

تمشيّتُ للبيت، ما إن وصلتُ حتى غيَّرت ملابسي إلى الشورت الزهري المفضل لديَّ وتي شيرت عليه صورة "بطوط" اشتريته من محلٍّ صغير في سوق الثلاثاء المحلية، ثم بدأت أعدُّ الأومليت بالمشروم. أدركتُ أنني أجلبُ المتاعب لنفسي بأكل البيض في هذه الحرارة، لكنني لن أزعج نفسي بالتفكير في صحتي الآن. بأي حال كان عليَّ معاقبة نفسي لعجزي عن الابتعاد عن أعمال التحقيق تلك والتركيز على فواتير تليفوني المتراكمة وحسابات مكتبتي المنسية.

كنتُ مستلقية على الكنبة وآكل الأومليت وأوراق خسٍّ ظلت في الثلاجة أسبوعًا، عندما رنَّ جرس الباب فجأة. كانت الساعة الثامنة وخمسًا وعشرين دقيقة.

نهضتُ ثم سرتُ بهدوء شديد إلى النافذة لأرى مَن بالخارج. لم أجد أحدًا. لا بد أن بعض أطفال الحي رنوا الجرس وهربوا.

عدتُ أستلقي على الكنبة حين رنَّ جرس الباب مجددًا. هذه المرة ذهبتُ للباب مباشرةً ومثل أي سيدةٍ عاقلة تعيش بمفردها سألتُ:

- مَنْ هناك؟

- "باتوهان".

عليَّ القول إن صوته أسعدني أكثر من صوت مطربي المفضل من أوبرا "التروفاتوري".

عليَّ أن أُوضِّح لقرائي الأعزاء ما رأيته حين فتحت الباب. وقف "باتوهان" أمامي مرتديًا الجينز الضيق، وتي شيرت "بولو" أحمر أدكن ماركة "لاكوست"، وحذاءً قماشيًّا خفيفًا لونه أحمر أدكن أيضًا. فيما يخصُّني المشكلة لم تكن فقط في اللون الأحمر الأدكن، بل في جميع الأحذية الخفيفة.. يجب منعها بقرارٍ من مجلس الوزراء، فمن غير الطبيعي أن تجد موظفًا مرموقًا في الدولة يرتدي مثل تلك الأحذية.

ولإكمال الصورة كان "باتوهان" يحمل حقيبة أوراقٍ في يده. على الأقل لم تكن باللون الأحمر الأدكن.

- لم أكن أعرف رقم تليفون منزلكِ، لذا لم أستطع الاتصال بكِ. على أي حال عندما أوصلتُك البيت ليلة أمس لم أكن مخمورًا تمامًا كما ظننتِ. لقد تذكرتُ الطريق إلى هنا. هل أنتِ بمفردكِ؟

- لا.. أوركسترا "برلين الفيلهارمونيك" الموسيقية، لكنهم رحلوا.

سُرعان ما انتبهتُ إلى نكتي الفظيعة. مع ذلك ضحك "باتوهان"، إمَّا أنه مُعتاد النِّكات السخيفة أو أنه أراد مجاريتي. هناك احتمالٌ ثالث وهو أنه لا يعرف ما أتحدث عنه، لكنني لم أرغب في الاعتراف بذلك حتى لنفسي.

قلت عندما وجدته ما زال واقفًا عند الباب:

- ادخلْ.

سبقتُه إلى غرفة المعيشة لإخفاء طبق الأومليت والسلطة المخيفين قبل دخول "باتوهان". أصبح كلانا معتادًا الآخر بسبب الليلة السابقة حين أكلنا الكباب وشربنا الـ"راكي". لكن هذا لا يعني أن يعرف ما آكله حين لا آكل الكباب.

ركلتُ الطبق بقوة تحت الأريكة وناديتُ "باتوهان" الذي كان واقفًا في صالة المنزل.

- تفضَّل بالجلوس!

توقَّف عند باب غرفة المعيشة وفتح حقيبته وأخرج زجاجتين من النبيذ. أردتُ بشدة أن أعلق قائلة: "أتمنى ألا تكونا حمراوين أيضًا"، لكنني منعتُ نفسي بصعوبة.

- أحضرتُ بعض النبيذ. هلا شربتِ معي؟

- بالتأكيد.

تبعني حين ذهبتُ للمطبخ لإحضار الفتَّاحة. سألته:

- هل جَدَّ جديدٌ في التحقيق؟

لم يجبني، بل جلس على الكرسي المجاور لباب المطبخ يراقبني وأنا أقاتل لفتح الزجاجة. ثم قال أخيرًا:

- دعيني أفتحها.

أعطيته الزجاجة والفتَّاحة. أخرجتُ بعض كؤوس النبيذ ووضعتها على ترابيزة المطبخ.

قال:

- لم يحدث الكثير.

بالطبع لم يكن يشير إلى صعوبة شد غطاء زجاجة النبيذ.

- نحن مضغوطون لدرجة تجعلني أشعر بالغضب.

كان يتحدث كما لو كنا صديقين منذ أربعين عامًا. أسندتُ ذقني على يدي ونظرت إليه بإمعان. كان مشغولًا بفتح الزجاجة ولم يرَ تعبير وجهي.

- لمَ الضغط الشديد؟ إنه تحقيق في جريمة قتل، وأنتَ مفتِّش في المباحث الجنائية. أنتَ تقوم بهذا يوميًا.

هز كتفيه قائلًا بتعب:

- نعم، لكن ضحية القتل والمشتبه بهم مواطنون أجانب. الشرطة الألمانية ترغب بالتدخل. الجهات العليا تضغط عليَّ لأحل القضية بمنتهى السرعة دون السماح بتدخلهم. حتى الآن لم يحصل الألمان على التصريح الضروري، لكن مَنْ يعلم ماذا سيحدث غدًا.

- نظريتي عن الجريمة هي...

قبل أن أُكمِل جملتي وقف والتقط حقيبته التي أبقاها بالقرب منه مع زجاجة النبيذ. سألني:

- هلَّا عُدنا إلى غرفة المعيشة؟

سألته بعد أن جلستُ على الأريكة وفي يدي كأس النبيذ وفي يدي الأخرى سيجارة. بدأتُ أملُّ لُعبة القط والفأر هذه:

- هل سنتحدث عن جريمة القتل؟

- نعم سنفعل. هناك القليل من الأشياء التي أريد أن أسألكِ عنها.

- لا صلة لي بالأمر. لمَ تريد سؤالي؟

- ليس لأن لديكِ أي صلةٍ بالأمر. أنا فقط أريد سؤالك بعض الأسئلة.

تخيَّلتُ بطاقة عملي الجديدة:

"كاتي هيرشيل"

محققة تبيع الكتب

مستشارة جرائم قتل

قلتُ:

- سأجيب عن جميع أسئلتك إن أخبرتني بالتفصيل عن كيفية ارتكاب جريمة القتل.

أُدركُ تمامًا أن كلماتي تُعَدُ نوعًا من الابتزاز، لكن - كما تعلم - أحيانًا عليك اللجوء لأساليبٍ ملتوية للحصول على ما تريد.

بانفتاحٍ أدهشني بدأ "باتوهان" بالشرح دون تردد.

- من المستحيل تحديد وقت ارتكاب الجريمة لأن الجثة كانت في الماء. بعدما تناول طاقم الفيلم العشاء معًا تلك الليلة بقي خمسةٌ منهم في الخارج، بمن فيهم "مولر". عادوا جميعًا إلى الفندق ثم استقلوا المصعد نفسه في الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة. تقع غرفة "مولر" وغرفة مساعدته الآنسة "باور" ومساعد الإنتاج السيد "جوست" في الطابق الرابع. خرج هؤلاء الثلاثة من المصعد معًا. أدرك "جوست" أن "مولر" كان مخمورًا للغاية، وعرض أن يوصله إلى غرفته أو بالأحرى جناحه. يوجد جناحان في ذلك الطابق، يطلان على البوسفور.. المنظر خلَّاب. أمَّا الجناح الذي يقع ناحية الشارع، فتوجد باقي غرف الفريق. رفض "مولر" العرض، لذا ذهب "جوست" و"باور" إلى غرفتيهما على جانب الشارع فيما ذهب "مولر" إلى الجانب المقابل. بمعنى آخر؛ لقد انفصلوا جميعًا فور

خروجهم من المصعد. هذان الاثنان هما آخر من رأى "مولر" على قيد الحياة. وفقًا لأقوالهما لقد أمضيا ليلتهما في غرفة الآنسة "باور".

توقَّف لحظة ليأخذ رشفة من النبيذ.

- أكان بين "باور" و"جوست" علاقةٌ من قبل؟ أم أن تلك المرة الأولى؟

- قالا إنها المرة الأولى في تلك الليلة بعد العشاء. بالطبع، فالرجل متزوج. لقد أكثرا من الشراب وأمضيا الليلة معًا.

- كانت غرفتاهما متجاورتين، مما يعني أنها مصادفةٌ كبيرة إن لم يكن بينهما علاقةٌ بالفعل. مَن الذي حجز غرف الفندق من طاقم الفيلم؟

- تم حجز الغرف قبل وصولهم إلى إسطنبول. حجزوا إحدى عشرة غرفةً فردية. لكن لم يُحدد من قبل مَن سيأخذ أي غرفة. حدد مكتب الاستقبال الجناحين عشوائيًا.. حسنًا، تم حجز جناحين. جناحا الفندق متجاوران وتم حجزهما لطاقم الفيلم، أو بالأحرى لـ"مولر" وصديقته الآنسة "فوجل". أما كَوْنُ غرفتا "باور" و"جوست" متجاورتين فتلك مصادفة بالفعل.

قالها وهو يحك رأسه.

قلت ساخرة:

- يا لها من مصادفةٍ كبيرة يا "باتوهان"!

على عكس ما ظننتُ، لم يبدُ أن كبرياء "باتوهان" الذكورية قد أُهينت عندما قلتُ هذا. حيث أخرج مفكرة من حقيبته ودوَّنَ شيئًا بسرعةٍ واختصار.

قلتُ:

- تقول إن "مولر" خرج من المصعد في الحادية عشرة وأربعين دقيقة، وشوهد لآخر مرة في أثناء دخوله إلى غرفته.

- صحيح، ووُجِدَت الجثة في الخامسة والثلث صباحًا.

- إذًا فهو قد قُتِلَ في البانيو بالفعل، أليس كذلك؟

- وهل تظنين أننا - الشرطة التركية - سنمزح في أمرٍ كهذا؟

- هذا يترك أقل من ست ساعات. لو لم يتعرض للقتل، لبدأ يومه وهو لم ينم سوى خمس ساعاتٍ فقط. لو كنت مكانه لذهبت إلى السرير مباشرةً بدلًا من الاستحمام. أجمع الآخرون أنه كان مخمورًا، ما عدا هذين الاثنين.. ما اسمهما؟

- "باور" و"جوست". لكن ما من داعٍ ليشهد الجميع إن كان مخمورًا أم لا، لأن التشريح أثبتَ بوضوحٍ نسبة الكحول العالية في دمه.

- هممم.

كنتُ أفكر بعمق. من الواضح أن "مولر" لم يحترق، تفحَّم عندما تكهرب كما تخيَّلت. والدليل.. توجد جثة تم تشريحها.

- يبدو غريبًا لي أن يستحم شخص مخمور بدلًا من النوم مباشرةً.

- بل الاستحمام مع كأسٍ من الويسكي هو الأكثر غرابة.

- كان يحمل كأسًا من الويسكي في يده؟ في يده؟ ماذا تعني؟ في البانيو؟

- لا، في يده. كان ممسكًا بالكأس بإحكام.

- كيف؟

أولًا، جسده لم يحترق حتى بات رمادًا، والآن هذا.

- في حالة موت الصدمة تنقبض عضلات الساعدين وخاصة اليدين، بدلًا من أن ترتخي. ألم تري قط صور حربٍ تظهر قتلى يمسكون الرايات في يدهم؟ من الواضح أنهم قُتلوا دفاعًا عن الراية، وماتوا ويدهم متشبثةٌ بها.

عبست متجاهلةً جملته الأخيرة ثم قلت:

- في البانيو، وفي يده كأس من الويسكي.. يا للمسكين!

فجأة خطرت لي فكرة. قلت:

- إذًا زال الاشتباه في الانتحار بسبب كأس الويكسي في يده؟
بمجرد أن قلتُ ذلك تذكرتُ ردَّ فعل مُنسِّقة الأزياء التي كانت أول من رأى الجثة.
ردَّ "باتوهان" عليَّ قائلًا:
- الانتحار لم يخطر ببالنا قط بسبب وضعية الجثة.
- حسنًا، لكن ألم يحاول إنقاذ نفسه؟
- لم تكن هناك فرصة للنجاة من الموت في ظروف كهذه، مجددًا بسبب العضلات. تذكرين كيف قلت إن اليدين والساعدين ظلت في وضعية الانقباض؟ حسنًا، يحدث انقباضٌ تلقائي لعضلاتٍ أخرى في الجسم أيضًا. من المستحيل تمامًا أن يستطيع الخروج من الماء.
- حسنًا، كيف كانت حالة الجثة؟
- ماذا تعنين بحالة الجثة؟
- ظننت أنه حين يموت الشخص بالصدمة الكهربائية يحترق حتى يتفحَّم. لكن حسب كلامك، لم تكن حالته هكذا.
- لكن هذا صحيح، الصدمة الكهربائية العادية تحوِّل الجسد إلى فحم.
- أتعني إن وضعت إصبعك في مقبس الكهرباء...
أكمل وكأني لم أقل شيئًا:
- في الماء.. لأن المياه موصِّل جيِّد للكهرباء.. لذا يحدث الموت بسبب توقف القلب عن النبض.
يبدو لي أنه لا يعرف الكثير عن هذا الأمر أيضًا.
- هممم.
في الواقع كنت مهتمةً أكثر بحالة مجفف الشعر أكثر من الجثة. لذا قلتُ:
- أريدُ سؤالك عن شيء آخر.

- تفضلي.

- أما عن مُجفف الشعر. في الفنادق لا يعمل مجفف الشعر عادةً إلا إذا استمررت في الضغط على الزِّر للأسفل، كإجراءٍ وقائي. بأي حال لن أعمم الأمر، لكن هل مجففات الشعر في هذا الفندق تعمل هكذا؟ هل وضع القاتل المجفف في الماء ويده تضغط على الزِّر؟

أومأ موافقًا على كلامي وسألني:

- هل تفحصتِ مجففات الشعر في الفندق؟

- رأيتُ مجفف العشر الموجود في غرفة "بيترا"، وافترضتُ أنها جميعًا تعمل بالتقنية نفسها.

لم أكن فقط أقرأ إرشادات كريم التجاعيد ومُكوناتها، بينما كنتُ في حمام "بيترا" ذلك الصباح.

قال:

- أنتِ محقة. جميع المجففًات تعمل بالتقنية نفسها، بما فيها مجفف "مولر". عليك مواصلة الضغط على الزِّرِّ كي يعمل. لكن القاتل لم يستعمل مجفف الفندق.

صحتُ في دهشة:

- ماذا؟!

- كان منتجًا رخيصًا وبسيطًا من إنتاج شركة "فيليبس" منذ أربعِ سنوات ولم يعد يُباع في الأسواق الآن. صنعت الشركة تلك المنتجات في تايوان. صنعوا الملايين منها ووزَّعوها في جميع أنحاء العالم... لسوء الحظ تم بيع النموذج ذاته في أسواق تركيا وألمانيا. للأسف هذا كل ما توصلنا له إلى الآن.

قلتُ:

- وهذا المجفف له سلك كهربي طويل للغاية...

نظر إليَّ بغرابةٍ شديدة، حتى شعرت بضرورة تفسير سبب قولي لذلك.

- كما تعلم.. الحمَّام في جناح "بيترا" في حجم غرفة معيشتي تقريبًا.

عندما قلت ذلك تجولت عينا "باتوهان" في غرفة المعيشة وكأنه يحاول قياسها. أكملتُ شرح نظريتي:

- لا أعرف حقًّا أين المقبس في الحمام، لكن إن افترضنا - مثل معظم المقابس - أنه بالقرب من حوض غسيل اليدين، فهذا يعني وجود مسافةٍ معقولة بين المقبس والبانيو.

تعبت من تكرار كلمة "مقبس".

فكرت في معقولية كلامي، ثم أضفتُ:

- هذا على افتراض أن جميع الأجنحة بالحجم نفسه.

قال وهو يومئ برأسه:

- إنها كذلك. في الواقع لقد أحسنتِ التفكير في كل شيء. لكنكِ لستِ الوحيدة التي فعلت ذلك، فالقاتل أيضًا فعل. لأنه - أو لأنها - أحضر معه وصلة أسلاك إضافية. ثلاثة كابلات بطول مترين للكابل واحد. اثنان كانا متصلين ببعضهما البعض، أمَّا الآخر فلم يُستخدم.

- أتعني أن القاتل كان يقف هناك ويقوم بتوصيل الأسلاك بينما "مولر" يشرب الويسكي في البانيو؟ أوه، هذا هراء!

- ربما لم يقم بتوصيلهما في الحمام. على الأرجح أنه هو - أو هي – قام بتوصيلهما في غرفة المعيشة بينما كان "مولر" في البانيو. وجدنا السلك غير المستخدم على الترابيزة في غرفة المعيشة.

- هممم. ولم تكن هناك أي بصماتٍ على الكابلات؟

قال بتنهيدةٍ:

- ولا بصمة.

يبدو أنه أَمِلَ في إيجاد بعض البصمات لكن نتائج التحليل أتت سلبية.

- من العبث البحث عن بصمات أصابعٍ في غرف الفنادق، لذا لا نزعج أنفسنا بشأنها في العادة. لكن هذه المرة تفحَّصنا زجاجة الويسكي والمقبس والكابلات. وكأن القاتل ارتدى قُفَّازين وهذا سخيف. مؤكد أن الضحية كان سيرتاب في شخصٍ يتجوَّل حوله مرتديًا قُفَّازين. لكن لا توجد بصمةٍ واحدة على أسلاك الكابلات.

- ربما الضحية لم يحظَ بالوقت الكافي ليرتابَ.

- غير مُحتمَل. من الممكن أن القاتل قد قام بفتح الباب بهدوء وبالدخول، ثم قام بتوصيل الأسلاك بينما "مولر" في البانيو.. على أي حال كيف عرف القاتل أن "مولر" سيكون في البانيو؟ ما الذي جعله - أو جعلها - يدخل الحمام لارتكاب جريمة قتل بمُجفِّف الشعر؟ وأيضًا لا توجد علاماتٌ تشير إلى فتح الباب عنوةً.

- بصراحة، كون سلاح الجريمة مجفف شعر يعقِّد الأمور أكثر، أليس كذلك؟ لو أن "مولر" قُتِل بمسدسٍ، كما هو معتاد، ما كنا لنفكر بكل هذا.

ساد صمتٌ قصير. جلستُ أدخِّن وأصنع حلقاتٍ دخانية. أدركتُ أن وجهي يبدو سخيفًا عندما أفعل ذلك لكني تخطيت كثيرًا مرحلة القلق بشأن ذلك. عليكم أن تعذروني، فما يحدث ليس بالقليل.

قال وهو ينظر إلى تعبير وجهي السخيف بطرف عينه:

- حتى لو لم تكن "بيترا" الفاعلة، أظن أن القاتل امرأة.

صحتُ باستهجان:

- هذا لأن كل الأمور السيئة في العالم سببها النساء، أليس كذلك؟

بالطبع لاحظت أنه في الليلة السابقة كان مترددًا قليلًا بشأن كون "بيترا" الفاعلة.

مال "باتوهان" ونظر إليَّ. بدا منظره أشبه بشرطيٍ مُضطهَد، وقال:

- سأخبركِ لماذا أظن ذلك. ما يزعجني هو أن "مولر" خلع ثيابه ودخل البانيو بينما شخصٌ ما هناك. لو كان هذا الشخص رجلًا ما كان "مولر" ليخلع ثيابه ويدخل البانيو، صحيح؟

توقف وأجاب السؤال الذي تشكل في ذهنه قائلًا:

- حسنًا، ربما كان شاذًا، لكننا لسنا واثقين بذلك. أحد أقرب أصدقائه موجود ضمن طاقم الفيلم، ومن أقواله...

لم يكن راضيًا عمَّا قاله للتو وأنا لم أضغط عليه.

عاد ليكمل كلامه بحماسةٍ:

- أظن أنه كانت هناك امرأةٌ في الغرفة، وأن "مولر" كان على علاقةٍ معها. لكنه على الأرجح لم يمارس الحب مع أي امرأةٍ تلك الليلة، فنحن لم نجد أثرًا لذلك. السرير كان مرتبًا، و- إحم - لم نجد أي واقٍ ذكري مستعمل... لكن كما قلت، إن كان عاريًا في وجود رجلٍ آخر...

قاطعته قائلة:

- سمعتُ أن الرجال الأتراك يظهرون أعضاءهم الذكورية لبعضهم البعض ويقيسونها بمسطرةٍ حتى. أهذه كذبة؟

- نحن لا نتحدث عن مراهقين هنا.

قالها وكأن أولئك المراهقون لن يصبحوا يومًا رجالًا ناضجين.

إن لم أقضِ أول سبع سنوات وآخر ثلاث عشرة سنةٍ من حياتي في إسطنبول، لما فهمتُ قط المعنى الكامن في كلامه. "باتوهان" هو نتاج مجتمع يتجول فيه الرجال في الحمَّامات العامَّة، وهم يلفون خصورهم بقطع قماشية.

أمَّا النساء فيرتدين لباسًا تحتيًّا لا يخلعنه حتى ليغتسلن. أمَّا "مولر" فألماني، حيث يتجوَّل الناس عراة في حمامات الساونا المختلطة وشواطئ العراة وحمامات السباحة، تلك المنشآت التي لا توجد في أي مكانٍ آخر في العالم، بغض النظر عن بعض عن الدول الشمالية. أنا لم أقابل "مولر" قط، لكنني خمنتُ أنه أظهر عضوه الذكري أمام أصدقائه الرجال حتى بعدما كبر.

قلتُ:

- ما تقوله قد ينطبق على الأتراك، لكن لا عيب في التعري في ألمانيا. ما أعنيه هو أن الناس لا يتعرون فقط لممارسة الحب أو عندما يكونون مع أشخاص يطارحونهم الغرام. إن فتح أحدهم الباب لرجل البريد وهو عارٍ، لا يظن رجل البريد أن هذا الشخص يعرض عليه نفسه. هناك أماكن مخصصة للتعري للحصول على حمَّام الشمس في حمامات السباحة العامة في بعض الأحياء. إنه اختلافٌ ثقافي.

حدق إليَّ بدهشةٍ كبيرة وقال:

- أأنتِ جادة؟ أتعنين أن رجلًا ناضجًا وليس شاذًّا، سيتعرى ويدخل البانيو أمام رجلٍ آخر؟!

- بالطبع سيفعل.. لا شك في هذا.

نظر إليَّ "باتوهان" عاجزًا عن الكلام. إن كانت الأدلة التي جعلتهم يفكرون في أن الفاعل هي "بيترا" أو امرأةٌ أخرى بهذا الضعف، إذًا ضاعت كل جهوده وجهود زملائه.

قلتُ:

- أعلنت "أيلا أوزدال" البارحة في مؤتمرٍ صحفي أنها كانت ستحصل على دور "بيترا".

لم يكن هناك شيء حصريّ في تلك المعلومة التي سمعتها البارحة.

ضَمَّ شفتيه وقال:

- لستُ واثقًا بصحة ما قالته "أيلا". أخذنا أقوالها اليوم، وأظنها تتفوَّه بأكاذيبَ واضحة. شيء ما كان يجري بين "مولر" و"أيلا"، أو أنها فقط تسعى لبعض الدعاية.

مجددًا ساد الصمتُ. كلانا يفكر بعمق.

قلتُ بنعومةٍ مطلقة:

- هناك ما أودُّ حقًّا سؤالك عنه.

- تفضلي.

- ألم تنقطع الكهرباء حين ألقي مجفف الشعر في البانيو؟ أعني، ألن تنفجر الصمامات؟

- بالطبع، وهذا ما حدث.

- هل أحضر القاتل مصباحًا كهربائيًّا؟ كيف تحسس - أو تحسست - طريقه في ظلام الممر؟

- لكل غرفة صِمام مُنفصِل. الصمام في غرفة "مولر" انفجر بالفعل. لكن هذا لا يعني شيئًا. كانت أضواء الممر مضاءةً حين غادر القاتل الجناح. حتى لو أنه - أو أنها - أحضر مصباحًا كهربائيًّا، فقد استخدمه فقط حتى باب الجناح. لو انفجرت صمامات الطابق أو الفندق بأكمله لكنا اكتشفنا الفاعل فورًا.

- حسنًا، لكن من أخبرك بوجود علاقةٍ غرامية بين "بيترا" و"مولر"؟

- بل اسألي من لم يخبرني. جميع طاقم الفيلم قال ذلك بالفعل. هذا أول ما قالوه في أقوالهم. هناك امرأةٌ واحدة من الطاقم أقرت باستحالة ذلك. أما الجميع فكانوا واثقين.

- هل سألت "بيترا": أكانت على علاقةٍ به أم لا؟

- سألتُها البارحة حين أتت إلى القسم. قالت: "بالتأكيد لا". وهذه الظهيرة حين استجوبتُها قالت إن الأمر بأكمله هراء، وأنه حتمًا لا توجد علاقةٌ بينهما.

واصل "باتوهان" الشرح:

- تحدَّث طاقم عمل الفيلم عن علاقةٍ حبٍّ ملتهبة. لذا من الغريب أن "بيترا" أنكرت الأمر كليًا.

مرَّر يده في شعره قائلًا:

- لم نكشف أي دافعٍ حقيقي. مع ذلك حين تفكرين بالأمر، لمن سيفتح "مولر" الباب في وقتٍ متأخرٍ من الليل، خاصةً أنه كان من المفترض به الاستيقاظ باكرًا جدًّا الصباح التالي؟ مَنْ هذا الذي سيفضله على النوم؟

- فقط حبيبته.

جلسنا بُرهةً في صمت. فكَّرت فيما ناقشناه للتو. فجأة فرقعتُ أصابعي حين خطرت لي فكرة.

- وجدتها! هل تحريتَ عن الأسلاك الموصلة بالمجفف؟ ما مصدرها؟

قال بمزيجٍ من الإعجاب والسخرية، حتى أنني لم أعرف أيهما يطغى على الآخر:

- أحسنتِ، لم تغفلي حتى عن ذلك.

- إذًا؟

- الأسلاك جودتها أفضل من المنتجات التركية. على الرغم من أنها ليست تركية الصنع، يمكن شراء أسلاكٍ بتلك الجودة من متاجر عدة هنا.

- إذًا الأسلاك لا توصلنا إلى طرف خيطٍ لاتباعه أيضًا.

هَزَّ رأسه نفيًا.

- شارفت تلك الزجاجة على الانتهاء. سأفتح الأخرى.

- لنخرج، ما رأيك؟ أنا جائعة. يمكننا تناول الخبز المُحمَّص بالجبن في مطعم "بامبي" السريع. في هذه الساعة...

نظرت للساعة ثم أكملت:

- إنها العاشرة والنصف. ما زال لدينا وقتٌ للهضم قبل النوم.

- حسنًا.

- في هذه الحالة سأغير ثيابي.

ذهبتُ إلى غرفة النوم في شقتي المكونة من ١٤٨ مترًا مربعًا ونصف.

بينما أفتح الدولاب، أدركت أنني، للمرة الأولى، لستُ منزعجةً من الحر هذه الليلة. كان ذهني مشغولًا للغاية بجريمة القتل لدرجة أن الطقس لم يزعجني. لم أفكر حتى في "فوفو" منذ يومين. صُدمت لهذه الحقيقة. كيف نسيت "فوفو"؟

بينما يتصارع في قلبي الغضب والحب لـ"فوفو"، شعرت بحاجةٍ مفاجئة إلى الاهتمام بنفسي كي أعوِّض جسدي المسكين عن معاملتي السيئة له. سأتأنق.

عليَّ الاعتراف أن لديَّ أسبابي للتأنق لم تكن فقط لمكافأة نفسي.

ارتديتُ جيبتي الضيقة المفضلة مع قميص رمادي، وصندل أرضي مزين بحلقاتٍ معدنية من الأعلى، ووضعت قليلًا من العطر. صفَّفتُ شعري كتاجٍ متقن الصُّنع ومزين بالجواهر النادرة. كنتُ راضيةً تمامًا عن مظهري في المرآة.

وكذلك "باتوهان".

أنا أدرك تمامًا - مثلكم يا قرائي الأعزاء - أنها ليست ثيابًا مناسبة لتناول ساندويتشات الخبز المحمص بالجبن في مطعمٍ سريع في أثناء الوقوف. لكنني لم أهتم.

بعد انتهائنا من الأكل، ذهبنا إلى نادٍ يطلُّ على البوسفور حيث يرقص الجميع هناك بهز أردافهم والتلويح بأذرعهم، ويرقصون رقصًا شرقيًا على أنغام الموسيقى التركية حتى الفجر. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى شعرت

بأن رأسي على وشك الانفجار من الضوضاء، وبأن عينيَّ لن تريا مجددًا جمال البوسفور. لذا اقترحتُ المغادرة. أصرَّ "باتوهان" على توصيلي للمنزل، فسيارته مركونة بالقرب من منزلي.

حين وصلنا لباب العمارة دعوته لكوبٍ من القهوة من باب الأدب. قال دون حرج:

- عليَّ الدخول بأي حال، فلقد تركتُ حقيبتي في منزلكِ.

لم ألحظ غياب تلك الحقيبة البشعة بينما كنا نتناول الساندويتشات أو بعدها. لذلك تفاجأت في البداية، ثم غضبت لأن حقيبته كانت على أريكتي. لقد تركها هنا حتى يجد عذرًا للدخول إن لم أدعه. إنه هذا المكر الشرقي التقليدي. فجأة أردتُ قول: "ما من داعٍ لتصعد، سوف أنزلها لك من البلكون بالسبت".

لكنه لا يستحق هذه المعاملة.. إنه لم يفعل حقًّا شيئًا مريعًا.

صعدنا معًا.

كان يحاول أن يرفع جيبتي ويضع ساقه بين ساقيَّ. الجيبة ضيقة للغاية. وجسدي ملتصق بجسده.. شعرت بيديه على أردافي. خرجتْ مني آهةٌ تعبر عن الرغبة بتلقائية.

قلت لنفسي: "عارٌ عليَّ أن أمارس الحب مع رجل شرطة، يا للعار!". شعرتُ أنني أخون أمي. الشيء الوحيد الذي تشاركته مع أمي هو كُره الشرطة...

تبخرت تلك الأفكار سريعًا. كان يضغط على ساقي بقوةٍ جعلتني أرغب به كالمجنونة. شعرتُ بيده الدكناء الكبيرة ترفع جيبتي بينما اليد الأخرى تداعب نهدي من فوق قميصي.

همست له:

- دعنا نذهب إلى غرفة النوم؟

سألني:

- لماذا؟

أجبته متجاهلة تخيلاته البوليسية:

- هيًا!

لم يجب، لكنه لم يتحرك أيضًا.

سمعتُ صوت أزرار قميصي تتساقط تباعًا على الأرض، وتساءلت كيف سيقوم بفك حمَّالة صدري. هل سيفعلها بمهارة خبير؟ أم بحماسة مبتدئ؟

لم يفك حمَّالة الصدر.

بل رفعها لأعلى وكشف نهديَّ. ثم سحب كميَّ قميصي وحمَّالات صدري لأسفل. لم أستطع تحريك ذراعيَّ بسهولة. في الواقع لم أستطع التحرك على الإطلاق، تبخرت طاقتي كلها. قلت لنفسي: "لقد جمدتني الرغبة". أعضائي الحساسة تتوق بشدةٍ ليلمسها. أردتُ من يده الدكناء أن تجد ذلك المكان ما بين ساقيَّ، لقد كان يشتعل. لكن جيبتي الضيقة الطويلة منعت يده من الوصول حيث أريدها.

كان ظهري يستند على الجدار الأبيض البارد. كما قميصي وحمالات صدري المرنة افتراضيًّا سقطت من أعلى ذراعيَّ. لم أستطع الحركة، لم أستطع إرشاده بأي طريقة، لم أستطع فكَّ سوستة بنطلونه، لم أستطع دفع يده إلى حيث أريدها، لم أستطع رفع جيبتي الضيقة الطويلة. لهذه الأسباب أو غيرها شعرت بحاجةٍ مفاجئة للهروب من خدر الرغبة هذا، والأهم هو الهروب من سيطرته عليَّ. لذا كررتُ:

- لنذهب إلى غرفة النوم.

- هشش!

حين سمعت صوت سوستة تُفتح، أملتُ رأسي على كتفه ونظرت للأسفل. وجدت بنطلونه حول قدميه، ورأيته ينزل لباسه الداخلي القطني الأبيض بيده. على الضوء القادم من البلكون، رأيت عضوه الذكري الأدكن المنتصب. أردته بداخلي بجنون. رفع جيبتي حتى تجمعت حول خصري وأمسكني من وسطي. كان ظهري مستندًا على الجدار حين رفعني بسهولة وكأنني دميةٌ قماشية. ساقاي ملتفتان حول وسطه، ولا أستطيع تحريك ذراعيَّ أو جسدي الذي كان مسحوقًا بين الجدار وبين عضوه الذكري. لكن على الرغم من أن كل عضوٍ في جسدي يريده أن يتملكني، شعرتُ فجأة بالغضب وبعنادٍ غير منطقي. تقريبًا صحت قائلة:

- لا أريد.

قال وهو يزيح شعري من فوق جبهتي برقة:

- ماذا؟

- سمعتني. لا أريد. أنزلني.

لم يقل كلمةً أخرى وأنزلني. بصمتٍ رفع لباسه الداخلي وبنطلونه الذي كان حول كاحليه.

لم يقل: "ماذا حدث؟" لم يسأل: "لماذا؟".

أنزلتُ جيبتي وحاولتُ تزرير قميصي، ثم أدركتُ أن الأزرار لم تعد موجودة. بدأ قلبي يخفق بعنفٍ مجددًا. منذ لحظات كان يضخ الدم نزولًا إلى مركزي الحساس، والآن يضخُّه صعودًا إلى عقلي. التفتُ بعيدًا عنه وذهبت إلى غرفة النوم. تحت ضوء السقف المبهر ارتديتُ أول تي شيرت أمسكته من درج الدولاب.

سرت من غرفة النوم إلى المطبخ دون النظر إليه وقلت:

- أتريد بعض القهوة؟

كان ما زال واقفًا بلا حراك في الممر حيث انتهى لتوه من قفل سوستة بنطلونه. نظر إلى ساعته وتمتم:

- إنها تقريبًا الواحدة صباحًا.

- إذًا؟

- البيرة ستكون أفضل من القهوة.

انحنيت لأبحث عن بيرة في أعماق دولاب المطبخ وأنا أسأله:

- ماذا سيحدث لو أُلقيَ القبض على رجل شرطة وهو يقود سيارته مخمورًا؟

صحَّح لي:

- رجل شرطة؟ تعنين مفتِّشًا جنائيًا. سيقولون: "نعتذر بشدةٍ، سيدي. لم نتعرف إليك يا سيدي".

- أنتَ لست جادًّا.

-بالطبع أنا جادٌّ. هل سمعتِ من قبل عن مفتِّش يخسر رخصة قيادته لأنه يقود وهو مخمور.

قلتُ وأنا أحاول الوقوف:

- كلا، لم أسمع. لكن هذا لا يُحتسب. لأنك المفتِّش الوحيد الذي أعرفه. ليس لديَّ بيرة، لكن لديَّ بعض النبيذ إن رغبتَ.

- ألماني دون بيرة مثل فريق كرة قدمٍ دون مدير فني.

لا فائدة من سؤاله عمَّا يعنيه. يبدو أنها دعابة خاصة بالشرطة. فهمت عندها أن الاضطراب الذي ساد منذ قليل لن يؤثر في علاقتنا. وهو لم يسألني لماذا لم أرغب به.

6



استيقظتُ بصداع نصفي فظيع في جانب رأسي الأيمن. عادة لا أستيقظُ مبكرًا هكذا حتى ولو ضبطتُ المنبه. استحممتُ وقمتُ بتدليك كتفيَّ تحت الماء الساخن. بعدما انتهيتُ، خرجتُ للبلكون ومعي كوبٌ من القهوة التركية القوية. شعرتُ بأنني دائخة بعدما شربتُ القهوة، لذا انتظرتُ بصبرٍ حتى يفتح السوبر ماركت الساعة الثامنة. لا يوجد ما آكله في المنزل، ولا أريد تناول أقراص الصداع على معدةٍ خاوية.

توقفت سيَّارة أمام السوبر ماركت، وأخرج السائق منها صواني الخبز الذهبي الطازج وأكوام الجرائد، وأدخلهم في السوبر ماركت. "حمدي"، الفتى الذي يعمل هناك، رشَّ الماء بيده من الدلو البلاستيكي على الأرض، بسبب الغبار الذي تحوَّل إلى طين بسبب المياه. ثم بدأ يمسح الأرض بفرشاةٍ خشنة. أكانت خشنةً أم طريقة مسح "حمدي" هي التي جعلتها تبدو كذلك؟ تحاملت على الصداع النصفي واستندت على حافة سور البلكون. في النهاية لم أجد جوابًا.

ناديته:

- "حمدي"! "حمدي"!



رفع رأسه والتقت أعيننا.

- أهلًا "كاتي"! استيقظتِ مبكرًا اليوم. هل تريدين جميع الجرائد اليوم أيضًا؟

لم ينتظر ردِّي وأسرع إلى المحل ليحضر مقصًّا ليقص خيط النايلون الذي يربط كومة الجرائد.

حين عاد، ناديته مجددًا:

- "حمدي"! هناك قائمة في السلة. أحتاج الخبز أيضًا.

- حسنًا، حالًا يا آنستي.

اتجه إلى السَّبَت الذي أنزلته من البلكون وأنا أميل بنصفي العُلوي كله إلى الخارج، على الرغم من أنه شابٌّ طويل يستطيع أن يطوله إن أنزلت له السَّبَتْ بدون أن أميل هكذا.

استندت بمرفقي على سور البلكون، وانتظرت "حمدي" ليحضر لي الطلبات. بعد دقيقتين، عاد أمام باب المحل وصاح بأعلى صوته:

- آنستي، لقد نفدت من عندنا مربى التوت الأسود. هناك مربى كمثرى ومربى توتٌ أحمر. أيهما تحبين؟

فكَّرتُ بجيراني الذين يرغبون في النوم، فأشرت له ليخفض صوته ورفعتُ السَّبَتَ. ثم ارتديتُ الشبشب ونزلتُ للسوبر ماركت.

كنتُ أتناول أقراص الصداع النصفي بعد الفطار منذ رحيل "فوفو". بغض النظر عن القهوة التي تناولتُها، أغلقتُ ستائر غرفة النوم وعدت للفراش على أمل النوم نصف ساعةٍ أخرى.

حين استيقظتُ، كان النهار قد انتصف والصداع النصفي قد زال تمامًا.

جلستُ في المطبخ بانتظار غليان الماء بينما أقرأ الجرائد. آثار الأزمة الاقتصادية التي حلَّت علينا في فبراير لم تزل بعد. هناك مسيراتٌ احتجاجية

ضد غلاء المعيشة في أنحاءٍ مختلفةٍ من البلاد. عضوان في البرلمان تعرضا للاعتداء حين طالبا الناس بالتعقل في أثناء زيارتهما إلى منطقة "المداغ"، وهي إحدى مناطق مدينة "يوزغات"، وقد نُقِلَ أحد العضوين إلى مستشفى "يوزغات" الحكومي.

تساءلت: هل حقًا تلك المظاهرات الرافضة للغلاء ستطيح بهذا النظام التركي الذي نجا من كل محاولة لقلبه ومن كل فساد.

بينما أصبُّ الشاي، لاحظتُ صورةً في الصفحة الثالثة من الجريدة التي تعمل بها "لالي". كانت صورة حبيب "فوفو" السابق، المحامي صاحب ربطة العنق. هذا الحقير كان يقف بجوار رجلٍ في غاية الجاذبية، وكلاهما محاطان برجال الشرطة. نظرتُ إلى العنوان: "إلقاء القبض على منتجٍ مجرم في منزله يحتفل مع حبيبته". تمنيتُ لو أن "حبيبته" هو المحامي صاحب ربطة العنق.

تقول الجرائد:

"ألقت الشرطة القبض على مُشتبه به جديد في قضية مقتل المخرج السينمائي الألماني. وقعت الجريمة في الساعات الأولى من صباح الإثنين في فندق البوسفور، أحد أهم الفنادق في إسطنبول وأشهرها.

وكما نرى بأفلام الإثارة والتشويق، تم القبض على زعيم الجريمة "ماسوت مومكو" باكرًا مساء أمس مع حبيبته ذات الستة عشر عامًا "أ. ك." في قصره الصغير الفخم قرب قرية "كافاك ديبي" في مدينة "فاتيه" حيث كانا يعيشان أيامًا بعيدًا عن أعين الناس. قامت الشرطة بالاستماع إلى أقواله بخصوص قضية مقتل المخرج السينمائي الألماني "كيرت مولر".

كان "مولر" يستحم في جناح "دولما باشا" في فندق "البوسفور" الذي أقام فيه مؤخرًا الرئيس الأمريكي الأسبق "بيل كلينتون" وزوجته وابنتاه. بينما كان "مولر" يستحمُّ، ألقى

شخصٌ مجفف شعر في مياه البانيو، وتسببت الصدمة الكهربائية في قتل المخرج السينمائي الألماني فورًا. "ماسوت مومكو" منتج فيلم "ألف ليلةٍ وليلة في الحرملك"، كان مطلوبًا من الشرطة منذ عدة أيام لأخذ أقواله.

حوكم "ماسوت مومكو" سابقًا بتهمة تشكيل عصابة إجرامية، لكن تمت تبرئته لعدم كفاية الأدلة.

تم سجن "مومكو" بتهمة التحريض على القتل والاختطاف والشروع في القتل. عندما انتهت عقوبته الأخيرة بسبب قانون العفو العام، أسّس شركة "مومكو للإنتاج السينمائي" واتجه لصناعة الأفلام.

يُذكر أن محامي "مومكو" كان حاضرًا لحظة دخول "مومكو" سيّارة الشرطة التي أخذته إلى إسطنبول لأخذ أقواله".

لم يكن سهلًا فهم هذا المقال، لكن اتضح سريعًا أن حبيب "فوفو" السابق، ذلك المحامي "علي فاردار"، ليس حبيب "ماسوت مومكو" بل محاميه. إن كان الحال هكذا، فـ"علي فاردار" لديه فرصة التعويض عن حياته البائسة بأن يكون مفيدًا. وهذا عن طريق إخباري عمًّا يعرفه عن موكله.

اقشعرَّ جسدي من الحماسة وأنا أتصل برقم "علي فاردار" الذي وجدته في دليل تليفون قديم.

حتى الآن لا أعرف ما الخطة التي سأتبعها.

بدت المرأة التي ردت على التليفون وكأنها مشتركة في المسابقة السنوية لأكثر النساء جاذبيةً في تركيا.

طلبتُ منها الحديث مع السيد "فاردار".

قالت:

- لقد أخطأتِ الرقم، عزيزتي. هذا رقم منزله وليس مكتبه. اتصلي بالمكتب.

وأغلقت الخط.

اتصلت بالرقم نفسه مجددًا وقلت:

- سيدتي، أنا سكرتيرة "إسماعيل يورداكول". إن كان لديكِ رقم مكتب السيد "فاردار"، أتمانعين إعطائي إياه؟

لا يهم مَنْ "إسماعيل يورداكول" أو ما أهميته على الإطلاق. لكن حين أنادي تلك المرأة بــ"سيدتي" - خاصةً إذا تظاهرت بأنني سكرتيرة - ستزول عدوانيتها وتذوب كالزبد، يا لها من تافهة! إن نجحت الحيلة ستكون تلك أسرع طريقةٍ للحصول على رقم أحدهم على الإطلاق.

- "إسماعيل يورداكول"؟

توقعتُها أن تقول "مَنْ هو؟"، أو على الأقل "لقد طلبتِ التحدث إلى السيد "فاردار" قبل لحظة". لا داعي للمبالغة في تقدير ذكاء المرأة، لأنها لم تسألني أي من تلك الأسئلة، بل قالت:

- رقم مكتب "علي" هو ٢٩٣٧٣٤٧.

ثم أغلقت الخط مجددًا.

بالنظر إلى قدرة المرأة على حفظ رقمه، يبدو أن "علي" قد غيَّر ميوله الجنسية ووجد مَنْ تناسب مكانته الاجتماعية وعملاءه.

حين اتصلتُ برقم المكتب، ردَّ صوتٌ واثقٌ وأخبرني أن السيد "فاردار" بالخارج ولن يعود قبل السادسة، لذا عليَّ الاتصال لاحقًا.

تمشيتُ في شوارع "شوكورجوما" الضيقة، مستخدمةً سنوات خبرتي لتفادي الأخطار المحتملة. لم أفكر في جريمة قتل "كيرت مولر"، أو في "باتوهان". فكرتُ في "بيليني" مخرج أوبرا "السائر أثناء النوم"، والذي مات في سن الرابعة والثلاثين. حين أقول إنني فكرت به هذا لا يعني مطلقًا أنني

كنت أفكر بوجهه أو شخصيته، بل فكرتُ في أنه للأسف مات في سن الرابعة والثلاثين. الشرطة التركية تعجُّ بالكثير من الناس الذين بلا فائدة، فلماذا مات "بيليني" بدلًا منهم؟

قررتُ أخيرًا أن قراءة الجرائد تؤثر سلبًا عليَّ. كل الأخبار عن الفساد. السياسيون الوقحون ورجال الأعمال المشبوهون يحبطونني.

جلستُ وحدي في المكتبة مستمتعة بهواء التكييف البارد، وأشرب جالوناتٍ من الشاي بينما أنتظر الزبائن. لم أستطع التوقف عن التفكير في "بيليني" والسياسيين الأتراك، يا له من تفكيرٍ في وقتٍ غير مناسب!

هذه المرة رأيت "باتوهان" قبل أن يفعل بائع الشاي "ريجاي". تخطَّت الساعة الثالثة بقليل. لسوء الحظ كان يرتدي ثيابًا عادية مجددًا. ألقى نظرةً سريعة على الكتب في فاترينة المكتبة ثم دخل.

قال بشرود:

- مرحبًا.

كان يمدُّ يده لمصافحتي وكأن شيئًا لم يحدث. بدأتُ أشكُّ بوجود خللٍ في عقله. هل حقًّا يتصرف بنضجٍ وتسامح بشأن ما حدث ليلة البارحة؟

قلتُ:

- مرحبًا.

مددتُ يدي لأصافحه بينما أفكر أنه قد مضى الكثير من الوقت منذ آخر مرة ذهبتُ لطلاء أظفاري. هذا التأنق لا طائل منه.

نحيتُ أفكاري عن "بيليني" وأظفاري والسياسيين الأتراك، وحاولتُ التركيز على "باتوهان". قلتُ له لأفتح حديثًا:

- أنت ترتدي ثيابًا عادية اليوم أيضًا.

- أنا دومًا أرتدي ثيابًا عادية.

- ماذا تعني بـ"دومًا"؟ حين قابلتُك أول مرةٍ كنتَ ترتدي الزي الرسمي.

- كان هناك اجتماعٌ رسمي في قسم الشرطة ذاك اليوم، لذا كان عليَّ ارتداء الزي الرسمي. في العادة أرتدي ثيابًا عادية.

- هممم.

أردتُ تغيير الموضوع لذا قلتُ:

- عرفتُ أنك ألقيتَ القبض على "ماسوت مومكو".

- نعم، في الواقع هم فعلوا.

- ألا تتولى أنت هذا التحقيق؟

- عندما تكون قضية قتلٍ عادية أتولى أمرها. لكن خلاف ذلك تتبع قسم الجريمة المنظمة. حاليًا نحن نتنازع حول مَنْ سيتولى القضية، لكن يبدو أنني سأخسر.

كان سلوكه طبيعيًا للغاية، وهو يسحب كرسيًا ويجلس عليه. كدت أفتح فمي لأتكلم حين رنَّ تليفونه المحمول.

خرج "باتوهان" إلى الشارع.

عندما دخل مجددًا قال:

- لقد أطلقوا سراح "ماسوت مومكو". الصحافة ضخَّمت الموضوع، لكن اتضح إنه طرف خيطٍ زائف.

- ماذا كانوا يتوقعون؟

- لقد ظنُّوا أن "ماسوت مومكو" وراء قتل "مولر"، وأنه سيعترف بمجرد إلقاء القبض عليه. كانوا يأملون فقط، فقبل كل شيء لن يقبضوا على "ماسوت" بهذه السهولة. لسوء الحظ لم نملك دليلًا كافيًا لحجزه أكثر من

ليلتين. لو أنه قال: "لقد قتلته"، فماذا بعد؟ أي نائبٍ عام سيبني قضيةً على هذا الأساس؟

كنتُ أسمع ذلك للمرة الأولى، وأضفته فورًا إلى مفكرة المقتطفات القانونية الخاصة بي، ثم سألته:

- لكنك تعتقد أن للحب علاقةً بجريمة القتل تلك وأن القاتل امرأة.

- حتى ولو لم يكن القاتل امرأة...

لا يبدو واثقًا للغاية الآن بشأن هذا بعد حديثنا ليلة أمس.. تحوَّل وجهه إلى اللون الأحمر الأرجواني وتخلى عن اختيار ألفاظه لأنه في حضرة امرأة. وأكمل قائلًا:

- أخبريني، أي قاتل محترف هذا الذي سيفكر في قتل شخصٍ ما بمجفف شعر؟ هيًا، فكري بالأمر، من سيزعج نفسه بالتفكير هكذا؟ بغض النظر عن إحضار أسلاكٍ طويلة، وإيجاد مجفف شعر.. أي أحمقٍ سيفعل ذلك؟ في العادة سيسحب مسدسًا ويفرغ خزانته في صدر هذا الوغد وتنتهي المهمة. ثم سيعود للبيت لذراعي حبيبته.

أشعلتُ السيجارة الأولى لهذا اليوم. ما قاله منطقي بغض النظر عن طريقته في الحديث. واصلَ الحديث:

- أنا لا أقول شيئًا ضد أي شخص. لكن بما أن "مولر" تورط في تجارة المخدرات في صغره، فرفاقي يظنون أنه استمرَّ فيها. سيتتبعون طرف الخيط هذا الآن ويستنتجون أن هذا القذر كان يعمل مع الإخوة "مومكو". أسألك الآن: هل كان هؤلاء الأوغاد سيجعلون طاقم الفيلم يحشون جيوبهم ببودرة المخدرات البيضاء؟

ازداد وجهه حمرةً وانتفخت عيناه. لا أتحمل حين يغضب الناس ويبصقون لعابهم في وجهي. قلتُ له:

- لا تهتمَّ بكل ذلك. لنشرب شيئًا.

- نعم، بالطبع، لنتناول شرابًا. ألديكِ "راكي"؟
- كنت أفكر بالكولا، يا عزيزي.

بينما أخرجُ زجاجة الكولا من الثلاجةِ شعرتُ به يقف خلفي. أزاح شعري بيده وقبَّل مؤخرة عنقي، ثم فتح حزام الشورت الذي أرتديه. مَدَّ يده عميقًا في ثيابي التحتية. حين أخرج يده أدار وجهي وجسدي إليه، وحدَّق إلى عينيَّ ثم فتح سوستة بنطلونه. عضوه الذكري الأدكن المنتفخ كان يضغط على بطني، وكأنه مسدسٌ يُهدِّدني به، وكأنه إذا أطلق هذ المسدس ستنفجر أمعائي.

ما زالت زجاجة الكولا بيدي، وكأنها وصلةٌ لعالم الواقع حيث يمكن في أي لحظةٍ أن يعبر الباب أحد مدمني قصص الجرائم، أو أحد السيَّاح يجد أن مكتبتي أفضل مكان للسؤال عن الاتجاهات، أو أحد الأصدقاء الذي غادر عمله مبكرًا ومَلَّ التجوُّل في الشارع في هذا الحرِّ وقرَّر زيارتي.

لكل تلك الأسباب رفضتُ إعطاءه الزجاجة حين حاول أخذها من يدي. هناك خلف الستائر المخططة بالبرتقالي والأخضر والأزرق والتي تفصل المطبخ عن المكتبة، كنت واقفةً والشورت وثيابي التحتية في الأرض حول كاحليَّ. كنتُ أمسك بالكولا كالطفل المتشبث بلعبته بانتظار التعنيف لأنه بلَّل نفسه.

لمع عضوه الذكري مثل قطعةٍ من الحرير، صار الآن أرجوانيًّا ثم بلون النبيذ.

كان يهز رأسه إلى الجانبين ويقول:

- أنتِ لا تريدينني.

لم يكن يسأل بل يُقرُّ.

تلك الجملة تقولها عادةً المرأة إلى زوجها بعد أربعين عامًا من الزواج قبل أن تشرب بعض الويسكي من الكأس على الكوموود المجاور للسرير، ثم تسأله: "هل هناك أخرى؟". فيجيب: "مستحيل". عندها تصرُّ: "أعلمُ بوجود أخرى، شقراء

وتصغرني بكثير. رأيتك معها". بينما يرى زوجته تشرب الويسكي كأسًا تلو أخرى، يدرك أن تلك هي الفرصة التي انتظرها. يأخذ نفسًا عميقًا ويقول: "نعم، هناك أخرى. أنا أحبها". تسكب المرأة بشعرها الأشعث كأسًا أخرى من الويسكي وتنزل الستارة. أي امرأة تشاهد هذا ستغضب على زوجها، بينما الزوج سيغوص في فراشه وهو يحلم بحبيبةٍ شقراء شابة.

كرَّر:

- أنتِ لا تريدينني.

قالها بلهجةٍ أكثر تباعدًا ليس لي بل لنفسه. وكأنه يحاول أن يرى نفسه خلال عينيَّ، وأن يفهم لماذا لم أرِده، وكأنه من الممكن إيجاد حلٍّ فوري لــ"نقص الرغبة" هذا.

وضعتُ الزجاجة التي كنت أحتضنها بتشبث على ترابيزة المطبخ.

قلت وكأن شخصًا آخر يتكلم:

- من المبالغة افتراض أنني لا أريدكِ.

بعدما قلت تلك الجملة الغريبة لاحظت أن عضوه الذكري قد صار باللون الزهري المائل للأبيض وأصبح لونه أكثر شحوبًا من باقي جسده.

سأل وهو يعيده إلى بنطلونه:

- ماذا تعنين بذلك؟

نظر كلانا إلى الشورت الخاص بي وإلى ثيابي التحتية حول كاحليَّ. حدَّق إلى ساقيَّ وكأن جواب سؤاله مكتوبٌ على ركبتيَّ.

في مطبخي الصغير يستغرق الأمر خطوةً واحدة للوصول إليَّ. ألبسني ثيابي برقةٍ حميمية لا يُظهرها إلا رجلٌ عاشقٌ.

لو كان شخصًا غيره، لو لم يكن شرطيًّا، لولا تحاملي الشديد على رجال الشرطة، لا أعرف ماذا كنت لأشعر. لكن في تلك اللحظة شعرتُ وكأنني تلقيتُ لكمةً في معدتي.

فور مغادرة "باتوهان" إلى "كاراكوي"، قررتُ أن اليوم لن يكون مُرضيًا إلا إذا تحدثتُ إلى "علي فاردار". بعد التردد حوالي عشر دقائق قررتُ أخيرًا مغادرة المكتب في السادسة متمنيةً أن يكون الرجل في مكتبه.

وقفتُ أمام المبنى في شارع "أسمالة مسجد" حيث اعتدتُ مقابلة "فوفو"، لكن الباب كان مغلقًا. لم أجد اسم "علي فاردار" على أيٍ من أجراس الأبواب. ظننتُ أنني أخطأتُ، لذا بحثت في الأبنية الأخرى. لم يكن اسمه على أيٍّ منها، لذا عدتُ إلى المبنى الأول وضغطتُ على جرسٍ لأحد المؤسسات القانونية به. قال الرجل الذي أجابني إن "علي فاردار" انتقل إلى مكتبٍ آخر منذ شهرين، وإذا كان حارس المبنى لا يملك العنوان الجديد إذًا عليَّ الضغط على جرس المدير المسؤول.

كانت الساعة السادسة والنصف عندما جلست على المقعد الكبير المواجه لسكرتيرة "علي فاردار" في مكتبه الجديد في منطقة "جوموسويا". قلتُ في عقلي: "لا بد أن المنظر رائعٌ من هنا". اختفت السكرتيرة داخل مكتبه لتطلب إليه أن يتعطف ويقابلني بسبب إصراري، فعلى ما يبدو أن السيد "فاردار" لا يقابل أحدًا دون موعد.

كان يرتدي ربطة عنقٍ مشجرة. رفع يديه في الهواء بحركةٍ تشبه التكبير وقال:

– "كاتي" يا للمفاجأة!

– لا أعتقد أنها سارَّة لك يا "علي".

تظاهَرَ بعدم سماعي. هؤلاء الرجال يتظاهرون بعدم سماع ما يزعجهم. وضع "علي" يديه على ظهري ودفعني لدخول مكتبه وهو يسألني:

- ماذا تشربين؟

عندما سألني ذلك شعرت للمرة الأولى بلمسة تعاطفٍ تجاه هذا الرجل المُريح.

- أريد شيئًا قويًا. هل لديك ويسكي؟

- بالطبع لديَّ. بالثلج؟

- الثلج والصودا، إن كان لديك الاثنان.

أحتاج كليهما في تلك الحرارة.

بينما خرج "علي" ليحضر الويكسي، طلبتُ استعمال التليفون. اتصلتُ بـ"لالي" قبل مغادرة المكتبة، لكن سكرتيرتها أخبرتني أنها في اجتماع ولن تتلقى أي اتصالات. أتمنى أن يكون الاجتماع قد انتهى الآن.

أسعدني سماع صوت "لالي". قلتُ لها إنني بحاجةٍ لنصيحتها في أمرٍ ما، وأنني سأزورها في التاسعة على أقصى تقدير. شعرتُ بتحسنٍ فور تحدُّثي إليها.

عاد "علي" ومعه كأسان. إحداهما مليئةٌ تقريبًا عن آخرها بالويسكي والثلج والصودا، أما الأخرى فمليئةٌ بسائلٍ برتقالي اللون.

عجزتُ عن كبح فضولي وسألته ماذا يشرب فقال:

- كوكتيل "كامباري أورانج". تناولته العام الماضي للمرة الأولى حين زرت إيطاليا. أتريدين تجربته؟

ودفع الكأس إليَّ عبر مكتبه.

- شكرًا، لكنني أعرفه.

- في الواقع أحببت الطريقة التي يتصرف بها هؤلاء المجانين، مثل مناطيد الأخوين المخترعين "مونجولفييه".

- عليَّ الاعتراف أنه كوكتيل يناسب صورتك الجديدة.

ردَّ بحسمٍ:

- أشكُّ في أنك أتيتِ لمناقشة أنواع الكوكتيلات معي.

- لقد رأيتُ صورتك في الجرائد هذا الصباح. لهذا أتيتُ.

لم يكن يتظاهر حين سألني:

- صورة؟ أي صورة؟

- لقد التُقِطَتْ لك مع "ماسوت مومكو" في مكانٍ ما قرب مدينة "فاتيه". لا أعرف متى.

- صورتي التُقِطَتْ؟ أنا مشغولٌ للغاية لأتابع الجرائد. سأخبر سكرتيرتي أن تحضر بعضها.

التقط سماعة التليفون واتصل بسكرتيرته على الخط الداخلي.

بعدما أعاد السماعة لمكانها قال:

- لا أفهم الصلة بين صورتي في الجرائد وبين وجودكِ هنا.

- أنا مهتمةٌ بجريمة قتل، واسم "ماسوت مومكو" ظهر فيها.

- ماذا تعنين بـ"مهتمة بجريمة قتل"؟

- صديقتي "بيترا فوجل" هي نجمة فيلم "ألف ليلةٍ وليلة في الحرملك" الذي سيتم تصويره في إسطنبول.

- هل يشتبهون بها الآن؟

- لا. لكنها شاهدة على بعض الأحداث. لقد أُثير فضولي وأرغب في معرفة المزيد عن الجريمة.

- لستُ الشخص الذي عليكِ سؤاله.

- لا تكن هكذا يا "علي". أريدك فقط أن تخبرني بما تعرف، هذا كل شيء.

- الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن "ماسوت مومكو" لا صلة له بالأمر.

- لم أقل إن له صلةً بأي حال. مَنْ سمع من قبل بزعيم عصابة أمر رجاله بإلقاء مجفف شعرٍ في بانيو ليقتل شخصًا ما؟! كما أن أي قاتل مُستأجَر لن يملك هذا الخيال. أنا لا أشتبه بـ"ماسوت مومكو" أيضًا. لكن المثير للشك هو أن "مومكو" سلَّم مشروعًا مكلفًا كهذا إلى شخصٍ غير كفء مثل "مولر". السيناريو كتبه أحد أفضل الكتاب في هذا القرن، لكن المخرج هو "مولر"! ألا تظن بوجود شيءٍ غريبٍ في الأمر؟

- مَنْ كتب سيناريو الفيلم؟

- "جياكومو دونيتي".

- نعم.

شعرتُ أنه على الرغم من العُطلة التي قضاها في إيطاليا الصيف الماضي، فهو ما زال لا يعرف مَن هو "دونيتي". لكننا لا نتنافس في مسابقة المعلومات العامة الآن.

- أظن أن أمر "دونيتي" هذا محض مصادفة.

نطق اسم الكاتب العظيم "دونيتي" بطريقةٍ جعلتني أعض لساني حتى لا أنفجر بالضحك. أكمل كلامه:

- أشكُّ في قدرة "ماسوت" على إيجاد كاتب سيناريو مشهور. لقد أسَّس شركة الإنتاج لـ"يوسف" زوج أخته، لذا لا بد أنه من وجد هذا الكاتب. أو ربما الشركاء الألمان هم مَن اقترحوه. لكنني أؤكد لكِ أنه لا علاقة لـ"ماسوت" بالأمر.

- حسنًا، لكن موكلك يستثمر الكثير من المال في هذا الفيلم. لماذا يضيع ماله على "مولر"؟ لا بد أنه قام بالبحث وقارن بين "مولر" وبين "دونيتي" و"بيترا فوجل"؟ قبل كل شيءٍ هو رجل أعمالٍ، وبلا شك يريد جني المال.

تمتم "علي" لنفسه "رجل أعمال... رجل...".

شعرتُ أنني الأولى التي تطلق علي زعيم عصابةٍ لقب رجل أعمال. مع ذلك لا نية لديَّ للضغط على المصطلحات التركية أو على ذكاء محامٍ تركي.

قال أخيرًا:

- نعم، يمكنكِ دعوته برجل أعمال.

مجددًا عجزت عن مقاومة الرد:

- إن لم تظن أن مصطلح رجل أعمال يناسب هذا الرجل، إذًا لماذا قبلتَ قضيته بالله عليك؟

أجاب دون تردد:

- قد لا يكون رجل أعمال، لكن الجميع لهم حق الدفاع عن أنفسهم.

كان ردًّا جيدًا، لكنه قد يبهر أكاديميًّا فاشلًا وحسب. لم أزعج نفسي بأن أسأله سؤالي الثاني.

- ما قصدته هو سواء أكان رجل أعمال أم لا، فإن هدفه الرئيسي هو جني المال، صحيح؟ مثل الجميع.

- أفهم ما تحاولين قوله. تقولين إنه لو أراد جني المال بهذا الفيلم فلماذا يعمل مع شخصٍ مثل "مولر"؟ حسنًا، كيف تعرفين أنه لم يجنِ مالًا من أفلام "مولر"؟ ربما جنت أفلامه أرباحًا طائلة.

أعترف أني ارتكبتُ خطأً منطقيًّا التقطه "علي" فورًا. صناعة الأفلام ما هي إلا عمل مثلها كمثل كل الأعمال، لا صلة أبدًا بين المخرج المربح والمخرج الجيد.

- أنت مُحقٌّ. حسنًا، لكن برأيك لماذا اشتروا حقوق إنتاج فيلمٍ لكتاب "دونيتي"؟ مؤكد هناك أمر غريب في هذه النقطة على الأقل.

- أنا واثقٌ أنه له أسبابه. لكن كما قلتُ، أنا لست الشخص الذي عليكِ سؤاله بشأن ذلك.

كررتُ قولي بأسلوبي المريح:

- أنت محقٌّ.

انتقلتُ فورًا لمجموعة أسئلتي التالية:

- لماذا قبض رجال الشرطة على موكلك؟ ولماذا أطلقوا سراحه؟ يمكنني سؤالك عن هذا على الأقل، صحيح؟

- هل اعتقلوه وأطلقوا سراحه؟ من أين سمعتِ أنهم أطلقوا سراحه؟

ابتعلتُ الجرعة التي شربتها من كأسي محاولةً إيجاد سببٍ معقولٍ لمعرفتي بشأن إطلاق سراح "مومكو".

- حسنًا، خمنتُ ذلك، لكن أهذا صحيح؟

- نعم، بعد ظهر اليوم، منذ بضع ساعات.

لم يشك "علي" بشيء. في الواقع لن يصبح أبدًا محاميًا بارزًا إن عجزت مخيلته عن تصوري وأنا ألاطِف رجال الشرطة.

- لماذا أطلقوا سراحه؟

- عجزوا عن احتجازه أكثر من هذا بدون دليل إدانة واضح. هذا هو السبب.

كان يُظهر مهارته في المحاماة، أي إن "ماسوت مومكو" لم يكن بريئًا.

- إذًا لماذا قبضوا عليه؟

- لتخويفه. ظنوه سيرتعب ويغضب ويعترف. حتى أنتِ ظننتِ ذلك. "ماسوت" لن يأمر أبدًا بقتل شخصٍ بمجفف شعر. ألا تدرك الشرطة ذلك؟ هذا غباء كيفما نظرتِ إليه.

- لماذا كنتَ معه عندما قبضوا عليه؟

- لقد أرسل في طلبي. لقد ذهبوا لمنزله ومكتبه في إسطنبول، وظن أنهم سيأتون إليَّ بأي حال. ما الخطأ في ذلك؟ أهذا يعني أنه مذنب؟

- لا، كنت أسأل وحسب. لمَ أنت غاضبٌ هكذا؟

- أنا لستُ غاضبًا.

لا أرغبُ بالاستمرار في تلك المحادثة العقيمة، بغض النظر عن الويسكي والثلج، ومنظر قصر "توبكابي"، وجزر الأميرات وحيدر باشا. ماذا يقول قدماء الأتراك؟ "أينما كانت الضوضاء، من الأفضل أن ترحل".

أيًّا كان ما يعنيه ذلك.

عبرتُ جسر البوسفور الذي أسميه أنا وسائقو التاكسي "الجسر الأول". كنت أستمع إلى "لا فلاكا"، ألبوم لفرقة "جارابادا بالو"، أعطاني "فوفو" إياه. اتخذتُ قرارًا أنه ليومٍ واحد أو لبضع ساعاتٍ على الأقل، سأكفُّ عن التفكير في جريمة القتل و"باتوهان". ما أردته حقًّا هو تناول وجبة جيدة، مثل الفاصوليا الخضراء بزيت الزيتون، والحديث مطولًا مع "لالي".

فور دخولي المنزل شممتُ رائحةً قوية جعلتني أدرك أن حُلمي بوجبةٍ جيدة هذه الأمسية لن يتحقق. "لالي" كانت مُشمِّرةً عن ساعديها ومندمجةً تمامًا في إعداد وجبةٍ تركية مُبتكرَة تعتمد على وصفة إيطالية مُكوَّنة من المكرونة مع زبادي الثوم.

- كيف علمتِ أنني سأصلُ باكرًا؟

- لم أعلم. كنتُ أتضورُ جوعًا، وفكرتُ في تناول الطعام وترك البعض لكِ.

قلتُ وأنا أكاد أبكي:

- ظننتُ أننا سنخرج لتناول العشاء.

أظنها اشترت المكرونة ذات الثلاثة ألوان التي كانت تتراقص بحزنٍ وخواء في الماء، خصيصًا من أجل هذه الليلة، وحتمًا لن ترميها.

قالت وهي تخلط المكرونة المبللة مع الزبادي:

- لا تكوني سخيفة، ليس بعدما حضَّرتُ الطعامَ بالفعل. على أي حال، لقد اشتريتُ المكرونة الملونة.

غرقنا في تفكيرٍ عميق بينما نأكل المكرونة تحت شجرة الجوز التي تظلل حديقتها الخلفية الصغيرة. أعرف جيدًا أن صديقتي "لالي" لا تحتمل الصمت الطويل.

سألتني عن المكرونة وهي واثقةٌ تمامًا أنني لن أقول إنها "بشعة":

- ملحها كثير.

قالت بجدية أكثر من المُتوقَّع:

- ليتني أستطيع جمع كل ذرة ملحٍ أهدرتها.

- لماذا قلتِ هذا؟

- أخبرتني خادمة التنظيف "حوَّاء" أن الملح مُقدَّس.

- حسنًا، لا يمكن استعادة الملح الذي أهدرته على المكرونة. سيكون الأفضل لو خرجنا لتناول العشاء كما اقترحت.

قالت ضاحكة:

- لا تكوني سخيفة. إنها ليست مالحةً إلى هذا الحدِّ.

- على أي حال، لمَ الملح مقدس؟

- لا أعرف، و"حوَّاء" لا تعرف أيضًا.

ساد الصمت مجددًا.

حشوت فمي بالمكرونة في محاولة لملء معدتي وقلتُ:

- ربما يرتبط الأمر بزوجة "لوط".

- ما علاقته بزوجة "لوط"؟

- أثناء هروب العائلة من كارثة مدينة "سدوم" و"عمورة"، ألقت المرأة نظرة خلفها فتحولت إلى ملح. فعل الأب وابنتاه ما أُمِروا به ولم ينظروا للخلف. لم ينجُ من تلك القبيلة الضخمة سوى ثلاثتهم.

- ظننتُ أن زوجة "لوط" تحوَّلتْ إلى حجر.

- كلا، أنا واثقة من أنه ملح.

تعرف "لالي" تمامًا أنني قادرة على منافسة أي شخصٍ في قصص العهد القديم، لذا لم تستمر في الجدال. لكنها قالت:

- أيًا كان، ملحًا أو حجرًا، السبب هو أنها أرادت أن ترى بيتها والنيران تأكله للمرة الأخيرة. نظرت للمدينة مرةً أخيرة لأنها لم تحتمل خسارة كل شيء، صحيح؟

- كلا، لم تفعل هذا. من أين جئتِ بهذا؟

- بالطبع فعلتْ. ألقت نظرة أخيرة على أملاكها، وإلا فلماذا نظرت خلفها؟

- لأنها امرأةٌ شنيعة وعنصرية ومعادية للنساء و...

كالعادة، لا تسعفني الكلمات التركية حين أكون غاضبة ومنفعلة. تخليتُ عن محاولة إيجاد أفضل وصفٍ وأكملت:

- بالطبع النساء هن دومًا مَنْ يسعين وراء المال والأملاك. النساء الجشعات هن مَنْ يحزن على الأملاك المحترقة. إنهن من يستدرن وينظرن، فيتحولن لملح. في حين لم يقلق "لوط" قط بشأن الأملاك. لم يهتم بالمال أو النفائس أو الأملاك، لأنه رجل. ظل "لوط" ناظرًا للأمام. لكن ليلًا في الكهف، سقته الفتاتان الخمر حتى سكر تمامًا لتحملا منه. كان مخمورًا للغاية فلم يعرف أنه نام مع فتاتيه. لكنه لم يكن مخمورًا لدرجة ألا ينتصب عضوه.

كنتُ أصرخُ وأنا أحكي النصف الثاني من قصة "سدوم" و"عمورة" حيث جعلت الفتاتان الأب مخمورًا ونامتا معه لتحملا ويكملا سلالتيهما.

قالت "لالي":

- اهدئي من فضلك. ماذا لو أن النساء جشعات؟ وما المشكلة في أن زوجة "لوط" استدارت ونظرت للأملاك المحترقة؟

- ماذا لو أن المرأة أرادت إلقاء نظرةٍ أخيرة على المدينة التي أحبتها؟ ألا ترين الفرق يا "لالي"؟ بالطبع هناك فرقٌ بين المرأة الجشعة الطمَّاعة وبين المرأة المحبة للتلال وساحات المدينة حيث معيشتها ومنزلها وحديقتها وزهور العسلة أمام بابها.

- بالطبع هناك، لكن أي فرق قد يحدث إذا نظرت زوجة "لوط" خلفها؟ أهذا ما نتجادل بشأنه؟

- لا أتحدث عن زوجة "لوط" بالتحديد. هذا أحد الأمور الكثيرة التي يقولها الناس ضد النساء، وكأن الأمر في جيناتهن. يقول الناس إن النساء يهتممن بالنفائس والأملاك، وكأنها حقيقةٌ علمية مثل الحيض أو الولادة.

- ملح...

- كفى حديثًا عن الملح. هناك أفكار تقليدية كثيرة متحاملة ضد النساء. تعرفين ذلك أفضل مني. قلتِ بنفسك إن الناس تسألك إن كان متعبًا كونك رئيسة تحرير جريدةٍ ضخمة. هل كانوا سيقلقون كثيرًا حول تعبك لو كنتِ رجلًا، أتساءل. سأخبرك، لن يفعلوا. لمَ قد يقلقون لأنك متعبة؟ إن ظللتِ في البيت تربين أطفالك مثل كل النساء لن تتعبي، صحيح؟ على النساء أن يقمن بالأعمال الخفيفة المخصصة لهن، صحيح؟

لقد تماديتُ كثيرًا هذه المرة. أشكُّ في أن استخدامي "لالي" كمثال ليس له أي صلةٍ بما كنا نناقشه. مع ذلك وفي تلك اللحظة بالذات، لم أكن مستعدةً لجدالٍ منطقي ومترابط.

قالت "لالي":

- أنتِ غاضبةٌ يا عزيزتي.

كانت تحافظ على ذلك الهدوء الخاص بسيدات الأعمال، وترفض الدخول في مصارعةٍ كلامية معي. ظننتها ستكون فخورةً بنفسها لهذا. بصراحة إنها الصفة التي تفصلني ومثيلاتي عنها وعن مثيلاتها.

حملت "لالي" الأطباق وذهبت إلى المطبخ. جلستُ بكسلٍ وحدي في الحديقة لبعض الوقت، ثم تبعتها إلى المطبخ.

سألتني وهي تضع الأطباق المتسخة في غسَّالة الأطباق:

- ماذا فعلتِ اليوم؟

- همم، ليس الكثير. عددتُ النجوم، وحاولتُ عدَّ أسناني كذلك، لكن أيًّا كان.

- أووه، هذا لطيف. هل ترجمتِه من الألمانية؟

"لالي" لا تعترف أبدًا أن لغتي التركية جيدة. دومًا تتصيد لي الأخطاء.

- لا أعرف. اعتاد أبي قول ذلك. وهو يعني أنني لم أفعل الكثير في يومي.

- لم أفعل الكثير؟ ما علاقة هذا بأي شيء، حبيبتي؟ لقد بدأتِ عمل التحقيق هذا كهواية. أهناك أمرٌ على المحك؟ لا. لا يهم إن لم تكشفي حقائق الجريمة كاملة.

- أي هواية؟ تتحدثين كما لو أن كل ما فعلته هو اللعب بالمسدسات المزيفة هذا الأسبوع. مات أحدهم، والقاتل طليق. أتسمين هذه هواية؟

- ربما استخدمت الكلمة الخاطئة. ما عنيته هو أن تلك ليست مهنتكِ. لستِ شرطية أو شيئًا من هذا القبيل، صحيح؟ أنتِ امرأةٌ تبيع الكتب بطريقتها الخاصة.

- لنغيِّر الموضوع. أعرفُ أنكِ تحاولين تهدئتي، لكن صدقيني لا فائدة. على أي حال، لا علاقة لمشكلتي بما تسمينه "هوايتي".

- إذًا بمَ تتعلق؟ هل وجدتِ نفسك محاطةً برجالٍ عنصريين؟

بينما تمتدُّ الأمسية، عرفتُ حتمًا أن ما قلته في أولها سيُستخدم ضدي. قلتُ:

- تعلمين - كما أعلم - أن ما قلته أنا صحيح. إنهم يظلمون النساء على كل شيء.

أشعلتُ إحدى سجائري الموضوعة على ترابيزة المطبخ، ثم أضفت:

- إن لم يكن كل شيء، فعلى الأقل الكثير من الأمور.

- سأعطيكِ عمودًا في صحيفتنا إن رغبتِ. لكن لغتكِ التركية سيئة بما فيه الكفاية. لن يعرف أحدٌ أنكِ أجنبية. والأهم هو أنكِ ملحدة.

قلتُ بسخط:

- لماذا لغتي التركية سيئة؟

- لا نقولها "يظلمون على" بل "يظلمون في".

قالتها وكأنها أول فتاة تتعلم القراءة والكتابة.

- إن تحدثتِ الألمانية بجودة تركيتي.. حسنًا، ليس الألمانية فهي لغةٌ صعبة. إن تحدثتِ أي لغة بجودة تركيتي، سأقوم بتقبيل جبهتكِ بكل تقدير.

- هل أتيتِ للشجار معي يا "كاتي"؟ إن كان هذا سبب مجيئكِ، فأنتِ أسأتِ اختيار التوقيت. أنا متعبةٌ وغير قادرة على المشاجرة. على العموم إنجليزيتي تكفيني.

كيف أنافس صديقتي العزيزة بتلك الطريقة الغبية؟ قلت:

- حسنًا، حسنًا. أنتِ محقة.

ثم عرضتُ عليها فورًا إعداد القهوة؛ لأظهر لها أنه لا توجد ضغينة.

- لم أعد أستطيع شرب القهوة مساءً. سأشرب شايًا خفيفًا. لستُ مضطرةً لغليه، هناك أكياس شاي هناك.

أنا أكبرُ "لالي" بخمس سنوات، لذا إن كانت القهوة تمنعها من النوم ليلًا، فحتمًا ستفعل هذا بي. لذلك أعددتُ لنفسي بعض الشاي بالنعناع.

شربنا الشاي في غرفة المعيشة في الدور الثاني من المنزل. وأخبرت "لالي" عن "باتوهان".

قالت وهي ما زالت تتلاعب بمهارةٍ بأعصابي:

- إن أردتِ النوم مع رجل فافعلي بالطبع. أهناك قاعدة أخلاقية في ألمانيا تمنع النوم مع رجال الشرطة؟

- ما علاقة هذا بألمانيا؟ نفوري من رجال الشرطة شيء عميق بداخلي أكثر مما ظننتِ. لم أدرك أن شعوري قوي هكذا.

- آه، هل هذا بسبب حساسيتكِ الشديدة تجاه الأفكار التقليدية؟

واصلت التحدُّث فيما قلتُه على العشاء بلا رحمة. ستظل تتحدث عن الأمر حتى أستسلم وأعتذر عن كل شيء قلتُه أو سأقوله.

- ألا يمكننا أن نحظى بفاصل؟

- أحاول أن أفهم السبب وراء صياحك منذ قليل؟

- لا يوجد ما تفهمينه. أنا غاضبةٌ وحسب. لقد قلتِها بنفسك.

- أأنتِ غاضبة بسبب "باتوهان"؟

- أنا غاضبة لأنني لا أعرف ماذا أفعل. إن كنت في الظروف الطبيعية لرغبت في أن أكون مع رجل. لكنه رجل شرطة...

- لا أعرف لماذا تضخمين الأمر؟ أتريدين أن تكوني معه أم لا؟ ما علاقة الظروف الطبيعية أو غير الطبيعية بهذا؟

- حسنًا، لكن لماذا لا أرغب في أن أكون مع هذا الرجل؟ هل العالم مليء بخريجي أكاديمية الشرطة الوسيمين والفاتنين؟

فجأة ضاقت عيناها وأخذت تهز رأسها، وكأنها اكتشفت شيئًا جديدًا.

- أهناك ما فاتني؟ الآن فهمت. تريدين الإذن مني لتكوني معه. لو قلت لكِ: "يا له من رجلٍ لطيف!"، هل سيرتاح عقلك؟

- بالطبع سأرتاح. لكنني خرجت مع رجالٍ آخرين دون انتظار موافقتك.

- لكن هذه المرة مختلفة. فكري، الأمر لا يتعلق فقط بتحاملك. أنتِ تفكرين فيما يفكر الناس حولك. ماذا سيقول "فوفو"؟ ماذا ستقول "بيلين"؟ ماذا سيظن بائع الشاي "ريجاي"؟ لقد أصبحتِ تركية بحق! أنتِ تصيرين تركية شيئًا فشيئًا!

أمتعَ هذا الاكتشاف "لالي" بشدة. واصلت حديثها الفردي ضاحكة:

- أنتِ تفكرين بماذا سيقول جيرانك؟ إن رآه شخصٌ ما يدخل ويخرج من شقتك بزي الشرطة.. ماذا سيظن الجميع؟ سيظنون أن "كاتي" وجدت لنفسها رجل شرطة. لا أظن أن الجميع سيتوقفون عن التحدث إليكِ بسبب هذا يا عزيزتي. إنه ليس شرطي مرور، بل ضابط جنائي.

صحَّحتُ لها:

- بل مفتِّش. وهو لا يرتدي زيًّا رسميًّا.

بصراحة إنه يبدو أفضل في الزي الرسمي أكثر من الثياب العادية، لكن لا يهم. أضفتُ:

- ثم ماذا لو كان شرطي مرور؟

- حسنًا، هذا نتيجة مقاطعتكِ لقراءة الجرائد. لا تعرفين نتائج استبانة الرأي العام التي هَزَّت تركيا. شرطة المرور تضمُّ أكبر نسبة مرتشين في تركيا.

قلت منهيةً جملة "لالي":

- نعم نعم.. اكتشفوا أن "كل خامس شخص" يرشو شرطي مرور.

حتى لو أنني لا أقرأ الجرائد، ما زلت أعرف كل شيء ولن أفوِّت فرصة إظهار ذلك. مجددًا غرقت "لالي" في الضحك. تجاهلتُها وواصلتُ حديثي:

- لكن عزيزتي "لالي"، لا أذكر تلك الاستبانة التي هزَّت تركيا.

بين ضحكاتها كانت تصيح قائلة:

- مدهش! مدهش!

كانت تصيح وهي تضحك تمامًا مثلما تفعل كلما قابلنا جدتها. قلتُ لها:

- ما الأمر؟ أخبريني حتى نضحك معًا.

- ماذا تعنين بـ"كل خامس شخص"؟ تحدثي لغةً صحيحة. لقد ترجمتِها من الألمانية، صحيح؟ من أين تأتين بهذا الكلام؟ "كل خامس شخص". تحدثي لغةً صحيح. هل ترجمتِ ذلك أم لا؟

- حسنًا، كيف تقولينها؟

بمجرد أن سألتها، أدركت أن الجملة يجب أن تكون "واحد من بين كل خمسة أشخاص"، فواصلتُ كلامي:

- حسنًا، لقد ترجمتُها. ماذا في ذلك؟ الأتراك يترجمون الكثير من الكلام من الإنجليزية. مثلًا هل تعبير "اعتنِ بنفسك" موجودٌ في التركية؟ أنا أترجم من الألمانية وليس الإنجليزية. على أي حال، لقد مللتُ أسلوبك. تبدين كمدرسة أو طبيبةٍ نفسية أو رئيسة مجمع اللغة التركية.

يمكنها إغاظتي في أي شيءٍ ما عدا لغتي التركية.

نزلتُ إلى الطابق السفلي لأبحث عن حقيبتي ومفاتيح سيارتي. وهَرعت "لالي" خلفي مثل طفلةٍ شقية.

النجم لا يفيد، والقلوب المنفطرة لا تتعافى ببعض الكلمات العذبة.

وجدتُ مكانًا للركن أمام باب سكني مباشرةً. كنتُ قد نمتُ حتى الظهيرة ذلك اليوم، لذا لم أشعر بأدنى قدرٍ من التعب. لكن رأسي كان يدور بسبب رائحة الثوم التي تنبعث مني وبسبب مشاحنتي مع "لالي". كل ما أردتُه هو شرب جالوناتٍ من الماء وتنظيف أسناني والاستحمام بماءٍ دافئ.

لحظة أن فتحت باب شقتي، شعرتُ بشيءٍ غريب. من عادتي إغلاق القفل مرتين، لكن تلك الليلة انفتح الباب بعد دورة مفتاحٍ واحدة.

قلتُ لنفسي: "لا بد أنني نسيتُ إغلاقه مرتين عندما خرجتُ هذا الصباح بسبب الصداع النصفي". وتناسيت الأمر.

خلعتُ صندلي في الردهة وسرت حافية القدمين على الأرضية الحجرية الباردة حتى المطبخ، حيثُ شربت كوبًا كبيرًا من الماء. في إسطنبول علينا شراء المياه المعدنية؛ لأن مياه الصنبور مليئة ببكتيريا وميكروبات تكفي لقتل ثور. لا أشتكي من حمل زجاجات المياه من المحل القريب حتى شقتي لأن فتى المحل يفعل المثل. لكنني أفتقدُ حقًّا فتح الصنبور لأملأ كوبًا من الماء.

لم أدخل الغرفة الأمامية، بل ذهبتُ للجزء الخلفي من الشقة حيث غرفة نومي وغرفة "فوفو"، والحمَّام، ومكتبي. خلعتُ ثيابي أمام مرآة الحمام واستحممتُ.

ندمتُ لأنني وضعتُ تي شيرت بطوط في سلة الغسيل هذا الصباح. لذا ارتديتُ فستانًا عليه أزهار وغطيت كتفي بفوطة لتمتص قطرات الماء المتساقطة من شعري.

ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة الأمامية لأشاهد التليفزيون. لو أنني لم أذهب إلى غرفة المعيشة ودخلتُ بدلًا منها إلى غرفة نومي وعددتُ الخراف في ذهني حتى أنام، لما أيقظني هذا الرجل المسكين. لكان غادر ببساطة وما حدث هذا الاجتماع. لكنني ذهبتُ لغرفة المعيشة.

الضوء الساطع من ردهة المدخل جعل غرفة المعيشة تبدو مظلمة، فلم أرَ الرجل الجالس على المقعد الكبير. يرى الناس عادة ما يتوقعون رؤيته. على كلٍّ، عندما أضأتُ الأباجورة الواقفة بين الأريكة والمقعد الكبير رأيته بوضوح. كان أمام وجهي مباشرةً.

أول ما خطر ببالي هو: "هل سيختفي إن أغمضتُ عينيَّ؟". حقيقة أن "ماسوت مومكو" يجلس في غرفة معيشتي كانت أغرب من الخيال.

كان يجلس في مقعدي، ويبدو أكثر إبهارًا من صورته في جريدة الصباح. كان مبهرًا وأنيقًا. يرتدي بذلةً كتانية لونها أزرق، وقميصًا بنفسجيًّا، وحذاءً جلديًّا خفيفًا أسود اللون. شعره أسود قصير، وشفتاه ممتلئتان، ولديه ثقةٌ بذاته نابعةٌ من قُدرته على بثِّ الاحترام المرعب في قلوب من حوله. عليَّ الاعتراف أنه منذ عشرة أعوام كنتُ أجد أمثاله من الرجال الذين يملؤون المكان بحضورهم وكبريائهم في غاية الجاذبية. لكن في السنوات الأخيرة عندما زادت التجاعيد حول عينيَّ بدأتُ أبحث عن صفاتٍ مختلفة في الرجال. ربما يرجع السبب إلى حكمة التقدم في العمر أو ما شابَه. أنا واثقة أنكم تعرفون ما أقصده، يا قرائي الأعزاء.

من الواضح أنه خَشيَ أن أصرخ فزعًا. لذا أزعج "ماسوت مومكو" نفسه بالنهوض وأشار نحو الكنبة قائلًا لي:

- تفضلي بالجلوس.

لم أكن معتادةً أن يُضيِّفَني أحدٌ في منزلي، وبسبب ارتباكي قلتُ تعليقًا سخيفًا:

- يبدو أن مَن يصل أولًا يحصل على المقعد الكبير هذا المساء.

سحبت الفوطة التي وضعتها على كتفيَّ لتمتص قطرات الماء من شعري، ووضعتها على مسند الأريكة. كنتُ أحاول الحفاظ على رباطة جأشي، على الرغم

من أن شعري يبدو كما لو لعقته قطة. تفحَّصني "ماسوت" بتمعن بدءًا من كتفيَّ ثم صدري الذي بلا صدرية تحت فستاني، ونزولًا إلى أظفار قدميَّ المطلية. أخيرًا، أمال رأسه إلى الجانب مظهرًا سروره وإعجابه بما رآه.

قرأتُ مقالةً مؤخرًا تقول إنه في الإسلام يُعد البيت مكانًا مقدسًا وله حرمته. مثلًا في إيران، كانت قوات الثورة تفتش البيوت التي شهدت جريمة قتلٍ فقط، لأن هذه البيوت فقدت حرمتها هكذا، لذا فهم مسموح لهم بتفتيشها. من الواضح أن "ماسوت" لا يعرفُ شيئًا عن حرمة البيوت في الإسلام.

سألته:

- كيف فتحت الباب؟

- رجالي فتحوه.

لم يكن من النوع الذي يسمح للتفاصيل الصغيرة بإزعاجه. شعرتُ بذلك من قبل أن ينطق بحرفٍ واحد.

تساءلتُ حتى إن كان رجال "مومكو" من جعلوا مكان الركن أمام منزلي خاليًا.

قال:

- لم نجد طفَّاية للسجائر.

من الواضح أنه أراد للأمر أن يكون معروفًا. فإن لم يجدوا منفضة سجائر هذا يعني أنهم لم يدخِّنوا. ربما دخنوا وسحقوا السجائر في سجادتي التركية الثمينة والجميلة. لكن مشكلتي الآن هي وجود شخصٍ آخر في الشقة. ولكن الأهم الآن، ليس القلق حول سجادتي. هناك شخصٌ آخر في مكانٍ ما في النصف المظلم من غرفة الجلوس.

صممتُ على البقاء هادئة بأي ثمن، وقلتُ بصوتٍ مسموع للجهة الأخرى من الغرفة:

- هناك طفاية سجائر بجوار الحوض في المطبخ.

لم يتحرك أحد.

نلت كفايتي ولست مستعدةً لتحمُّل المزيد، لذا سألتُ بصوتٍ عالٍ:

- سأشرب بعض الويسكي. أتريد البعض؟

قال "ماسوت مومكو":

- بالثلج.

لم ينطق الشخص الآخر.

عدتُ من المطبخ ومعي كأسين ويسكي بالثلج وأخرى بالثلج والصودا، ومنفضة سجائر. وجدت "ماسوت مومكو" جالسًا بأريحية على مقعدي وواضعًا ساقًا فوق الأخرى. ما زلتُ لا أرى الشخص الآخر، سواءً أكان رجلٍ أم امرأة.

قال:

- أنتِ من اتصل بي، أليس كذلك؟

- نعم.

كان يشير إلى مكالمتي من غرفة "بيترا".

- أعرِفُ أيضًا أنكِ قابلتِ "عليًّ" اليوم.

كان يقصد حبيب "فوفو" السابق.

- نعم.

- أدرك أنكِ تحدثتِ إلى أحد أفراد العشيرة البارحة.

- مَن؟ إلى مَنْ تحدثت؟

هذه المرة لم أفهم حقًا.

- أحد أفراد عشيرتنا. ما اسمه؟ إنه يعمل صحفيًا.

إنه يقصد صحفي الحوادث الذي قابلته البارحة. قلتُ وأنا أتذكّر كتابته لاسمي ورقمي على ظهر علبة السجائر:

- الآن عرفتُ مَن تقصد. نعم، قابلته.

رفع كأسه وقال قبل أن يشرب الويسكي:

- لتكن أفضل أيامنا كهذه الويسكي.

- ليس بالنسبة إليَّ.

بعيدًا عن إيجادي مكانًا للركن أمام المنزل، لم يحدث لي شيء جيد اليوم. تساءلتُ إن كان يجب عليَّ إخبار الشخص الآخر أن يأتي ويأخذ كأسه، لكنني قررتُ ألا أفعل. إن أراد أن يشربه سيأتي.

شعر "ماسوت" بالإهانة، يا له من شخصٍ حسَّاس!

- ما كان علينا دخول منزلك هكذا. أنتِ ضيفة في بلادنا، وما فعلناه غير مقبول. نشعر بالحرج مِن فعلتنا. لكن لا يمكننا القدوم بالنهار ورن جرس الباب أو زيارتك في المكتبة لشراء كتاب. سيضحك الجميع علينا. ولا تسيئي فهمي حين أقول إن هذا ليس مناسبًا لكِ أيضًا. تلك أفضل طريقة.

ربما كان مُحقًّا. على الأرجح ليس مناسبًا لي أن يراني الناس برفقة زعيم عصابةٍ بعد أن رأوني برفقة شرطي. على أي حال، من غير المرجح أن يكون ذلك المختفين في ظلام غرفة المعيشة قد قرؤوا مذكراتي في أثناء انتظارهم، بما أنهم - توفيرًا للمال - ظلوا جالسين في الظلام دون حتى إشعال النور.

قلتُ دون أي تلميحٍ إلى أنني امرأةٌ قوية اعتادت المخاطر:

- حسنًا، سنفترض أن تلك كانت أفضل وسيلة لمقابلتي، لكن لماذا أردتَ مقابلتي؟

- لماذا تتدخلين بالأمر؟

- أي أمر؟

- جريمة القتل تلك.

- لأجد القاتل، هذا هو السبب.

- إيجاد القتلة هو عمل الشرطة. كل هذا ليس في صالحك. قد تصبحين هدفًا لرصاصةٍ طائشة، قد يحدث أي شيء. لا تسيئي فهمي. لقد شربنا معًا، لن يصيبك أذى بسببنا. أقسم أننا لن نؤذي امرأةً أبدًا، لكنك لا تعرفين أبدًا ما قد يحدث في هذا العالم.

استجمعتُ شجاعتي بعدما سمعت ما قاله وانهلتُ عليه بوابلٍ من الأسئلة:

- إذًا، هل تظن أن شخصًا ما من "هذا العالم" وراء جريمة القتل هذه؟ أم أن "مولر" قد قُتِل لتصفية بعض الحسابات؟

قال:

- مَن كان؟ ولماذا فعل ما فعل؟ لا نعرف ذلك أيضًا. قد يكون أحد أعدائنا، قد يكون شخصًا ما يحاول التدخل في جماعتنا. لدينا الكثير من الأعداء حول العالم. الكثير لم يرغبوا بإطلاق سراحنا، وأرادوا استمرار سجننا. قد يكون أي شخص. لن يهدأ بالنا حتى يتم إيجاد القاتل.

صار أكثر توترًا، ووضع يده اليمنى في جيبه ليخرج خيطًا به حبات كهرمانية يحركها للتخلص من القلق تسمى "مسبحة القلق" و"خرز القلق".

سألت:

- أتقصدُ حتى تجد الشرطة القاتل؟

إمَّا أنه لم يفهم كلامي أو أنه تجاهَلَ ما قلتُ. استمرَّ يُداعب حبات الكهرمان بأصابعَ رشيقة.

- نحن نبحث عن القاتل أيضًا. أيًا كان، فهو لم يقتل الرجل ليصنع لنا معروفًا. انظري، من تظنين أول من فكرت به الشرطة؟ نحن. هل فكر أي شخصٍ لماذا قد نرغب بقتل مخرج فيلمٍ مِن إنتاجنا؟ أنحن أغبياء حتى نحضر

الرجل من ألمانيا ثم نقتله هنا؟ هل قصُرت أذرعنا أو ما شابَه؟ مَن تظنيننا؟ كنا نستطيع قتله في ألمانيا، صحيح؟

هذه وجهة نظر بالطبع.

سألته متجاهلةً أو محاولة تجاهُل كل هذا الحديث عن القتل والتحريض على القتل:

- لماذا دخلتَ في مجال الأفلام؟

لأن زوج أختي "ياقوت" رغب بذلك، ونحن قلنا إنه يمكنه تولي الأمر.

إذًا أخيرًا وصلنا إلى "يوسف"، زوج الأخت الذي تم ذكره كثيرًا في الأيام الماضية. لكن أولًا، هناك شيء آخر أردت فهمه. سألته وأنا مستعدةٌ للاستمتاع بلعبة القط والفأر حتى أفهم:

- حين تقول "نحن"، مَن تقصد؟

- نحن؟

- حسنًا، أنتَ تواصل قول أشياء مثل "نحن قلنا إنه يمكنه تولي الأمر". مَن تقصد بـ"نحن"؟

أبقيتُ عينيَّ مركزتين على الظلام.

لوَّح "ماسوت" بيده ووضعها على صدره قائلًا:

- حسنًا، نحن.

- هاه!

كان يستخدم صيغة الجمع للحديث عن نفسه! بينما يخاطبني بصيغة المفرد المخاطب "أنتِ"، كان يتحدث عن نفسه بـ"نحن"! إنه أسلوب اللورد الإقطاعي حين يخاطب القرويين ليميز نفسه عنهم.

صببتُ المزيد من الويسكي في كأسي، وسكبتُ نصفه على ترابيزة القهوة. أخذتُ رشفةً كبيرة وذكَّرته بأين وصلنا ليكمل حديثه.

- قلتَ إنك دخلت هذا المجال من أجل زوج "ياقوت".

قلتها مباشرةً. لم أعد مستعدةً للمزيد من الرسميات.

- زوج "ياقوت"...؟!

توقف وهلةً بتساؤل وكأنه يحاول تذكُّر اسمه.

- هاه! "يوسف"! "يوسف"! زوج "ياقوت" أسلم وسمَّى نفسه "يوسف". اسمه الحقيقي هو "جيرمان".

حين قال اسم "جيرمان" تذكر أنني ألمانية. فتفحصني من قمة رأسي حتى قدمي مجددًا.

- أنتِ ألمانية، لكنكِ تتحدثين التركية بطلاقة.

أعترف أن "ماسوت" بدأ يعجبني تدريجيًا بعد قوله هذا.

- لم يتمكن "يوسف" من تعلمها للأسف. في الواقع هو و"ياقوت" دومًا يتحدثان الألمانية في البيت. نظل نخبرها "عليكِ أن تعلمي الرجل التركية". لكن بلا فائدة، فشقيقتنا تُجيد الألمانية والفرنسية. أخونا الأكبر "ماكسوت" - باركه الله - هو شخص مُتحرِّر. قال: "سأعلم تلك الفتاة". لا خطأ في ذلك، صحيح؟

- الدراسة أكثر أهمية للفتيات.

هذا ما يقوله العامل الذي يعمل عند مصفف الشعر الخاص بي ذو السادسة عشر عامًا كلما ذهبت لتصفيف شعري. إنه يفخر بكونه يعمل ليعلم شقيقاته.

وافقني الرأي قائلًا:

- بالطبع إنه أكثر أهمية. الرجال يكدحون بالعمل الشاق لكسب لقمة العيش، إذًا ماذا تفعل الفتيات؟ هل يصبحن... أعذريني، لكن هل يصبحن عاهرات؟

بعد كل تلك السنوات عرفت ما يقصده مصفف شعري حين يقول "آنستي، من الأكثر أهميةً للفتيات أن يذهبن للمدرسة".

يا لغرابة أفكار الأتراك والأكراد!

قال:

- لدينا أملاك. أشقاؤنا لا يعتمدون على أي شخص. لكنك لا تعلمين أبدًا ماذا يخبئ القدر. عليكِ النظر للمستقبل ولا تعتمدي أبدًا على الماضي.

اكتفيتُ من فلسفات المقاهي. قلتُ وأنا أحاول العودة للموضوع الأصلي:

- "يوسف"..

سألني بدهشةٍ:

- "يوسف"؟

من الواضح أنه ظن أننا انتهينا من الموضوع. ألا يمكن أن يتحدث المرء إلى أحدٍ ما عن الشخص نفسه سبع أو عشر دقائق؟

تذكَّر إلى أين وصلنا وأكمل:

- لدى "يوسف" أعمال تجارية في ألمانيا. حين أتى هنا... حسنًا، عَجَزَ عن تعلم اللغة، لذا ماذا يمكن للفتى أن يفعل؟ لم نُرِده أن يعمل مع "ياقوت". لا يمكنكِ أن تجعلي رجلًا يعمل مع زوجته. لن ينتهي العمل أبدًا. لذا، عرضنا القيام بعملٍ مشترك مع الألمان. بالطبع يجب أن يتناسب العمل مع "يوسف". يجيد الفتى عزف البيانو وهكذا. أكنتِ تعرفين هذا؟ إنه مهتمٌّ بالفنون. إنه مَن اقترح عمل إنتاج الأفلام، ونحن قَبِلنا. لو فقط عرفنا ما كان سيحدث!

هَزَّ رأسه باشمئزاز وهو يضيف:

- الكوارث تحدث عندما لا تتوقعينها.

- لا أعرف إن كنت قد لاحظت، لكن هناك أمرًا غريبًا في هذا المجال. مؤلف الكتاب المبني عليه الفيلم هو كاتبٌ مشهورٌ للغاية. الكتاب موجودٌ باستمرار على قائمة الأعلى مبيعًا، إنه رائجٌ للغاية وتمت ترجمته إلى أكثر من ثلاثين لغة. لكن المخرج.. أعني المخرج السابق "كيرت مولر"، هو مخرجٌ سينمائي من الدرجة الرابعة، ولم يصنع فيلمًا محترمًا. كان رجل أعمالٍ جيدًا. هذا ما أزعجني من البداية. لمَ أُختيرَ "كيرت مولر" ليكون المخرج؟

- هذا ما كان. كان مشهورًا للغاية. محامينا "علي"، قال ذلك. حتمًا تعرفين ذلك أيضًا، لأننا تحدثنا إليه هذا المساء. سألنا "يوسف" عن "مولر"، لكننا لم نتدخل بعد ذلك. سافر "يوسف" إلى ألمانيا ذهابًا وإيابًا ليرتِّب الاتفاقات. أعمالنا كثيرة ووقتنا قليل. لا يمكننا عمل كل شيء، لذا تركنا الأمر لـ"يوسف". لا علاقة لنا بالأمر.

- حسنًا، لكن ماذا قال "يوسف"؟ لمَ هذا السيناريو ولمَ ذاك المخرج؟

- دخلنا مجال العمل هذا بسبب ذلك الفتى الإيطالي. شركة الإنتاج الألمانية اشترت الفيلم وكانت تبحث عن شريكٍ تركي.

- أتعني أنهم اشتروا حقوق إنتاج الفيلم؟

- نعم، نعم، ما يشابه ذلك. ظن "يوسف" أنها بدايةٌ جيدة لشركتنا. لم يكن ذلك المخرج قد ظهر بعد في الاتفاق. نحن لا نعرف حقًا أي شيء عن هذا، عليكِ التحدث إلى "يوسف".

ثم أمال رأسه إلى كتفه اليسرى ثم إلى يساره، وكأنه يتساءل: لماذا قال كل ذلك؟

- لقد نسيت كيف وصلنا لهذا الحديث.

لاحظتُ من قبل أنه حين يحدثني الناس وخاصة الرجال، ينفتحون ويقولون أكثر مما يجب عليهم قوله، كل الأمور التي لا ينبغي عليهم قولها،

لكن هذه المرة تفوقتُ على نفسي. كل رجلٍ يدخل غرفة جلوسي ينتهي به الأمر بالثرثرة كما لو كان سيغني كالعندليب.

قال بعبوس:

- انسي أمر "يوسف" وهوية القاتل. تلك الأمور لا تخصك. اهتمي بشؤونك فقط. نحن لا نريد أن يصيبكِ الضرر أيضًا.

نهضَ ومدَّ يده لأصافحه.

- شكرًا على الويسكي. آسف لإزعاجكِ. لا تترددي في الاتصال بي إن احتجتِ شيئًا.

أخرج بطاقة عمله من جيبه ووضعها في يدي. لم أعرف أن رجال العصابة لديهم بطاقات أعمال.

قال:

- دوِّني رقم تليفوني المحمول. إنه رقمي الخاص. فقط اثنين أو ثلاثة من الرفاق يعرفونه.

أخرج قلم حبرٍ ضخمًا باللون الأسود من جيب سترته وناولني إياه.

بينما يتجه "ماسوت مومكو" للباب قلتُ له:

- أريد مقابلة "يوسف".

استدار إليَّ رافعًا أحد حاجبيه وقال:

- نعم، بالطبع يمكنكِ مقابلته. لكن لا أعرف رأي "ياقوت".

كنا واقفين في مواجهة بعضنا البعض في الردهة حيث ينير الضوء وجهه بالكامل. تفحصني بنظرةٍ ذئبية ونصف ابتسامةٍ لم تنقص من جديته.

تراجعت قليلًا وغطيت فمي بيدي كي لا يشتم رائحة الثوم في أنفاسي. قلت:

- أنا جادة.

هَزَّ كتفيه وقال:

- وكذلك نحن. تعالي إلى منزل الشاطئ الخاص بنا في الصباح، وسنتحدث هناك. ستتمكنين من رؤية "يوسف" وسنتمكن نحن من رؤيتكِ.

بينما يستدير نحو السلالم همست خلفه:

- في أي وقت؟ وأين منزل الشاطئ الخاص بكم؟ كيف سأجده؟

قال أخيرًا:

- سنرسل الرجال لإحضاركِ. لا تقلقي بشأن شيء. لا تقلقي، يا عزيزتي.

ثم اختفى نازلًا السلالم.

بعدما غادر "ماسوت مومكو"، لم أحاول حتى الذهاب للفراش. سيجافيني النوم على أي حال. راقبتُ الثلج وهو يذوب في الكأس وسكبت لنفسي المزيد من الويسكي. حتى لو عجزت عن اكتشاف القاتل، لن يجرؤ أحد على القول إنني أضعتُ وقتي سدى بعد الإعجاب الهائل الذي تلقيته من الشرطة والمافيا على مدار الأسبوع السابق. فبدلًا من أن تتمسح القطط في ساقي ترحيبًا بعودتي إلى المنزل، مثل معظم السيدات العزباوات في "جيهانجير"، أجد زعيم عصابة ورجاله بانتظاري في غرفة الجلوس. لكن، لو نظرنا إلى الموضوع بطريقة أخرى، سنجد أن موقفي أفضل من تلك السيدات. فأي امرأة تلك التي قد تفضل قطًّا على رجل؟ بالطبع أنا لا أتحدث عن أي رجلٍ هنا، فليس من المعقول أن أفضِّلَ عالم بيئة ألمانيًا شاحب البشرة وأصلع على قِطٍّ.

على الرغم من الحبَّات المنومة، تمكنتُ من النوم حتى الفجر فقط.

أيقظني جرس الباب.

فتحتُ عينًا ورأيتُ أن المنبِّه يشير إلى العاشرة وخمسين دقيقة. أيًا كان من بالباب فهو قد لصق إصبعه على الجرس ليجلعه يرنُّ بلا توقف. استجمعت

كامل إرادتي وتمكنتُ من النهوض من السرير. اتجهتُ إلى الباب ونظرتُ من نافذة غرفة الجلوس لأعرف مَن كان. إنه رجلٌ لا أعرفه. صحتُ قائلة:

- ماذا تريد؟

- آنسة "كاتي"؟

- أنا هي.

- أرسلني السيد "مومكو" لإحضارك. إنه بانتظاركِ.

قلت لنفسي "رائع"، وكأنني خططت للنهوض باكرًا لأستعد. مجددًا، كنت قد أطفأت المنبه على أمل النوم لوقتٍ متأخر.

صحت قائلة:

- انتظر لحظة؟ أنا قادمة.

دون إضاعة المزيد من الوقت، ركضتُ إلى غرفة نومي مباشرةً. الركض في الشقة يوفِّر الكثير من الوقت. فقبل كل شيء، مساحة شقتي تساوي أربعة أضعاف مساحة الشقق في ألمانيا.

استغرقتُ عشر دقائق لأقرر ماذا سأرتدي، ومثلها تقريبًا لعمل زينتي. بحلول الوقت الذي انتهيتُ فيه، ظننت أن الرجل قد ملَّ الانتظار ورحل. لكنني كنت مخطئة. لا بد أن السائق قد مَرَّ باختبار تحمُلٍ شاق نتيجة انتظاره خارج صالونات تصفيف الشعر الخاصة بالنساء في حياة "ماسوت مومكو". فالرجل لم يبدُ منزعجًا لانتظاره عشرين دقيقةً في وسط الشارع. بكل أدبٍ فتح لي الباب الخلفي لسيَّارة "جاجوار" جديدةٍ كانت واقفةً أمام مسكني. بدا أدبه غريبًا مع جسده الضخم ووجهه الذي يحمل ندبةً من خده الأيسر إلى حاجبه.

يوجد داخل السيَّارة هناك مشغِّل أسطوانات باهظ الثمن كما هو واضحٌ من جودة صوته. وكان يردد أغنيةً شعبية:

"فكري ثانيةً، فكري مجددًا،

أما من نهايةٍ لهذا الألم؟

و و و و و و و و

دعيني أنظر في عينيكِ،

هل أرى حبًا، أم هي أكاذيب؟

دعيني أخبركِ، نعم أم لا".

قبل تشغيل المحرك، صاح لأسمعه:

- هل تزعجكِ الموسيقى، يا آنستي؟

صحتُ بدوري ليسمعني:

- ربما يمكنك أن تخفض الصوت قليلًا.

لا أحاديث أخرى. تخطينا بعض الحراس الواقفين عند البوابة الخارجية المذهلة لفيلته في حي "يني كوي"، وقدنا حتى توقفنا في الحديقة. أسرعتُ بالخروج من السيَّارة دون انتظار السائق ليفتح الباب لي. كانت هناك امرأةٌ واقفة على السُلَّم المُؤدِّي إلى المنزل. كانت ترتدي زي الخادمات المكون من جيبةٍ بيضاء وقميصٍ أبيض. رأتني حين خرجتُ من السيَّارة، فنزلت السُلَّم نحوي مثل طائرٍ صغير وتحدثت التركية بلكنةٍ ثقيلةٍ غير مفهومةٍ تقريبًا:

- أهلًا وسهلًا، آنسة "كاتي". السيد "مومكو" ينتظرك.

بعيدًا عن لكنتها، كان واضحًا كالشمس أنها آتية من أطراف روسيا أو البلقان لتعمل في إسطنبول. مع ذلك لم تكن لغتها التركية تُشبه اللغة السلوفينية، بل تشبه أكثر... لا أعرف بماذا تذكرني.

- أين السيد "مومكو"؟

أشارت إلى الباب أعلى السُلَّم قائلة:

- تفضلي.

أثناء صعودي السُلَّم الرخامي، أمعنتُ النظر في كل ما حولي. هناك رجلٌ يقف حارسًا عند كل ركنٍ في الحديقة. مما يجعل كشك الحراسة عند الباب الأمامي غير ضروري. تساءلت: أيكون المنزل القريب الذي يسكنه رئيس الوزراء السابق "تانسو تشيلار" مشدد الحراسة هكذا؟

حين دخلنا من الباب الأمامي رفعت الخادمة يدها اليمنى وقالت:

- مِن هنا، يا سيدتي، تفضلي.

فكرتُ في أنها قد حفظت خمس أو ست كلماتٍ من التركية لترشد زوَّار المنزل. فالشخص القادر على بناء جملةٍ بأي لغة لن يتحدث أبدًا بتلك اللكنة الغريبة. نحَّيت السؤال الذي دار بعقلي بأي لغةٍ تتواصل بها مع "ماسوت" ورجاله وتبعتها.

غرفة الجلوس التي دخلناها جعلت من شقتي - التي أفتخر بحجمها - تبدو أشبه بمطبخ كوخٍ صغير. لم أستطع سوى التعجب:

- واو!

- استثنائي، صحيح؟

من المثير أن المرأة التي حفظت نصف دستة كلمات تعرف كلمة "استثنائي".

قلتُ بسرعة:

- إنه بالفعل استثنائي. أنت تعيشين في جنة الفردوس. النظر إلى البوسفور هكذا يطيل العمر سنوات. وكلما عشتِ هنا، زادت سعادتك.

قلتُ تلك التعليقات السخيفة لأختبر بصراحةٍ إن كانت تفهم كلامي أم لا.

قالت وقد فهمت بوضوحٍ كل كلمة:

- أنا هنا منذ عامين، يا سيدتي.

سألتها:

- عامين هنا؟ لكنك عشتِ في تركيا قبل ذلك، أليس كذلك؟

الطريقة التي قلت بها الجملة الأخيرة لا يمكن أن يفهمها شخصٌ عاش في تركيا عامين فقط.

أجابت:

- لا، لقد أتيتُ من بلغاريا، وهذه هي وظيفتي الأولى هنا.

سألتُ باستمتاعٍ وحسد:

- حسنًا، لكن أين تعلمتِ التركية؟

- أنا أتحدث التركية مع العاملين هنا. تعلمتها بمرور الوقت.

أجابت بسهولةٍ وكأنه من الطبيعي أن تتعلم اللغة بالسمع. لكنها كانت مهذبةً بما يكفي لتضيف:

- لكن التركية لغةٌ صعبةٌ بحق.

أدركتُ أن الكلمات القليلة التي قالتها المرأة لم تكن بلكنةٍ سلوفينية، لكن بلكنة الأكراد الذين علموها التركية. صديقي "مدحت" من مدينة "هاكاري"، يقول إن أشد اللكنات المحلية ثقلًا عند النطق موجودة لدى الأكراد الذين يعيشون في المدن التي يسكنها عددٌ كبير من الأتراك المحليين، مثل "ديار بكر"، حيث يتعلمون التركية في الشوارع مثل الأطفال. أمّا أكراد "هاكاري" فيتعلمون التركية دون أي لكنات، لأنهم يذهبون إلى مدارس محلية يحضرها تلاميذ الطبقة المتوسطة من موظفي الحكومة الأتراك الذين يتم تعيينهم في المنطقة. من الواضح أن معظم الأكراد في المنزل أتوا من "ديار بكر" أو ضواحيها.

قات المرأة:

- تفضّلي بالجلوس، وسأبلغ السيد "مومكو" بحضورك.

سألتها إن كان يمكنني الانتظار في البلكون قبل أن تسير مبتعدةً برشاقةٍ مدهشة.

كنت أتأملُّ الشاطئ المقابل عندما دخل "ماسوت". كانت يرتدي روبًا أبيض. قال:

- وجودك هنا شرفٌ بالتأكيد.

أشعل سيجارًا وهَزَّ يديه ثم قال:

- سنرتدي ثيابنا ونعود إليكِ. نحن معتادون السباحة فور استيقاظنا، صيفًا أو شتاءً لا يهم الطقس. هذا بالطبع إن لم نكن في السجن.

ضحك بصوتٍ عالٍ، وضحكت أنا أيضًا بشدةٍ. في هذا العالم، لا يمكن للمرء أبدًا أن يكون واثقًا بما سيحدث أو لماذا.

- هل تناولتِ فطوركِ؟

هززتُ رأسي نفيًا.

- جيد، سنتناوله معًا. سنطلب منهم تحضيره. لكن هذه الجهة مشمسة، لذا علينا الدوران للجهة الأخرى.

ابتعد وأصدرَ أوامر للرجلين الذين يتبعانه بأي مكانٍ كظِلّه. من الواضح أن "ماسوت" وأنا لدينا نمط الحياة نفسه. كلانا يستيقظ في الظهيرة.

في اللحظة التي لاح فيها هذا الخاطر بعقلي، قفزت من مقعدي وتذكرت المكتبة! ماذا عن المكتبة؟ لقد نسيتُ الاتصال بـ"بيلين". دفعتُ المقعد الحديدي بصعوبةٍ وخرجتُ إلى غرفة الجلوس حين ظهر أمامي رجلٌ ضخم قوي البنية وسد طريقي فجأة.

- نعم، يا سيدتي؟

قلتُ بارتباك:

- أنا... أنا أريد استخدام التليفون... أو أردتُ ذلك...

يبدو أنني تحت المراقبة.

قال:

- اجلسي من فضلك، وسأحضر لكِ التليفون، يا سيدتي.

استدرتُ وجلستُ. كان هناك تناقضٌ غريب بين هؤلاء الأتباع الضخام وبين المنزل المفروش بأناقة وخدمه وتحفه الأثرية. بالطبع "ماسوت" نفسه كان رجل التناقضات، لكن هذا يفوق الحد. تساءلت: هل أمرَ "ماسوت" أتباعَه بمراقبتي؟ هؤلاء الرجال لا يبدون كمن يقررون لأنفسهم ما عليهم فعله. حتى لو لم يكن "ماسوت" من أمره بمراقبتي مباشرةً، فلا بد أن شخصًا ذا سلطةٍ أمره بذلك. ماذا يظنون؟ أيظنون أنني سأهرب بفضيات العائلة؟!

مَضَت لحظة قبل عودة الرجل الأشقر ليقف إلى جواري حاملًا تليفونًا لاسلكيًّا. قلت له:

- يمكنك الانصراف.

- تفضَّلي بالاتصال.

اتصلتُ بـ"بيلين" والحارس يقف إلى جواري. أعترفُ أنني فكرتُ بعمل محادثةٍ طويلة مع صديقتي "سيندي" التي تعيش في أستراليا كنوعٍ من الانتقام. لماذا يصر هذا الرجل على الوقوف بجانبي مباشرةً هكذا؟

ظهر "ماسوت" عند الباب الذي يوصل غرفة الجلوس بالبلكون. كان يرتدي بنطلونًا من الكتَّان باللون البني الفاتح، وقميصًا مخططًا بالأبيض والأرجواني المُحْمَر. حين رأيته تنفستُ الصعداء لأنني سأتخلص من الحارس الملتصق بجانبي. لو قال لي أحدٌ قبل أربعٍ وعشرين ساعة إنني سأرتاح لرؤية "ماسوت" أمامي، لقلت له: "أنتَ مجنون". الحياة مليئةٌ بالمفاجآت حتمًا.

قال وهو يقودني بيدٍ واحدة حول خصري:

- لنذهب للجهة الأخرى. "يوسف" قادمٌ أيضًا، لقد أرسلنا في طلبه. يمكنكِ سؤاله عمّا ترغبين.

طريقته في الحديث توحي بأنه معتادٌ تلبية كل طلبات المرأة، وليس فقط طلبات التسوُّق كمعاطف الفراء. بينما يتحدث انزلقت يده إلى ما تحت خصري بقليل. ثم أضاف:

- لكن أولًا، عديني أنكِ لن تعرِّضي نفسكِ لأي خطر.

قلتُ بسعادة:

- أعدُك. لن أعرِّض نفسي لأي خطر.

حتى أمي لم تُظهِر هذا القدر من الاهتمام بسلامتي.

حين وصل "يوسف" كنا نمسح فمينا بمناديل الطعام المنشاة عندما انتهينا من فطورنا وبصحبتنا أربعة حراس يديرون ظهورهم إلينا ويبدون كما لو أنهم يحدِّقون باستمرارٍ إلى نقطةٍ بعيدةٍ في الأفق. انحنينا في تحية لبعضنا البعض كما تفعل شعوب الشرق الأقصى. سأل "يوسف" عن أحوال "ماسوت" بالإنجليزية. أشار "ماسوت" بيده بمعنى أنه لا وقت لديه للمجاملات ثم أشار إليَّ.

قال بالإنجليزية ليقدمني:

- صديقتي العزيزة "كاتي".

هؤلاء الأتراك والأكراد وكل سكان تركيا ينادون الناس سريعًا بـ"عزيزي" أو "عزيزتي". واصل كلامه:

- إنها تريد سؤالك بعض الأسئلة عن الأفلام.

وقف بينما يتكلم وانزلقت يده عن ظهري، ثم اختفى مع أتباعه الأربعة المخلصين.

جلستُ و"يوسف" وهلةً ننظر لبعضنا البعض عبر مائدة الطعام المغطاة بالفطور المتبقي والأطباق نصف الفارغة.

- إذًا أنتِ ألمانية، صحيح؟ هناك الكثير من الألمان الذين يعيشون في تركيا. مثل أصحاب المعاشات في مدينة "ألانيا" الساحلية وهكذا... هناك ما يربو على الخمسين ألف منّا. ليس بكثرة من في جزيرة "مايوركا"، لكننا ما زلنا كثر.

وضع قطعةً من الجبن الأبيض في فمه، ثم سألني والجبن لا يزال في فمه:

- لمَ تهتمين بفيلمنا؟

ألا يتعلم الناس وهم أطفال ألا يتحدثوا وفي فمهم طعام، حبًا بالله؟ لم يكن منظرًا جميلًا.

- ليس الفيلم، أنا مهتمةٌ بجريمة القتل.

- في تلك الحالة، لمَ تهتمين بجريمة القتل؟ أظنكِ لا تمانعين سؤالي.

كل مَن قابلته سألني هذا السؤال، وما زلتُ لم أجد إجابةً مُرضِية. أعطيته الجواب السخيف نفسه الذي قلته من قبل:

- صديقتي "بيترا فوجل" تورطت بشكلٍ ما في الجريمة. على الأقل لم تكن متورطةً تمامًا، لكنها تأثرت بها. جميعنا نودُّ معرفة القاتل بأقصى سرعةٍ بالطبع.

- نعم، بالطبع. انظري لما حدث لشقيق زوجتي، ودون سببٍ منطقي على الإطلاق. هذا كله بسببي.

لسببٍ ما أظن أن لهذا الرجل مشكلات أخرى بغض النظر عن عجزه عن تعلُّم التركية.

- لماذا دخلتَ في عمل الأفلام؟

- أحببتُ الفكرة، هذا هو السبب. على أي حال، كان عليَّ القيام بعملٍ ما في النهاية. فأنا صغيرٌ على التقاعد.

- هذا ليس ما أقصده. لمَ هذا الفيلم بالذات؟

- شركاؤنا الألمان - شركة "فينيكس" للإنتاج السينمائي - اشتروا الحقوق السينمائية لكتاب "دونيتي" بعد صدوره بقليل. كان حال شركة الإنتاج جيدًا في ذلك الوقت. لكن، بحلول الوقت الذي بدأتُ تعاملي معهم عن طريق صديق، ساءت أحوالهم المالية. وأما هم فقد كان هذا المشروع هو بداية لاستعادة نشاطهم، بينما لنا كان أول خطوةٍ حقيقية في سوق العمل. لدينا ما يكفي من المال لإنتاج الفيلم، ولديهم الخبرة الكافية لإضافتها إلى الإنتاج الجيد. مزيجٌ لا بأس به، صحيح؟

- أنا فقط لا أفهم لماذا اخترتم رجلًا مثل "كيرت مولر"؟ خصوصًا أنكم تضعون آمالكم كلها في هذا الفيلم، وأنه سيكون طوقَ نجاة لكم ولشركائكم؟

- لم يُذكر اسم "كيرت مولر" في البداية. كما قلت، كان لدينا كتاب، وكاتب سيناريو، وسيناريو. شريكنا السيد "فرانز" أصرَّ على أن تلعب الآنسة "فوجل" دور البطولة. كان يمكنني التفكير في بطلةٍ أكثر ملاءمة لكن...

لم يكمل جملته.

قلت باستفزاز:

- مَن؟ "توركان سوراي" مثلًا؟

- لمَ لا؟ لقد قرأتِ الكتاب، صحيح؟

رفع يده ولوَّح بها. ظهر فجأة التابع الأشقر الذي كان ملتصقًا بي من قبل.

قال "يوسف":

- قهوة.

اختفى التابع الأشقر. كنتُ أشعر بعدم الراحة تمامًا.

- لم أقرأ الكتاب، لكنني أعرف موضوعه. إنه عن جارية بيعت في مدينة البندقية، وارتفع مقامها حتى صارت سلطانةً في البلاط العثماني.. يتعامل الكتاب مع تلك السيدة وهي في منتصف العمر، إن لم أكن مخطئة.

- بالضبط، وعندما تفكرين في امرأة متوسطة العمر، ستفكرين حتمًا في "توركان سوراي".

- في الواقع "توركان سوراي" تليق بسلطانةٍ كبيرة السن وليست في منتصف العمر.

لستُ معترضةً على الأعين الندية والشفاه المرتجفة للنجمات التركيات المُلقَّبات بـ"سلطانة". لكن واجبي كوني ألمانية هو أن أقول الحقيقة مهما تكن مؤلمة.

- حتى لو لم تكن "توركان سوراي"، إذًا ربما "جولسان بوبيكواغلوا".

نطق اسم السيدة المسكينة بطريقةٍ سيئةٍ للغاية، لكنه يبدو مُلمًّا بنجمات السينما التركية.

عبس وجهه قليلًا وهو يقول:

- لكن "بيترا فوجل" ودور السلطانة... لن تعرفي إلا إذا قرأتِ الكتاب. البطلة هي السلطانة "هاندان" الجارية المفضلة للسلطان "محمد" الثالث ووالدة السلطان "أحمد" الأول. السلطانة "هاندان" يجهلها الكثير من المؤرخين، لكن يزعم "دونيتي" أنها كانت من البندقية، مثل السلطانة "صفية" والدة السلطان "محمد" الثالث. معظم الأحداث تدور حول النزاعات بين "هاندان" و"صفية"، وحول المكائد في البلاط الملكي. حينما تُوِّجَ ابن "هاندان" ليصير السلطان "أحمد" الأول في سن الرابعة عشرة، تمتعتْ بالسلطة ولم تُضِع وقتًا حتى أرسلت السلطانة "صفية" للقصر القديم مع معظم حاشيتها من الحريم. مع ذلك لم تستمتع "هاندان" بمنصبها الجديد وقتًا طويلًا، لأن ابنها مات بعد عامين من اعتلائه

العرش. حياة "هاندان" كانت مأساوية، لأنه حين تُوِّجَ ابنُ "صفية" وصار السلطان "محمد" الثالث في سن التاسعة عشرة أثبت أنه قاتلٌ متحجر القلب، بغض النظر عن كونه من أفضل السلاطين تعليمًا على الإطلاق. وجدت "هاندان" نفسها في صراعٍ مع السلطانة "صفية" والسلطان "محمد" الثالث. وبمجرد أن يظن المشاهد أنها انتصرت في صراعها ذلك، تموت.

أغضبتني كلمة "المشاهد". "يوسف" مندمجٌ حقًّا في مجال صناعة الأفلام هذا. وهو يعرف موضوعه جيدًا. واصل القصة بحماسة:

- نعم، السلطانة "هاندان" لم تكن سيدة شرقية، لكنها عرفت الكثير عن مكائد البلاط.. لقد سمعتِ عن مصطلح "المكيدة البيزنطية". يعتقد المؤرخون أن البلاط العثماني تبنَّى المكائد البيزنطية نفسها. لقد تصرفوا تمامًا بالطريقة نفسها التي تصرف بها البيزنطيون، أو ما تحبين دعوتهم به: بيزنطيون، رومان، شعوب البحر المتوسط. اختاري ما تريدين، لكن السلطانة "هاندان" لم تكن ألمانية، وهو ليس عالمًا يمكن لألمانية إظهاره أو الاندماج معه.

ثم ختم كلامه مضيفًا:

- لم أحبِّذْ قط الآنسة "فوجل" لهذا الدور. "فرانز" هو من أصر.

سألته:

- لحظة واحدة، من "فرانز"؟

- شريكنا. إنه رئيس شركة "فينيكس" للإنتاج السينمائي.

- عذرًا، هناك الكثير من الأسماء لدرجة أنني أواجه صعوبةً في تذكُّرها.

- المطلوب هو ممثلة شرقية، أي تركية... على الرغم من أنه في رأيي، الأتراك ينتمون أكثر لشعوب البحر المتوسط أكثر من انتمائهم للشرق.. على أي حال، إن

ممثلةً تركية في هذا الدور ستكون شرقية للغاية. السلطانة "هاندان" كانت في الأصل من البندقية. لذا ليس عليها أن تتصرف كشرقية أصيلة. أتفهمين كلامي؟

- قد يكون كلامك منطقيًا إلى حدٍّ ما. هذا إن كانت السيدة في الفيلم لا يُفترض بها التصرف وكأنها في بيئتها الطبيعية... لم أقرأ الكتاب لكنني أفهم ما تقصده.

تخيُّل "بيترا" في دور سلطانة كان أصعب من تخيُّل اختفاء تجاعيد عينيّ عندما أستيقظ في الصباح.

أتت خادمة شابة بزيٍ موحد حاملةً فنجانين من القهوة التركية وكوبًا من الماء لكلٍ منا. علَّقتُ قائلة:

- لم أخبركِ كيف أشرب قهوتي.

يا للعار!

- أخبروني أنكِ تشربينها مضبوطة، يا سيدتي. يمكنني صنع أخرى فورًا.

- نعم، افعلي ذلك. أشربها سادة، بلا سكر مطلقًا.

تحدثتُ كسلطانةٍ في بيئةٍ شرقية. أسرعت الخادمة مبتعدةً بالقهوة.

سألني "يوسف":

- كم عامًا عشتِ في تركيا؟

- فترةً طويلة إلى حدٍّ ما. حوالي ثلاثة عشر عامًا.

- يبدو أنكِ تفهمين الأتراك جيدًا.

- المرء يتعلم مع مرور الوقت.

أجبتُ ببساطةٍ وكأنني لا أهتمُّ. نظرته الحاسدة أوحت لي أنه حساسٌ مثلي تجاه تحدُّث التركية. واصلَ ما كان يقوله:

- أصرَّ السيد "فرانز" على "بيترا فوجل" قائلًا إنها الشخص الوحيد الذي يمكنه القيام بهذا الدور. لم أجادله. لا أملك خبرةً مهنية، يفترض أن يكون هذا أول فيلمٍ ليٍّ.

أسند ذقنه على قبضته المضمومة.

قلتُ:

- الأوَّل وليس الأخير. أنا واثقة أنك ستجدُ مخرجًا وتُواصل التصوير. أو بالأحرى عليَّ قول إنك ستبدأ التصوير.

بدأتُ أشعرُ بالشفقة تجاه الرجل المسكين أكثر ممَّا شعرتُ حين سمعتُ أنه تم تطهيره وهو رجلٌ ناضج ليُسلِمَ.

- لقد أنفقنا بالفعل أكثر مما نوينا. جاءت التصاريح متأخرة، احتجنا تصاريحَ خاصة للتصوير في قصر "توبكابي" والحرملك. استغرق الأمر أطول مما توقعنا... المعدات والأزياء... كل شيءٍ احتاج لمال قارون. تكاليف الفندق وحدها كلفتنا ثروة. معظم العاملين في الفيلم أتوا من ألمانيا، حتى عامل الإضاءة لم يكن محليًا. ثم كنا سنشارك في مسابقاتٍ دولية، لكن بسبب جريمة القتل تلك لن يجهز الفيلم في موعده...

قال الجملة الأخيرة وكأن المشكلة لم تكن جريمة قتل بل مجرد بثرةٌ على أنف البطلة لن تمثِّل الفيلم بسببها.

لديَّ ما يكفيني من مشكلات، لذا قاطعته بنفاد صبر:

- أيمكننا العودة لسؤالي؟ حسنًا، إذًا السيد "فرانز" أصرَّ على أن تلعب "بيترا" دور البطولة، لكن ما علاقة "كيرت مولر" بكل هذا؟

هذه المرة أحضرت قهوتي الخادمة البلغارية التي تعلمت تركية "ديار بكر" بالسمع. ابتسمت وشكرتها.

- أخبرني "فرانز" أن الآنسة "فوجل" هي مَن اقترحت "مولر"، قالت إنهما يعملان جيدًا معًا. كان هناك القليل من التفاوض. لم يعترض "فرانز" على "مولر" لأن مساعدته الآنسة "باور" كانت شابة لكن في غاية الكفاءة. على حَدِّ علمي كانت يجب أن تكون المخرج، لكنها شابَّةٌ -كما قلتُ - وتنقصها الخبرة. فكرنا أن إنتاجًا بتلك الضخامة لا يمكن ائتمانها عليه.

من الواضح أن "يوسف" هو من يصرف لكن "فرانز" هو المسيطر.

- ما نوع الأفلام التي أخرجها "مولر" سابقًا؟

- أفلام عادية المستوى. أفلام خيالية ورومانسية وهكذا. إنه ليس سيئًا، لكنه لم يخْرِج أفلامًا مميزة. لديَّ قائمة بالأفلام التي أخرجها، مع شرائطها. سأعطيك إياها. لم يطلب مالًا كثيرًا، وهذه نقطةٌ لصالحه. لذا، فبدلًا من الاستعانة بمخرجٍ باهظ الثمن من الدرجة الأولى، اخترنا أشخاصًا من الدرجة الأولى في كل شيء. جمعنا فريقًا رائعًا. مثلًا معنا الأستاذ "سيردار بارلار"، وهو مؤرخٌ عثماني بجامعة "بوغازاتشي". والآنسة "باور" مخرجةٌ عبقرية.. لم يخطر ببالنا قط أن "مولر" سيفشل.

- هل أخطأتَ فهم الأمر؟ ظننتَ أن الناس تتذكر الفيلم بسبب المخرج؟

- نعم، بالتأكيد هذه فرصة العمر لـ"مولر". لكن كما قلت، لم يكن هناك الكثير ليفعله؟ لدينا سيناريو ولدينا فريق. لو أننا استعنّا بالمخرج الروسي "آيزنشتاين" لما اختلف الأمر. "مولر" كان خبيرًا بما يكفي ليضع اللمسات الأخيرة. لم يكن بذلك السوء.. أعني.. لا، لم يكن بذلك السوء.

- إذًا كما فهمتُ سابقًا، "بيترا" لها الفضل في أن يحصل "مولر" على أعظم مشروعٍ في حياته.

- نعم.

- ألا يجب أن يكون العكس. ألا يختار المخرج النجوم في العادة؟ مثلًا "فاسبيندر" يختار دومًا "هانا شيجولا" في أفلامه.

- إن كانت النجمة مشهورةً بدرجةٍ كافيةٍ يمكنها اختيار المخرج. لا قواعد فيما يخصُّ مَن يختار مَن. افترض السيد "فرانز" أن الآنسة "فوجل" لا تريد أن تطغى شهرة المخرج على شهرتها. في عالم السينما يختلط الناس وعلاقاتهم كثيرًا. من الصعب فهم من يدين بماذا لمن.

- لماذا دخلت في هذا المجال؟

- أخبرتُك أنني احتجتُ شيئًا لفعله، وظننتُ أن إنتاج الأفلام يناسبني. كانت العائلة ستعطيني رأس مالٍ متى بدأت.

عبس ونظر إليَّ وأضاف:

- لماذا؟ أتظنين أن الإنتاج موضة قديمة؟

- لا، لا، هذا ليس ما عنيته. لكن لماذا هذا الفيلم؟ كان يمكنك البدء بأي فيلمٍ آخر.

- من الناحية العملية كان مشروعًا معقولًا. وما زال كذلك.

تدلُّ نبرة صوته على أنه لم يفقد الأمل كليًّا وهو يُكمِل:

- أولًا، شبابيك التذاكر في تركيا مزدحمةٌ للغاية هذه الأيام لأنه - كما تعلمين - هناك اهتمامٌ شديد بالسلطانات وهكذا. الروايات التاريخية دومًا في قائمة الأكثر مبيعًا، وكتاب "دونيتي" كان - وما زال - ضمن الأكثر مبيعًا حول العالم. ظننتُ أن قراءه سيدخلون الفيلم ليقارنوه بالرواية. كما أن إسطنبول صارت موضةً عصرية. أتظنينها محض مصادفة أن الفنانين المشاهير يواصلون الهروب إليها؟

- أظنُّك موهوبًا في الأعمال!

- كنتُ مستشارًا ماليًا في ألمانيا. لا يمكنني القيام بذلك هنا، لكنني أفهم في المال والمشاريع الرابحة.

بما أن مهنة المستشار المالي تعد مرموقةً في ألمانيا، فلا بد أن الانحدار إلى تابعٍ ذليل لعصابة في عملٍ مريبٍ لإنتاج الأفلام كان حقًّا أمرًا مأساويًا لـ"يوسف". مع ذلك لا نية لديَّ في قضاء نهاري أستمع لقصصه الحزينة.

- عذرًا، عليَّ الذهاب إلى الحمام.

لم أتفاجأ حين ظهر التابع الأشقر فور وقوفي. سألني:

- أتحتاجين شيئًا، يا سيدتي؟

إما أنني بدأتُ أطالبه بمزيدٍ من الاحترام أو أن الخادمة عنفته لأنه لم يسألني كيف أحب قهوتي. أظنها الأخيرة.

قلتُ باختصار مباشرةً:

- الحمَّام.

انحنى التابع مشيرًا للأمام مباشرةً بيده اليمنى قائلًا:

- من هذا الطريق، يا سيدتي.

يبدو أن الجميع يستخدمون الإشارات والإيماءات نفسها في هذا البيت.

رافقني حتى باب الحمام. حين خرجتُ، كان يلمِّع إحدى مرايا ردهة المدخل بكُمِّ سترته بينما ينتظرني.

كان "يوسف" يأكل أظفاره ويحدِّق إلى البوسفور حين دخلتُ أنا والتابع.

قال وكأنه يُحدِّث نفسه:

- هذا في غاية السوء. سنضطر للبدء من جديد، وقد ضاع الكثير من المال سدى. لم أحسب خسائرنا بعد لكن... طار المال كالدخان. وسيستمر الحال على هذا المنوال.

قلتُ وأنا أُكرِّر نفسي كأسطوانةٍ مشروخة:

- ما زلتَ تستطيع إتمام الفيلم...

- لقد قمنا بخطواتٍ متقدمة ودفعنا فواتير الفندق... سيكون صعبًا على شركة "فينيكس" المواصلة. لم تكن الأمور مزدهرةً بكل حال، والآن نحن في شُبهة جريمة قتل.

- لا أظن أن عائلة "مومكو" ستفلس بسبب خسارة بعض المال.

انحنيتُ والتقطت حقيبتي البرتقالية الصغيرة من جانب مقعدي. كنتُ واقفةً والتابع ينتظر إلى جواري على الرغم من كوني فظةً معه. سألت "يوسف":

- لمَ هذا الرجل ملتصقٌ بنا؟

هَزَّ كتفيه قائلًا:

- في حال احتجنا إلى أي شيء. إنها تسمى ضيافة. يُفترض بكِ معرفة ذلك بعد قضاء ثلاثة عشر عامًا هنا.

بدا مسرورًا وهو يلقنني درسًا حول العادات والتقاليد المحلية.

قلتُ:

- نحن نعيش في أوساط اجتماعية مختلفة.

لم يدرك أنني كنتُ أستفزُّه.

- الفروق الاجتماعية هنا واضحةٌ للغاية. نحن الألمان يُشبه بعضُنا بعضًا كثيرًا، صحيح؟ أجد الأمر مُربِكًا للغاية.

قلتُ مشيرةً برأسي في موافقة:

- نعم.

كنتُ لا أزال واقفةً في المكان نفسه وقلت بالتركية للتابع:

- سأغادر. أيمكنك إبلاغ السيد "مومكو"؟

قال التابع وهو يُهرع خارج الغرفة:

- انتظري لحظة.

التقطتُ سيجارتي وولاعتي من بين الأطباق، ووضعتهما في حقيبتي، ثم مددتُ يدي لـ"يوسف". قفزَ بانفعال. يبدو أنه لم يفهم ما قلته للتابع. صاح بقلقٍ وتوتر:

- أستغادرين؟ لا يمكنكِ حتى يأتي شقيق زوجتي.

قلتُ:

- سأنتظر حتى يأتي، لا تقلق.

في اللحظة نفسها شعرت بأنفاسه على عنقي، وهو يهمس في أذني:

- لا يمكنكِ الرحيل هكذا، سنأكل.

استدرت لمواجهته. كنا قريبين للغاية حتى كدنا نتلامس.

قلتُ وكأنني سيدة أعمال مهمة:

- لقد تناولنا الفطور للتو، يا سيد "مومكو". سنخرج لنأكل لاحقًا. لديَّ بعض الأعمال لأقوم بها.

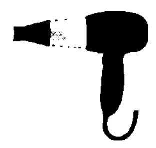
- في تلك الحالة سأمرُّ لاصطحابكِ في الثامنة مساءً.

قال شيئًا بالكردية، ثم بدأ يسير بخفةٍ نحو السُّلَّم دون أن يمنحني فرصةً للاعتراض.

قلت لنفسي: "هذا كل ما أحتاجه".



7



في السابعة مساءً، كنتُ جالسةً على سريري بأظفارٍ مطلية وشعرٍ مُصفَّف، وأُحدِّق في دولابي. فكرة الخروج مع "ماسوت" جعلتني أشعر بالتوتر في معدتي. على الأقل هذا الصباح عندما تناولتُ الفطور معه كان لديَّ سببٌ معقول لأكون هناك. كنتُ هناك للتحدث مع "يوسف". لكن الآن أنا سأخرج لتناول الطعام على الملأ مع أحد أعضاء عالم الجريمة. لديَّ أمورٌ أفضل لأفعلها؛ مثل لقاء "بيترا"، ومعرفة أين التقت بـ"مولر"، ولماذا اقترحت أن يكون مخرج الفيلم.

حين عدتُ للمكتبة تلك الظهيرة وجدتُ رقم شركة "فينيكس" على الإنترنت. قدَّمتُ نفسي بصفتي المفتِّشة "ليلى باتوهان" من المباحث الجنائية بإسطنبول. تحدثتُ إلى السيد "فرانز". أشكُّ في أن أي شخصٍ سيزعج نفسه بالتحقيق في ذلك الاتصال، لكن إن اهتموا بالأمر سيكون صعبًا أو مستحيلًا تعقُّب أثري. إنها ميزة أخرى لكوني قارئة روايات جريمة، جاءتني فكرةٌ لامعة وهي الاتصال بـ"فرانز" من مكتب بريد منطقة "جالاتاساراي". الشيء الوحيد الذي أثار شَكَّه خلال محادثتنا هو أنني أتحدث الألمانية بطلاقة ألماني. حسنًا، لم أستطع فعل شيءٍ بشأن هذا.

أكد "فرانز" أن "بيترا" هي من اقترحت "مولر"، كما قال "يوسف". لكنه لا يعرف إذا ما اشتركا في فيلمٍ من قبل أم لا. في الواقع لم يظن أنهما فعلا، لكن هل يوجد ما يُثير الريبةَ إذا كان "مولر" و"بيترا" يعرفان بعضهما بعضًا مُسبقًا؟ إنه عالمٌ صغير وعالم الأفلام أصغر.

لا أظن أن "فرانز" هو القاتل، لأن لديه الكثير ليخسره تمامًا مثل "ماسوت" و"يوسف". فكرتي الأولية التي بدت منطقية وقتها لم تعد تبدو بتلك المعقولية. كانت تقوم على أن "ماسوت" وعصابته يريدون استخدام الفيلم وسيلةً لتهريب الهيروين خارج البلاد وأنهم قتلوا "مولر" بسبب اختلافٍ ما.

أدركتُ أن معنى هذا هو أن أغيِّر تخطيطي وأركِّز على مَن سيستفيد من موت "مولر"، لكن حتى الآن لم يظهر شخصٌ مستفيد من الجريمة. فجأة خطرت لي فكرةٌ جعلتني أعتدلُ بسرعةٍ في جلستي. هناك شخصٌ مستفيد من موت "مولر". وهذا الشخص هو مساعدة المخرج، الآنسة "باور". ألم يقل السيد "فرانز" أن أفضل من يمكنه إتمام الفيلم هي الآنسة "باور"؟

قال خلال المحادثة:

- فريقنا كفءٌ. يمكننا إنهاء الفيلم دون توقيع عقدٍ مع مخرجٍ آخر.

سألته:

- بمَن تفكر حين تقول إن فريقك كفءٌ بدرجةٍ كافية؟

- لدينا مساعدة مخرج في غاية الكفاءة، إنها الآنسة "باور". يمكنها تولي الأمر.

بالطبع هذا لا يعني أن المستفيد الوحيد هي الآنسة "باور". مع ذلك لقد نالت ترقية نتيجة ما حدث. لذا حتى تخرج الآنسة "باور" من قائمة المشتبه بهم الخاصة بي، لست مستعدةً للتخلي عن تحقيقاتي في هذه الجريمة والعودة بهدوء إلى حياتي المملة.

ربما كان عليَّ أن أرتاب حين اكتشفتُ أن "بيترا" هي مَنْ جعلت "مولر" المخرج. كلما فكرتُ بذلك أتذكَّرها وهي تتحدث بصدقٍ تامٍّ عن عدم وجود علاقةٍ بينهما. أيمكن حقًّا وجود علاقةٍ بينهما؟ ربما خانها وتشاجرا... جريمة بدافع العاطفة. صراحةً! لا أريد حتى التفكير في احتمال أن "بيترا" قَتلت لتعرُّضها للخداع، ولا يوجد سببٌ للتفكير في أن "مولر" قُتل بسبب شجار. كانت جريمةً مُدبَّرة، وليست وليدة اللحظة. لا أحد سيفكر في "ماذا لو تشاجرنا" ثم تذهب إلى غرفة حبيبها مع ثلاثة أسلاكٍ إضافية ومجفِّف شعر اختفى من السوق منذ أربع سنين.

عندما رفعتُ يدي لفمي لأقرض قطعة جلدٍ جافة توقفتُ فجأة. لقد طليت أظافري ذلك اليوم، والآن عليَّ التفكير فيما سأرتديه. أعدتُ التركيز على دولاب ملابسي.

كانت الساعة الثامنة وعشر دقائق عندما انتهيت من ارتداء ثيابي ونظرت إلى نفسي في المرآة، لكن لم يرن أحدٌ جرس الباب. كان الموقف واضحًا، نسيَ "ماسوت" موعدنا. منذ أن تحدَّث عن الخروج لتناول العشاء هذا المساء وأنا أشعر بالتوتر من تلك الفكرة. لم أتوقف عن التفكير في ذلك وفي تبعاته.

صبَّرت نفسي حتى الثامنة وعشرين دقيقةً بالتدخين ومحاولة إقناع نفسي أن المرور قد أخَّره. بحلول الثامنة وعشرين دقيقةً عجزتُ عن الاحتمال. في الثامنة وثلاثةٍ وعشرين دقيقة ارتديتُ حذائي والتقطتُ حقيبتي. بعد دقيقة، أغلقت الباب ونزلتُ إلى الشارع.

كنتُ في غاية التأنُّق لأذهب إلى أي مكانٍ بمفردي، لذا ذهبتُ لكافيه "كاكتوس" حيث جلستُ على البار أشربُ بعض المارجريتا. شربتُ أربع كؤوس.

لا يستغرق الكثير - كما تظن - لشُرب أربعة كؤوس مارجريتا. في التاسعة وخمسين دقيقة عدتُ إلى المنزل ثانيةً. أول ما فعلته هو الإسراع إلى التليفون.

شعرتُ بموجةٍ من المتعة تجتاحني عندما رأيتُ الزِّر الأحمر الذي يشير إلى أخبارٍ سارة، وهي أنه لديَّ رسالةٌ صوتية وأن كبريائي الأنثوية قد تم إنقاذها. ضغطتُ على زر الرسائل الجديدة فقال الصوت الآلي الأنثوي: "لديك أربع رسائل جديدة"، هكذا قال الجهاز الذي أحضرته أمي معها من ألمانيا في إحدى زياراتها.

الرسالة الأولى تركتها "بيترا" بعد خروجي مباشرةً. لم نَرَ بعضنا منذ يومين، وكانت تسأل لماذا لم أتصل بها؟

الرسالة الثانية كانت في الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة، كانت من مالكة العقار في الطابق الأخير لتذكرني بأنني لم أدفع إيجار هذا الشهر بعد. الأمر ليس عاجلًا لكنني لم أتأخر في دفع الإيجار قط، لذا بدأت تتساءل إن كان هناك خطبٌ ما.

اتصل أحدهم في التاسعة وخمس وثلاثين دقيقةً، لكنه أغلق الخط دون ترك رسالة.

في العاشرة ودقيقةٍ واحدة اتصل أخي الأكبر من مدينة "جوتينجن" ليقول إن ضغط دم أمي قد ارتفع ذلك اليوم وقد سقطت مريضةً في الشارع. لقد حملوها إلى المستشفى، لكن وفق الأطباء ليس ثمة ما يُقلق.

انهرتُ في المقعد. هذا ما كان ينقصني. بينما أخشى أن تفسدني العصابة هنا، كانت أمي تعاني هناك في المستشفى.

اتصلتُ برقم أخي على أملٍ بسيطٍ أن يرد. من المحتمل أن زوجته بقيت في المنزل بدلًا من أن تذهب إلى برلين لرؤية أمي، وربما أحصلُ منها على بعض التفاصيل. كنتُ على وشك وضع السماعة بعد خمس رنات حين ردَّ أخي:

- "هيرشيل".

- ماذا تفعل عندك؟

بدا مسرورًا وهو يقول:

- "كاتي"! كنا في الحديقة ولم أسمع التليفون.

سألته:

- ألم تذهب إلى برلين؟ أم أن أمي معك؟

- لا، أمي في برلين. نقلوها إلى مستشفى "أوربان". لمَ سأكون في برلين؟

أظنه سكران.

- لأن أمي في المستشفى.

- أوه.. لا! حالتها ليست خطيرة. لقد سقطتْ على ساقها اليمنى وكسرت كاحلها. بالنسبة لُمسنَّة فإن أبسط سقطة تُسبِّب كسرًا. بالطبع هناك ضغط الدم أيضًا. لكنها - كما تعرفين - مصابةٌ به منذ سنين بأي حال. "يوت" وأنا نقيم حفل شواء في الحديقة.

"يوت" هي زوجة أخي. قلت:

- سأذهب إلى برلين غدًا.

- لماذا؟ أي سؤالٍ هذا؟

- لأرى أمي.

قال باندهاش:

- هل فقدتِ عقلكِ؟ أنا لن أذهب حتى من هنا؟

قلتُ وقد عقدتُ العزم:

- لكنني سأذهبُ.

- لقد أمضيتِ وقتًا طويلًا هناك... نحن لا نفعل ذلك هنا. الناس هنا لا يزور بعضهم بعضًا بسبب مرضٍ طفيف. الحياة في ذلك الطقس الحار جعلتك انفعاليةً مثلهم.

- سأذهب إلى برلين غدًا. سنتقابل هناك إن قررت المجيء.

دومًا ما يغضب عندما أتحدث إليه بتلك النبرة.

- حسنًا، اذهبي إذًا.

أنهينا الاتصال دون قول وداعًا.

ألقيتُ أفضل ثيابي على الأرض دون لحظة تردد، وذهبت للفراش دون إزالة الميك أب.

أولًا، حين استيقظتُ في الصباح التالي عجزتُ عن تذكُّر سبب شعوري بالقلق. لكن ليس وقتًا طويلًا. سرعان ما تذكرتُ أمي أولًا ثم قضية "مولر"، يبدو أنني لا أستطيع طردهما من عقلي. نحَّيتُ جانبًا قضية "مولر" وقفزتُ من السرير. كلما تحركتُ مبكرًا كان أفضل، هذا إذا أردتُ اللحاق بطائرة برلين.

بدأ الألم ينتشر تدريجيًا من الجانب الأيسر لرأسي، أخبرتُ نفسي بصوتٍ عالٍ أنه سرعان ما سينتهي، وأسرعتُ نحو التليفون لأتصل بوكالة السفر.

قال موظف وكالة السفر حين أنهيتُ حديثي:

- من المستحيل حجز مقاعدَ على أي رحلةٍ الآن، يا آنسة "هيرشيل".

- أنا ببساطة عليَّ الذهاب. إن لم يكن اليوم إذًا غدًا على الأكثر.

- حسنًا، كما تعرفين، الأتراك العاملون بالخارج والسيَّاح يستمرون بالقدوم في هذا الوقت من السنة. وعندما يأتون هنا، ماذا يعني هذا؟ يعني أن عليهم المغادرة مجددًا. أنا أشكُّ حقًّا في قُدرتنا على حجز مقعد، لكن سأبحث مرةً أخرى وأتصلُ بكِ.

- حسنًا، افعل من فضلك. سأكون بالمنزل.

- يمكنني إخباركِ أنه لا فرصة في حجز مقعدٍ على رحلةٍ خاصة، لكن سأبحث.

قلتُ بحزم:

- نعم، لو سمحتَ. وتحقَّق من وجود أي رحلاتٍ غير مباشرة. سأذهبُ بالتأكيد.

أنهيتُ الاتصال وأسرعتُ إلى الحمَّام. الوجه الذي رأيته في مرآة الحوض كان يُشبِهُ وجه فنزويلية علمت لتوِّها أنها تُوِجَّتْ ملكة جمال العالم. كانت المسكرة والـ"آي شادو" منحدرة على خديَّ. ذهبتُ لأستحمَّ.

دوى رنين التليفون في الشقة، لكني سمعتُه فقط حين أغلقتُ مياه الاستحمام. لا بد أنه موظف وكالة السفر؟ لففتُ نفسي بفوطة، وركضتُ إلى التليفون محاذرةً ألا أنزلقَ. كان "يلماز".

قال دون أن يمنحني حتى الفرصة لقول "مرحبًا":

- أنسيتِ؟ اليوم هو السبت.

- "يلماز"! حدث أمرٌ فظيعٌ. أين أنت؟ تعالَ وسنتناول الفطور و...

قاطعني قائلًا:

- أنا في الكافيه المجاور للجامع، أين عساي سأكون؟ سأصل خلال عشر دقائق.

جلسنا وأرجلنا مستندة على سور البلكون كما أراد "يلماز"، ونستمتع بشرب الشاي. كنتُ أخبره بما حدث لي على مدار الأيام العشرة الماضية. ليس كل شيءٍ بالطبع، الضروري فقط. ثم رن التليفون. شعرتُ برغبة عارمة في تفادي أي كارثةٍ قادمة والهروب إلى قريةٍ جميلة بلا أسلاك تليفون. إن كان يوجد مكان كهذا من الأساس.

هذه المرة كان موظف وكالة السفر يخبرني بوجود رحلة على الخطوط الجوية التركية في الواحدة وخمسٍ وأربعين دقيقةً غدًا ظهرًا، ويسألني إذا ما كنتُ أرغبُ بها. أجبته:

- نعم، بالطبع.

- متى ستعودين؟

- خلال أسبوع، ربما عشرة أيام. ربما أقل، لكن ليس أكثر من عشرة أيام.

- في تلك الحالة سأحجز تذكرة أسبوعين، على الرغم من أن تذكرة أسبوعٍ ستكون أرخص... حاليًا تكلِّف الخطوط الجوية التركية أكثر من خطوط طيران "لوفتهانزا" الألمانية. تذكرة ذهاب وعودة مدة أسبوعين تكلِّف ٤٥٠ دولارًا، لعلمك. عادةً لا يمكنهم جذب عملاء بتلك الأسعار. هناك سببٌ ليطالب الجميع بخصخصة الخطوط الجوية التركية. جميعنا نتحمل خسائرهم. في الماضي كانت هناك تذاكر درجة رجال أعمال خاصة، لكن ليس بعد الآن. على أي حال، لا يمكننا منحكِ تذكرة درجة رجال أعمال. لذا لا شيء يختلف بالنسبة لكِ.

- المال لا يهم. أمي مريضةٌ وأنا حتمًا عليَّ الذهاب.

- أوه، يا إلهي! أنا في غاية الأسف يا آنسة "هيرشيل". ما خطبها؟

هكذا هم الأتراك، دومًا يتدخلون في أي مشكلة سواء استدعى الأمر أم لا.

قلتُ باختصار قَدْرَ المُستطاع:

- لا أعرف بعد. لقد نقلوها إلى المستشفى، لكنني لم أستطع الاتصال بها. سأعرف حين أصل.

ثم أضفت:

- إلى أي ساعةٍ تعملون؟ سآتي لأخذ التذكرة.

- لا داعي لقدومك بنفسك، يمكنكِ أخذها من المطار غدًا. لديكِ ما يكفي من المشاغل حاليًا، لذا لا تزعجي نفسك بالقدوم. سأترك تذكرتك في مكتب الخطوط الجوية التركية في المطار.

- والمال؟ كيف سأدفع؟

- سنناقش الأمر حين عودتكِ. لا تقلقي يا سيدتي.

- محال، سأحوِّل المال لحسابك. أخبرني كم يساوي مبلغ ٤٥٠ دولارًا بالليرة التركية.

- البنوك تغلق يوم السبت، يا آنسة "هيرشيل".

- سأرسله عبر الإنترنت.

زاد احترام الموظف لي، حين علم أنني أستخدمُ التعاملات البنكية بواسطة الإنترنت. أخبرني عن ابنته التي تدرس في السنة الثالثة لكلية الطب وصارت خبيرةً بالإنترنت، ثم أعطاني رقم حسابه.

تقرَّر أن أسافر غدًا.

عدتُ للبلكون حيثُ وجدتُ "يلماز" مستغرقًا في قراءة الجورنال.

قال حين رآني:

- ألقوا القبض على "مومكو" مجددًا.

ثم أضاف:

- لكن ليس بسبب جريمة القتل هذه المرة.

لم أستفسر لماذا قبضوا عليه، لكنني سألتُ فقط:

- متى حدث ذلك؟

- مساء أمس. داهموا شركة "مومكو للنقل" بعدما وصلهم بلاغٌ سِريٌّ، ووجدوا سلاحين دون ترخيص. أمضى الليلة في الزنزانة. هذه المرة تولى "ماسوت"، لن يخرج بالساهل.

قلت محاولةً ألا أبدو مهتمة:

- مَنْ يعلم؟ ربما يفعل.

اختلقتُ عذرًا للذهاب إلى المطبخ بأن سألته:

- أتريد بعض القهوة؟

نظر "يلماز" إلى ساعته وقال:

- لا أستطيع. عليَّ الوجود في المكتب في الساعة الواحدة. هناك اجتماعٌ اليوم. نحن نعمل كالمجانين.

سألته:

- أهناك حالات فصلٍ من العمل؟

آخر مرة تحادثنا قال إنهم سيبدؤون بتسريح الموظفين.

بدا حانقًا من سؤالي، وتوجَّه إلى الباب. تبعته.

- حتى الآن لم يستغنوا عن أي شخص، لكن جميعنا مهددون بالخطر. لقد سئمتُ هذا العمل، لو أنني لم أستثمر كل مدخراتي في البورصة، لاستقررتُ في قريةٍ على بحر "إيجة" منذ زمنٍ طويل. لقد كبرتُ بدرجةٍ كافية على تلك الأمور.

تمنَّى لي رحلةً آمنة وقبَّلني على كلا خديَّ، ثم غادر مسرعًا.

صنعتُ لنفسي كوبًا كبيرًا من القهوة التركية وجلستُ على مكتبي. أولًا فتحتُ الإنترنت وحوَّلت إيجار الشهر إلى حساب مالكة العقار، ثم حوَّلتُ ثمن تذكرة الطيران إلى حساب موظف وكالة السفر. بينما أتصفح الإنترنت حاولتُ معرفة ما قالته الجرائد عن "ماسوت". لكن الكمبيوتر كان بطيئًا جدًّا، لذا استسلمتُ سريعًا. بدا أكثر منطقية أن أذهبَ لشراء جريدة من المحل.

بعدما أنهيتُ استخدام الإنترنت اتصلت بـ"بيترا". لم تكن في غرفتها، لذا تركت رسالة. كنتُ فقط أفكر فيمن عليَّ الاتصال به أيضًا وفجأة رن التليفون.

سألتُ "لالي":

- أما زلتِ غاضبةً مني؟

قلتُ باقتضاب:

- لا، لست غاضبة.

ثم أخبرتها بما حدث لأمي.

- إذًا ستسافرين غدًا. متى موعد رحلتك؟

- في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة.

- هل أصحبُكِ للمطار؟ أتحبين ذلك؟ يمكنني الذهاب للمكتب من هناك.

- أتعنين أنكِ ستذهبين للعمل في الساعة الثانية ظهرًا؟

إنها تذهب للعمل في الثامنة صباحًا يوميًا، بما فيها أيام الأحد. تأخذ يومًا واحدًا فقط في الأسبوع إجازة، وهو السبت.

قالت:

- نعم.

سألت بقلق:

- ماذا حدث؟

كون والدة صديقتها المقربة في المستشفى ليس سببًا كافيًا لـ"لالي" كي تتأخر عن العمل. حتمًا هناك سببٌ آخر.

- لم يحدث شيء. أو ربما حدث. ربما أُصَبْتُ باللعنات التي يقذفني بها كل الناس الذين أرهقتُهم بالعمل خلال الأشهر الأربعة الماضية لكتابة تقارير عن الأزمة الاقتصادية. لقد سئمتُ هذا العمل يا "كاتي". نِلتُ ما يكفيني. أتمنى لو أنني لم أعد قط من نيويورك.

- لمَ لا تأتين لمنزلي ويمكننا الذهاب لمكانٍ ما.

لم أسمعها قط تندم على عودتها من نيويورك. من الواضح أنها نالت ما يكفيها.

- لا يمكنني القدوم، عليَّ ترتيب مكتبي. كل شيءٍ مُكدَّسٌ في أرجاء المكان. عليَّ القيام ببعض التنظيم. إن كان عقلي في فوضى، فعلى الأقل ما حولي يكون مرتبًا. تعالي أنتِ.

يمكنني التخمين أنها لا تريد البقاء وحدها. كنت معتادةً تصرفات "لالي" بصفتها الابنة الوحيدة.

- عليَّ الاستعداد لرحلتي غدًا، وعليَّ رؤية "بيترا". لا يمكنني القدوم.

- في تلك الحالة، دعينا نتقابل باكرًا قبل الذهاب للمطار. سنحظى بفرصةٍ للحديث.

بمجرد أن وضعت السماعة، رنَّ التليفون مجددًا. هذه المرة كانت "بيترا". قالت:

- أنا في "البسين". لقد اتصلتِ بي. يا له من جوٍ جميل! إنه حارٌ ومشمس. كنتُ حقًا بحاجةٍ إلى عطلةٍ كهذه.

تتحدث كما لو كانت سعيدةً لمقتل "مولر".

سألتها:

- ماذا تفعلين اليوم؟

- لا أفعل شيئًا محددًا خلال النهار. في المساء سأخرج لتناول العشاء مع طاقم الفيلم.

أخبرتُ "بيترا" أن أمي تم نقلها إلى المستشفى، وأني سأسافر إلى برلين. أضفتُ بمكر:

- سآتي وأنضمُّ لكِ ولطاقم الفيلم على العشاء هذا المساء. لذا سأراكِ هناك. ليس لديَّ وقتٌ الآن لأنه عليَّ حزم أمتعتي.

- حسنًا، لا أعرف بشأن ذلك. ألن يبدو هذا غريبًا قليلًا؟

- هل أنتِ مدعوةٌ إلى بيت أحدهم؟

- كلا، سنذهب إلى مطعمٍ تركي تقليدي.

- إذًا ما الغريب في هذا؟ المطاعم أماكن عامة، أي شخصٍ يمكنه القدوم.

الجميع كانوا سيتقابلون في السابعة في فندق "نويل بابا" في حي "طارلاباشه" حيث يقيمون جميعًا عدا "بيترا".

قلتُ لها:

- تعالي إليَّ إن أحببتِ ويمكننا الذهاب معًا. الفندق قريبٌ للغاية من منزلي.

ثم أمليتُ عليها عنواني.

استغرق الأمر نصف ساعةٍ لأتهجَّى لها كل شيءٍ حرفًا حرفًا. سألتني بملل:

- لمَ العنوان طويلٌ هكذا؟

- لأنه ليس فقط العنوان. لقد أمليتكِ الاتجاهات أيضًا. يمكنك إعطاء تلك الورقة إلى سائق التاكسي.

قالت بسذاجةٍ ألمانية:

- لمَ سأحتاج الاتجاهات؟ عليكِ فقط إعطائي العنوان.

- ماذا تظنين سائقي التاكسي في إسطنبول؟ لو أنكِ لستِ ذاهبة إلى جامعٍ أو قسم شرطة أو مستشفى فلن تصلي إلى أي مكان في إسطنبول عن طريق اسم الشارع فقط. سائقو التاكسي لا يعرفون حتى اسم المنطقة التي يسكنون فيها.

- لا تكوني سخيفة.

- حسنًا، حاولي هذا المساء حين تأتي إليَّ. فقط قولي للسائق شارع "تافوكوجماز"، ودعينا نرَى إن كان بوسعه إيصالك. لكن كوني حذرة، إن عبرتِ جسر البوسفور إلى الجانب الآسيوي ستستغرقين وقتًا طويلًا للعودة.

- هكذا أنتِ دومًا، لم تتغيري مطلقًا. دائمًا تبالغين.

قلتُ وأنا واثقةٌ أنني على حَقٍّ:

- حسنًا، سترين إذا ما كنتُ أبالغ بشأن سائقي التاكسي أم أنهم يتصرفون هكذا فعلًا.

قالت بحزمٍ:
- حسنًا، سنرى.

خروجي للعشاء هذا المساء قبل ذهابي إلى برلين يعني أنني سأتحدثُ إلى المشتبه به الوحيد في قائمتي، وأيضًا إلى أفراد طاقم الفيلم الآخرين. أشعرني هذا أنني في العاشرة أو ربما الخامسة عشرة من العمر.

بعد ذلك اتصلت بـ"بيلين". سأتركُ المكتبة بالكامل بين يديها خلال فترة غيابي.

قالت "بيلين":

- لا تقلقي. سأتدبَّر الأمر. المهم هو صحة والدتك.

سألتها ماذا تريد من برلين. إنها عادة تركية. دومًا تسأل أصدقاءك إن أرادوا شيئًا حين تذهب لأي مكان. لكنهم، حتى ولو كانوا يتهافتون على عطرٍ ما معفيّ من الجمارك سيجيبون: "فقط عد سالمًا، هذا كل ما أريده".

"بيلين" كانت المثل تمامًا.

بعد أن وضعت أطباق الفطور في غسَّالة الأطباق، ذهبتُ إلى غرفة النوم لحزم حقيبتي. كنتُ على وشك وضع "تيشيرتات" و"شورتات"، لكنني أدركتُ فجأة أنه لا فكرة لديَّ عن الطقس في برلين. كل ما أعرفه أنه من المستحيل أن يكون حارًّا كطقس إسطنبول. لذا، عدتُ إلى الكبيوتر لأتفقَّد أخبار الطقس للأيام القلائل القادمة.

كما ظننتُ، الطقس في برلين كان باردًا وسيستمر هكذا. سيأتي يومان مشمسان في نهاية الشهر، لكن لا نية لديَّ للبقاء في برلين كل هذه المدة. هذا لو سارت الأمور وفق الخطة.

وضعتُ الـ"تيشيرتات" والـ"شورتات" جانبًا، وأخرجت من مؤخرة دولابي سترتي الحمراء وبعض البلوفرات وزوجًا من البنطلونات الناعمة. لستُ بحاجةٍ للتأنق في برلين كما أفعلُ في إسطنبول. في المترو هناك يبدو الرُكّاب كما لو أنهم ركضوا خارجين من مستشفى المجانين.

آخر ما وضعت بحقيبة سفري كانت حقيبة "مكياجي" الضخمة، وبهذا أكونُ قد انتهيتُ من كل استعدادات السفر. لن تصل "بيترا" قبل ساعتين أخريين، هذا بالطبع إذا كانت قد أعطت السائق الاتجاهات التي أمليتها إيَّاها. ستستغرق أربع ساعاتٍ إن لم تفعل.

خرجتُ لشراء الجريدة.

الصفحة الثالثة المخصصة لأخبار الحوادث كانت ممتلئة بصور "ماسوت". كل ما أخبرني به "يلماز" موجود في الجريدة. فكرتُ بالاتصال بالصحفي الذي يعمل في جريدة "لالي"، لكنني تراجعتُ فورًا. لا أريدُ أن يعرف "ماسوت" أنني سألتُ عنه. مع ذلك كانت لديَّ رغبةٌ مُلحَّة في الاتصال بأحدهم، لذا اتصلتُ بـ"باتوهان" على تليفونه المحمول.

لم يبدُ سعيدًا لسماع صوتي.

قال ببرود:

- مرحبًا.

- كيف حالك؟

- أعمل. أنا مشغولٌ للغاية.

- لن أزعجك إذًا.

- جيد.

أنهيتُ الاتصال.

لم يفاجئني رد فعله. كنت ناضجةً بما يكفي كي أمتلك خبرةً ونظريات بشأن تصرفات الرجال المرفوضين. الفرق الوحيد بين الرجال والنساء الذين يواجهون الرفض هو أن الرجال يسارعون بإظهار حقيقتهم. أمًّا النساء فيتمالكن أنفسهن فترة ظنًّا منهنَّ أن الرجل ربما لم يرفضهن حقًّا، ربما هناك سوء تفاهمٍ وحسب... النتيجة هي أن النساء يصلن لمرحلة الانتقام فقط بعد تأكيد الرفض الرابع، بينما الرجال يرغبون بالانتقام مع أول رفض.

من واقع خبرتي يمكنني القول إنك لا يمكنك الانتقام من شخصٍ لا يهتم بك، فيما يمكنك بسهولةٍ الانتقام من شخصٍ يحبك. كل ما عليك فعله هو الانتحار.

لنأخذ "باتوهان" على سبيل المثال. كيف ينتقم مني بما أنه عجز عن جعلي أحزن بدرجةٍ كافية لأنتحر؟

أولًا- يمكنه إيقاظي بمكالماتٍ في منتصف الليل ثم يغلق الخط دون كلام.

ثانيًا- يمكنه وضع فأرٍ ميت على باب المكتبة ويترك ملحوظةً تقول: "خائنة قذرة، غادري بلادنا". ويعقُب ذلك إلقاء الحجارة على زجاج فاترينة المكتبة.

ثالثًا- يمكنه الادّعاء أني قتلتُ "مولر" ويُلقي القبض عليَّ.

رابعًا- يمكنه وضع حقيبة هيروين في شقتي أو سيارتي أو المكتبة ثم يبلغ الشرطة.

الأكثر واقعية في هذا كله - الوحيد الواقعي في الواقع - هو الاحتمال الأول. لقد تلقيتُ ستةَ أنواع مختلفة من المكالمات الصامتة، لذا واحدةٌ أخرى لن تُؤثِّر سلبًا في حياتي.

كل الأتراك - بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو عمرهم أو جنسهم - معتادون الانتقام بالمكالمات الصامتة، ولكل شخصٍ أسلوبه. فهناك مَن يغلق الخط بمجرد أن ترفع السمَّاعة، ولا يتيح لك الفرصة لقول: "مرحبًا". وهناك مَن ينتظر حتى يُبحَّ صوتُك من صياحك كلمة "مرحبًا" في التليفون. نوعٌ آخر

يُسمعك موسيقى أولًا أو يصفِّر ألحانًا أو يصنع أصواتًا حميمية مزيفة... كل مَنْ يرغب بالعيش في تركيا عليه اعتياد تلك العادات التركية الغريبة. لقد اعتدتُها. دومًا أفصل التليفون قبل الذهاب للفراش، هذا ما لم أكن مخمورة أو متورطة في تحقيقٍ لحَلِّ جريمة قتل.

رنَّ التليفون بينما أنا في المطبخ بانتظار غليان الماء كي أعدَّ بعض الشاي الأخضر لنفسي. ركضتُ للمكتب. لم أتوقَّف عن الحديث عن التليفونات فترة الآن، لذا فمن العدل إخباركم بأن التليفون الوحيد في شقتي موجود بغرفة المكتب.

كان صوت رجل لم أتعرفه، لكن وفقًا لنظرية صديقي "مدحت" عن اللكنات الكردية حتمًا كان الرجل من "ديار بكر". قال:

- هل الآنسة "هيرشيل" موجودة؟

- نعم، أنا هي.

- آسف لإزعاجك. أنا أتصل بالنيابة عن السيد "مومكو".

- نعم؟

- قال إنه وعد بلقائك... لكن طرأت بعض الأعمال العاجلة وعجز عن القدوم. أراد مني إبلاغك بأنه سيتصل بكِ حين يستطيع.

- شكرًا لك.

مؤكد أن "ماسوت" أدرك أنني سأرى أخبار اعتقاله، صحيح؟ ذهبتُ للمطبخ وأنا أكرر لنفسي "طرأت بعض الأعمال العاجلة".

وجود شخصٍ مثل "ماسوت" يتحدث بسهولةٍ عن قتل الناس طليقٌ في الشوارع ليس في صالح أي شخص. كلما أسرعوا بحبسه زاد عدد الناجين منه. برأيي أنه مِن الجيد عودته إلى السجن عليه قبل ذهابي معه للعشاء.

عندئذ رنَّ جرس الباب. لسعتُ يدي وأنا أمسكِ الإبريق فوق البوتاجاز. أكره الاستعجال!

ركضتُ إلى نافذة غرفة الجلوس وأنا أمصُّ إصبعي الصغيرة الملسوعة من يدي اليمني. كانت "بيترا" واقفة أمام باب مسكني. لقد وصلت باكرًا. لم أحظَ حتى بفرصةٍ لتناول كوبٍ من الشاي في سلام.

شعرتُ بالضيق وأنا أضغط الزر لأفتح الباب الأمامي.

كنتُ ما زلتُ ألعقُ إصبعي الصغيرة بينما أشاهد "بيترا" وهي تلهث صاعدةً السلالم.

قالت:

- بما أننا سنمضي الأمسية هنا، فكرت في قضاء النهار أتجوَّل في منطقة "ميدان تقسيم". أنا مُنهَكة. لكن كان هناك الكثير لأراه. تمشيتُ حتى مكتبتك. الجولة السياحية الصغيرة في المدينة لهذا اليوم هي أكثر من كافية بالنسبة لي.

قلتُ وأنا أستدير عائدةً إلى المطبخ:

- ادخلي.

المياه التي كانت تغلي بشدةٍ أصبحت الآن في درجةٍ مناسبة لصنع الشاي الأخضر. وضعتُ أوراق الشاي في إبريقٍ زجاجي وسكبتُ عليه الماء ووضعتُ كوبًا آخر في الصينية. بينما أسير إلى البلكون كان يمكنني سماع صوت "بيترا" المذهول قادمًا من غرفة الجلوس.

- شقتكِ واسعة للغاية! وشارعكِ في غاية الجمال...

- تعالي إلى البلكون ويمكننا التحدث دون صياح.

البلكون هو أروع مكان للجلوس.

جلست "بيترا" في المكان الذي كان يحتلُّه "يلماز" هذا الصباح بينما جلستُ قُبالتها.

قالت "بيترا":

- إسطنبول مدينةٌ متعِبة، الزحمة لا تُطاق. تساءلت اليوم: كيف هو حال المعيشة هنا؟

ثم شعرت بحاجةٍ لتصحيح كلامها، فأضافت:

- لكنني واثقة أن مَن يعيش هنا طوال الوقت سيعتاد الأمر.

- حتى ولو اعتدتِ زحام إسطنبول، هناك الكثير من الأمور الأخرى التي ستزعجك.

- مثلًا؟

- السياسة التركية، الأزمة الاقتصادية، الفساد، الرسوم البنكية...

تحدثتُ بغضبٍ ملحوظ، فنظرت إليَّ "بيترا" بدهشة.

كنتُ عاجزةً عن التحدث بنبرةٍ عادية، لذا أكملتُ همسًا:

- منذ الصباح وأنا أهدئ أصدقائي الراغبين في مغادرة البلاد. المشكلات السياسية والاقتصادية أضرت الجميع.

أدهشني مدى غضبي، وأكملتُ:

- يبدو أن تلك المشكلات أثَّرت بي أكثر مما ظننتُ.

مع كل أزمةٍ جديدة كنتُ أظنُّ أنني أقل حساسية من الأتراك تجاه المشكلات التركية. كنتُ أخبرُ نفسي أن إسطنبول مدينتي لكن تركيا ليست بلادي. الفرق بيني وبين "لالي" و"يلماز" و"بيلين" والأصدقاء الآخرين لم يكن قوة مشاعرنا بل مداها. أخبرتُ "لالي" ذات مرةٍ: "أنتِ تحبين جزءًا من تركيا وهو إسطنبول، بينما أنا أحبُّ فقط إسطنبول. لكنني أفهمكِ. هذا يشبه حبي لــ"جيهانجير" لأنها في إسطنبول... لو كانت "جيهانجير" في مدينة "بون" الألمانية لما أحببتها". حبي لإسطنبول لا يتعلق أبدًا بتركيا. أنا أحبُّ طعام إسطنبول وأغاني إسطنبول وتركية إسطنبول ومنطقة "جيهانجير" في إسطنبول.

لم تدرك "بيترا" أنني صرتُ مُشتَّتة للغاية وواصلتْ كلامها:

- اشتريتُ جريدة تركية البارحة وكانت مكتوبةً بالألمانية. وضع تركيا يبدو ميؤوسًا منه بالفعل، صحيح؟

- لا تشغلي بالكِ. أنا أعيش هنا منذ ثلاثة عشر عامًا ولم أجد الوضع مُبشِّرًا قط.

لعقت إصبعي المحروقة مرةً أخرى وسكبت الشاي المغلي. ثم سألتها بينما أناولها الشاي:

- أنتِ حقًا لم تكوني على علاقةٍ بـ"كيرت مولر"، صحيح؟

- لمَ تسألين عن ذلك مجددًا؟ أخبرتكِ مسبقًا أنني لم أكن على علاقة معه، ألم أفعل؟

- يقولون إنكِ اقترحتِ "مولر" ليكون المخرج، لهذا...

- مَنْ يقول ذلك؟

أكانت مندهشة لكيفية معرفتي بالأمر؟ أم لكثرة الأكاذيب التي أنسجها حولها؟

- بعض الناس من شركة "مومكو" للإنتاج.

لسببٍ ما لم أُرِدْها أن تعرف أنني اتصلت شخصيًا بالسيد "فرانز" في ألمانيا.

تلاعبتْ بقلادة الصليب المعلقة حول عنقها وأمعنت النظر بي، ثم قالت:

- أتعنين الذي اتصلتِ به من غرفتي؟

- لا، إنه شخصٌ يعمل معه. ألماني يدعى "يوسف".

- "جوزيف"؟

- إنه ألماني مسلم ويدعى "يوسف".

- آه، عرفت مَنْ تعنين. أعرفه. هل هذا اسمه، "يوسف"؟ حسنًا، إذًا ماذا أخبركِ؟

- قال إنه أنتِ من جلب "مولر".

- هذا صحيح. أنا جلبت "كيرت". لكن ماذا في ذلك؟

- حسنًا، كنتما تعرفان بعضكما البعض مُسبقًا.

- نعم، عرفنا بعضنا البعض من قبل. لكنني أعرفُ الكثير من الأشخاص، يا "كاتي". أنا لا أقيم علاقةً مع كل شخصٍ أعرفه. أرسلَ لي المنتج السيناريو منذ عام. وللمرة الأولى من سنين وجدتُ جزءًا من نفسي فيه. إنهم لا يعتبرونني شابَّة بعد الآن.

بينما تقول ذلك فكَّت أزرار بلوزتها وقرصت قطعة من اللحم الزائد عند الخصر. وقالت:

- مع تقدمنا في العمر، طاقتنا تقلُّ وجسدنا يتداعى أيضًا. لا توجد مشكلة لو بدوت صغيرةً مثلكِ، لكن لسوء الحظ عمري الحقيقي يظهر عليَّ. بصراحة أنا أبدو حتى أكبر من عمري. لا بد أنهم محقون حين يقولون إن الشقراوات يذبلن أسرع من السمراوات. حتمًا تدركين أن أدوار البطولة لا تأتي في صندوق بريدي أسبوعيًّا. بالطبع فعلتُ ما بوسعي ليخرج الفيلم إلى النور. احتاجوا مخرجًا خبيرًا لا يطلب مالًا كثيرًا. وكنتُ أعرِفُ شخصًا ما يناسب ذلك الوصف، لذا جمعته بهم.

ما قالته بدا مقنعًا. في عصرٍ يمجِّد الشباب، سيكون أعظم كنوز المرأة هو ساقيها الناعمتين بلا نُقر وجلدها الأملس بلا تجاعيد، أليس كذلك؟ بغض النظر عن دورها أو مهنتها. لذا النجمة السينمائية هي أكثر من يتأثر بكل ذلك أكثر منا؟

- أتعنين سبب ترشيحكِ لـ"مولر" لم يكن بسبب علاقتكِ معه؟

- كم مرةً عليَّ قولها، لم أكن على علاقةٍ بـ"كيرت". ربما أُعجِبَ بي، وربما قال ذلك للكثير من الناس، لكن...

مالت للأمام عبر الترابيزة ونظرت في عينيَّ مباشرةً وقالت:

- لم نكن على علاقة. بأي حال، لم يكن نوعي المفضل.

أربكني تعليقها الأخير. بدا شيئًا قد تقوله فتاة في الخامسة عشرة.

- ماذا تعنين بأنه ليس نوعك المفضل؟

- ليس ناجحًا، وليس كفءًا حتى...

لو لم أقاطعها لقالت المزيد.

- ما دام ليس ناجحًا وليس كفءًا، لماذا اقترحتِه لهذا الفيلم؟ لماذا تريدينه أن يُخرِجَ فيلمًا مُهمًّا لكِ ما دام لا يصلح؟

- السبب بسيط. حتى لا تطغى شهرة المخرج عليَّ، وليظل اسمي على القمة. وبالنسبة للمنتجين...

ضحكت كنجمةٍ تتخذ وضعيةَ التصوير، ثم أضافت:

- لديهم خبرة "كيرت"، لكنهم يبحثون عن شخصٍ بخس الثمن.

قال "يوسف" ما قالته تقريبًا في أثناء حوارنا. من الواضح أن عالم الأفلام أغرب مما تخيَّلت.

لم نذكر الفيلم أو "كيرت مولر" مجددًا حتى غادرنا الشقة للقاء طاقم الفيلم على العشاء.

حين دخلتُ مع "بيترا" صالة استقبال فندق "نويل بابا" في "طارلاباشه" بدوت صغيرة السن للغاية بشعري المربوط على هيئة ذيل حصان ووجهي الخالي من الـ"ميك أب"، أو هكذا يصفون ذلك النوع من السيدات في الروايات. لم أكن أنوي أن أبدو صغيرة السن، لكنني لم أزعج نفسي بإخراج حقيبة الـ"ميك أب" من حقيبة السفر.

حَلَّ الصمت على الفريق الألماني الصاخب فور رؤيتنا.

قالت "بيترا":

- هذه صديقتي "كاتي هيرشيل".

أحد الرجال في المجموعة، شعره أشقر يقترب من البياض، مَدَّ يده ليصافحني دون أن يقف وقال:

- مرحبًا، أنا "جوست".

أخبرني الآخرون أسماءهم دون مصافحة، ولم يمضِ الكثير حتى فقدوا اهتمامهم بي وعادوا لمحادثاتهم الصاخبة. هناك تسعة أشخاص، جميعهم رجال ما عدا امرأتين، لم تكن أيهما "باور".

سألت "جوست":

- أين سنذهب؟

كنتُ جالسة على حافة أريكة لشخصين في صالة الاستقبال، بينما جلس هو مسترخيًا عليها فاردًا ذراعيه وساقيه.

- لدينا مرشدٌ الليلة، صحفي صديقي يعيش في إسطنبول.

من الواضح أنه فخورٌ بمهنة صديقه. واصل كلامه:

- "أوتو" هنا منذ عامين. لقد اختار وجهتنا. لقد خرج لتوه مع "أنيت" ليبحثا عن صيدلية.

نظر "جوست" إلى ساعته ثم أضاف:

- سيعودان سريعًا.

سألته على أمل أن يكون باقي اسم "أنيت" هو "باور":

- مَنْ "أنيت"؟

- "أنيت باور".. مساعدة المخرج.

ثم أسرع يضيف:

- أو بالأحرى بدءًا من اليوم عليَّ القول.. المخرجة.

إذًا أصبحت الآنسة "باور" رسميًا مخرجة الفيلم، وأنا على وشك مقابلتها.

- أين يعمل صديقك الصحفي؟ ربما أعرفه، فأنا أعيش في إسطنبول أيضًا.
- يكتب "أوتو" لصالح جريدة " فيست دويتشه تسايتونج".
تحدَّث كما لو كان يتحدث عن رئيس الولايات المتحدة وليس مجرد صحفي.
أمعن النظر إليَّ وأضاف وكأنه لم يفهم ما قلتُه له سوى الآن:
- قلتِ إنكِ تعيشين في إسطنبول؟
- نعم.
- هل أنتِ صحفيةٌ أيضًا؟
- أملكُ مكتبة لبيع روايات الجريمة.
- هل أتيتِ هنا لبيع الكتب؟
- لا، كنت أعيش هنا بالفعل. غَيَّرت عملي بضع مراتٍ قبل أن أقرر أن أصبح بائعة كتب.
- مثير، مثير للغاية.
- أتعني بيع الكتب؟
- لا، بل العيش هنا، على الرغم من أنكِ لستِ مُجَبَرةً على هذا. لا أفهم كيف يعيش أي شخص في دولةٍ تعاني مشكلات حقوق الإنسان. ألا تخشين أن يصيبكِ أذى؟ وهناك ارتفاع كبير في حوادث السرقة والنشل منذ الأزمة الاقتصادية. أخبرنا "أوتو" أن نحترس بشدةٍ على حقائبنا وأموالنا. لا يوجد شخصٌ في إسطنبول لم تُسرق حقيبته.
قلتُ بغضب:
- في ألمانيا يتم سرقة أجنبي كل أربعة أو خمسة أيام، وتقتل جماعة الـ"سكين هيدز" (Skin Heads) الناس في وسط الشارع. لكن مع هذا ما زال هناك أجانب يعيشون هناك.

أدار وجهه بدلًا من أن يجيبني. نظرتُ بتمعُّن إلى جانب وجهه، وقررتُ التخفيف من حدة كلماتي قليلًا. لن أستفيد شيئًا لو ساءت علاقتي بهذا الرجل. قلت:

- أنا أحبُّ إسطنبول.

ثم غيَّرت الموضوع وسألته:

- متى سيبدأ التصوير؟

- لقد صُدِمنا جميعًا بسبب هذا الحدث المأساوي بالطبع.

يمكنني أن أقسم أن وجهه لم يظهر أي لمحةٍ من الصدمة. فلو رأى أحدهم أعضاء الفريق وهم يتحادثون بهذا الصخب المرح، لما صدَّق أن أحد زملائهم قد قُتِل منذ بضعة أيام. لكن هذه مسألةٌ أخرى.

قلتُ:

- بالطبع.

كنتُ بحالةٍ مزاجية جيدة هذا اليوم لدرجة أنني تفوقت على أي سياسي في دبلوماسيتي مع غيري.

قال:

- تلك الراحة أفادتنا جميعًا. انغمس المُمثلون في أجواء المدينة، نظمنا الفريق التقني والإضافات، وتعرفنا إلى بعضنا البعض...

ابتسم بثقةٍ ثم أضاف:

- تقرَّر اليوم أن الآنسة "باور" ستخرج الفيلم.

أدركَ فجأة أنها لم تعد بعد. استدار للآخرين وأشار إلى ساعته وسألهم:

- إلى أين ذهبا بحق الله؟

أجابه أحد أعضاء الفريق، كان زهري الوجه وأمامه ثلاث زجاجات بيرة فارغة، ابتسم ابتسامةٍ واسعة وقال:

- هل هناك روحٌ شريرة تطارد مخرجينا أم ماذا ؟

ضحك كل من بالمجموعة بشدةٍ من مزحته. كانت "بيترا" تراقبني بطرف عينيها من مقعدها، لذا غيَّرت بسرعة نظرتي الغاضبة إلى أخرى ودِّية وضحكت أيضًا.

قلتُ لـــ"جوست":

- لو تعرف وجهتنا يمكننا ترك ملاحظةٍ لهما والذهاب.

لا أطيق صبرًا حتى أخرج من تلك الصالة الكئيبة.

قال "جوست":

- أعرفُ وجهتنا بالفعل.

وقفَ وبحث في جيوب بنطلونه، ثم سحب قطعة ورقٍ مجعدة وقرأ ببطءٍ المكتوب بها:

- مطعم "حصير".

بدت "بيترا" كالملزم بإخبار الآخرين أمرًا في غاية الخطورة، فقالت:

- "كاتي" تعيش في إسطنبول. إنها تعرف المدينة جيدًا.

ابتسمت إحدى المرأتين في المجموعة وقالت:

- يا لكِ من محظوظة! إن إسطنبول هي أجمل مدينة أزورها.

مازَحَها أحد أفراد المجموعة قائلًا:

- وهل زرتِ أي مدينةٍ غير فرانكفورت؟

انفجر الجميع ضاحكًا لمزحته.

قلتُ:

- في تلك الحالة هيا بنا. إن وجهتنا قريبةٌ للغاية من الفندق بأي حال.

اختار الصحفي، صديق "جوست"، مطعم "حصير" في "طارلاباشه"، وهو مكان يزوره السياح بصفته مطعمًا تركيًا تقليديًا، أو بالأحرى كافيه.

قال رجلٌ آخر زهري الوجه كان يجلس جوار زهري الوجه الأول:

- لندفع الفاتورة.

صاح بكل قوته ليلفت انتباه الجرسون.

نظر كل مَنْ يجلس في الصالة إلى هذا الرجل الذي يصيح: "مرحبًا! مرحبًا!" وكأنه مصابٌ بهيستيريا. نزلاء الفندق الآخرون وأنا تنفسنا الصعداء حين هُرع الجرسون لاهثًا إلى الرجل أخيرًا وقد ظن أن كارثةً حلت.

قال زهري الوجه الثاني بالألمانية:

- نريد فاتورة كل شخصٍ منفصلة.

سأله الجرسون بالإنجليزية:

- أتريد الفاتورة يا سيدي؟

سأل الرجل بالألمانية مجددًا:

- ألا تعرف الألمانية؟

كان الجرسون يعرف فقط ما يكفي من الألمانية ليفهم جملة الرجل وأجاب بها:

- لا.

أظنه وقت تدخلي. قلت بالتركية:

- إنهم يريدون الفاتورة، وسيدفعون كل شخصٍ على حِدة.

استدار الجرسون لي، بدا سعيدًا لأنه وجد مَنْ يمكنه التواصل معه:

- سنضيفها إلى فاتورتهم يا سيدتي. جميعهم نزلاء بالفندق.

ترجمت اقتراح الجرسون لهم.

قال "جوست":

- مستحيل. قال صديقي إنهم قد يخدعوننا ويزيدون الحساب. سندفع الآن.

قلت للجرسون:

- يريدون الدفع الآن.
ما مِن داعٍ لترجمة كل ما قاله "جوست".
قال الجرسون:
- حسنًا.
ثم أخبر "جوست" بفاتورته.
- السيد طلب زجاجتي بيرة، الثمن خمسة ملايين ليرةٍ تركية.
قلت لـ"جاست":
- زجاجتي بيرة، خمسة ملايين.
نهض "جوست" وبحث في جيوبه ثم أخرج ورقةً من فئة عشرة ماركات ألمانية وناول الجرسون إياه.
نظر الجرسون للنقود وقال:
- لا نقبل عملة المارك الألماني.
قلت لـ"جوست":
- لا يقبلون المارك الألماني. ألا تملك ليرةً تركية؟
أجاب وهو ما زال يمدُّ يده بالنقود:
- لا. ألا يمكنهم تغييرها في مكتب الاستقبال؟
- ربما، لكن لا يمكنك دفع الفاتورة بعملة المارك الألماني.
- يا للهراء! في تلك الحالة يمكنه تغيير النقود في مكتب الاستقبال.
أيَّد الرجل زهري الوجه "جوست" قائلًا:
- نعم، يمكنه تغييرها في مكتب الاستقبال.

كان "جوست" ما زال يُلوِّح بورقة العشرة مارك وكأنه يلوح بعظمةٍ أمام كلب. كنتُ أفكر في حشر الورقة النقدية في حلق أحدهم بينما يقف الجرسون بتوترٍ دون حراك.

فجأة ظهر رجلٌ ملتحٍ إلى جوارنا وسأل بالألمانية:

- أتريدون دفع الفاتورة بالمارك؟

سعد "جوست" لأنه سيقدر على الشرح دون مترجم، لذا قفزَ قائلًا:

- نعم.

قال الرجل الملتحي:

- هذه تركيا. يتم دفع الفواتير بالليرة التركية.

قال "جوست" متمسكًا بحجته الوحيدة:

- لكنهم يغيرون العملات في مكتب الاستقبال.

لكن نبرته كانت توحي بأنه على وشك الاستسلام.

قال الرجل الملتحي وقد بدا أن مجموعة الألمان هذه قد أغضبته:

- هل أُجرِّب دفع فاتورةٍ بالليرة التركية في ألمانيا؟

تبادل أفراد المجموعة نظراتٍ خجلة فيما بينهم.

قال "جوست" في محاولةٍ أخيرة:

- لكن...

- لا لكن، الفواتير تُدفع بالليرة التركية هنا.

بينما كان يغادر استدار وأضاف:

- ولا تتحدثوا بصوتٍ مرتفع، فهذا يزعجنا.

سار مبتعدًا وجلس في مقعدٍ وثير في الزاوية البعيدة وانهمك في قراءة الجريدة.

المرأة التي قالت لتوها إنها تحبُّ إسطنبول أخرجت ورقةً من فئة خمس ملايين ليرةٍ تركية وأعطت الجرسون إياها. ثم قالت بالإنجليزية:

- أخذتُ قهوة.

أخذ الجرسون النقود ولكنه لم يفهم الجدال الذي حدث بالألمانية، لذا نظر إليَّ بتساؤلٍ وسأل:

- ماذا حدث يا سيدتي؟

قلتُ:

- لا تهتم. سيدفعون الفاتورة بالليرة التركية.

تركنا ملحوظةً للآنسة "باور" و"أوتو" في مكتب الاستقبال ثم غادرنا الفندق. كانت مسيرة عشر دقائقٍ حتى كافيه "حصير".

قالت المرأة التي أحبَّت إسطنبول:

- نحن نحاول أن نجعل كل مكان نذهب إليه يسير وفق عالمنا الصغير، أليس كذلك؟

لقد تركت زملاءها بلباقةٍ وسارت جواري.

قلت مبتسمةً:

- تعنين مثل دفع الفواتير بالمارك الألماني؟

- نعم، هذا مثالٌ على ذلك. الأمر نفسه يسري على شرب البيرة وأكل السجق. أقشعر حين أدرك أن الأفكار العامة الشائعة عن الألمان صحيحة: لا أعرف إن كنتِ قد ذهبتِ إلى "مايوركا". لقد أنشؤوا مقاطعة ألمانية صغيرة هناك. لن تعرفي أبدًا أنكِ في دولةٍ أخرى. الطقس أكثر دفئًا بالطبع والشمس ساطعة طوال الوقت. لكن هذا كل شيء.

سألتها:

- هل عشتِ بالخارج من قبل؟

بخبرتي فقط من عاش بالخارج لديه القدرة على انتقاد شعبه، وخاصةً في حالة الألمان.

أدارت رأسها نحوي بسرعة قالت:

- يمكنكِ تخمين ذلك، صحيح؟ كنت متزوجة مصريًا. كان يعمل في وزارة الخارجية وكنا نسافر كثيرًا. حين انفصلنا عدتُ لعملي القديم. هذا الفيلم هو أول عملٍ مهمٍّ لي.

هزَّت رأسها وأكملت:

- كما ترين، لستُ محظوظةً بما يكفي. انظري ماذا حدث.

ماذا أطلب أكثر من ذلك؟ لقد دارت المحادثة حول ما أريد بالضبط دون أدنى تدخلٍ مني.

قلتُ إقرارًا وليس سؤالًا:

- تعنين جريمة القتل. برأيي، لا يبدو زملاؤك منزعجين مما حدث.

- لم يكن أحدهم وثيق الصلة بــ"مولر". فقط...

توقفت غير واثقةٍ إذا ما كان عليها إتمام جملتها. بدأت فجأة تنتبه بشدةٍ كي لا تتعثر في الرصيف غير المستوي، وهو أمر شائع في تخطيط مدينة إسطنبول. لم تبتعد عيناها عن قدميها لتنظر إليَّ لثانيةٍ واحدة.

سألتها:

- أتعنين "بيترا"؟

نظرت إليَّ بحذرٍ ثم قالت:

- إذًا أنتِ أيضًا تعرفين.

- إن كنتِ تعنين معرفتي بأن "بيترا" هي من رتَّبت العمل لـ"مولر"، إذًا، نعم سمعت بالأمر. لكن ما من علاقةٍ بينهما...

منعت نفسي بصعوبةٍ من الصراخ في وجه الذي اصطدم بكتفي بينما يمرُّ.

واصلتُ كلامي:

- تقول "بيترا" إنهما لم يكونا على علاقة.

أنا أثرثر مع تلك المرأة التي عرفتها منذ خمس دقائق وكأنها صديقةٌ قديمة. لا أشعر بالفخر بذلك.

عادت المرأة تنظر لقدميها وقالت:

- لا أظن أنهما كانا على علاقة.

هذا مثير للاهتمام.

سألتها وأنا أميل لأرى وجهها:

- لماذا؟

تأبطت ذراعي وقربت فمها من أذني كي لا يسمع الآخرون، وواصلت حديثها بصوتٍ منخفض. تخلفنا وراء المجموعة لذا لا يوجد شخصٌ قريبٌ منا ليسمعنا بأي حال.

- رأيتُ سلوكها نحو "مولر". في مطار برلين أحاط "مولر" خصرها بذراعه، فدفعت يده باشمئزازٍ حقيقي وابتعدت فورًا. وبعدما وصلنا إسطنبول رأيتهما يتناولان الفطور معًا. أنا... لا أريد المبالغة لكنني أستشعر تلك الأمور. لن تتصرف امرأة هكذا أبدًا مع رجلٍ تواعده أو ستواعده. أنا واثقة أنهما لم يكونا على علاقةٍ قط.

ضمَّت شفتيها، ثم أضافت:

- لا أظن أن هذا كان محتملًا قط.

قلتُ:

- لكن لا دليل على عدم وجود علاقةٍ بين "بيترا" والمقتول.

- دليل؟

رفعتْ رأسها ونظرت إليَّ وكأنها تسألني: ماذا أريد أكثر من ذلك؟

"جوست"، قائد المجموعة الطبيعي، كان ينادينا من الأمام. صِحتُ مجيبةً من الخلف أننا لم نصل كافيه "حصير" بعد.

سألت المرأة:

- حسنًا، مَن تظنين أنه القاتل؟

شعرتُ أن لها رأيًا في الأمر.

- لا أظنه شخصًا ضمن طاقم الفيلم. لا بد أنه شخصٌ من الخارج. ربما اتصل بعاهرة تلك الليلة.

توقفتْ وتنهدتْ قائلةً:

- تعرفين، كان من ذلك النوع من الرجال الذين ينامون مع العاهرات. ربما لم يدفع للمرأة وغضبت و...

قالت ذلك ورفعت ذراعها اليُسرى وفتحت أصابعها وكأنها تسقط شيئًا ما على الأرض.

سألتُها:

- لماذا لا تظنين أنه أحد أفراد الفريق؟

قالت أخيرًا:

- لمَ لا؟ يمكنكِ قول الكثير من الأمور عن الطاقم، لكن أحدهم لا يملك الجرأة لذلك.

- إذًا هذا حدس...

- نعم، حدس.

توقفت ثم أضافت:

- لكن لا تستهيني بحدسي.

ابتسمت.

سألتُها عن الأمر الذي يشغل عقلي:

- تعنين أن العلاقة بين "بيترا" و"مولر" مجرد إشاعة؟

- برأيي، نعم.

- مَنْ برأيك بدأ تلك الإشاعة؟

- لا أعرف مَنْ بدأها، لكنه تمكَّن من إقناع الفريق بأكمله بذلك.

تأبطت ذراعي مجددًا ثم ابتسمت بإحباط وقالت:

- أترين، حتى أنتِ اقتنعتِ.

لم تكن قبيحةً حقًّا، كانت تكبرني بأربع أو خمس سنوات إلا أن طراز ملابسها وتصرفاتها تجعلها تبدو كبيرة السن.

نظرتُ حولي في محاولة للهروب من تلك الثرثرة، ورأيت أننا تخطينا كافيه "حصير".

الكافيه معروفٌ لدى رواده المعتادين من إسطنبول باسم "كافيه الحصير المجاور لقسم الشرطة". الكافيه موجود في حي "طارلاباشه" تحت مستوى الشارع كالقبو، يتم النزول له بمجموعة سلالمٍ ذات سقفٍ منخفض. عندما يسأل أي شخصٍ لماذا يفضِّل هذا القبو على نسيم المساء المنعش في المقاهي ومطاعم السمك المطلة على خليج البوسفور، يجيبك دومًا بالرد نفسه وكأنهم متفقون: "إنهم يقدمون مقبلاتٍ رائعة في كافيه الحصير".

بمجرد أن رأى الجرسون الرئيسي مجموعة السياح الكبيرة عند الباب، لوَّح بيده إلى مجموعته الصغيرة من السقاة المبتدئين وأمرهم بضمِّ بعض الترابيزات معًا.

أخيرًا تمكنًا من الجلوس، وقد حظيتُ بشرف الجلوس بين الرجلين ذوي الوجهين الزهريين. لم أعترض لأن الكرسي المقابل لي كان فارغًا وتمنيت أن تأتي الآنسة "باور" سريعًا وتجلس فيه.

بحلول الوقت الذي ظهر فيه "أوتو" المراسل الألماني في تركيا والآنسة "باور"، كنا قد تناولنا نصف المقبلات. كان ذوا الوجهين الزهريين مخمورين بالفعل بسبب البيرة التي تناولاها في الفندق مسبقًا. لم تجلس الآنسة "باور" مقابلي كما تمنيت، لكنها جلست جوار "جوست" في طرف الترابيزة الآخر. ومما سمعته فهمت أنها بدأت فورًا تُبرِّر أسباب تأخرهما. حتى بالنسبة لشخصٍ لا يملك حدسًا متطورًا يمكن القول إنها و"جوست" أكثر من مجرد صديقين.

ليس لديَّ خيار سوى بدء محادثةٍ مع "أوتو" الذي جلس مقابلي. قلت:

- أخبرني "جوست" أنك تعيش في إسطنبول.

- من الأفضل القول إنني أعمل في إسطنبول.

هل يقصد أن إسطنبول لا تصلح للعيش؟

- ألا تحب المدينة هنا؟

- كلا، على الإطلاق. كيف لي أن أفعل؟

- أنا أحبها.

ضحك بازدراء وقال:

- أنتِ لا تعيشين في إسطنبول، هذا هو السبب. أظنها مدينةً جذابةً للغاية للسياح وطعامها رائع.

- أنا لست سائحة. أنا أعيش هنا منذ ثلاثة عشر عامًا.

- ثلاثة عشر عامًا؟

أومأت برأسي وقلت:

- وأنوي العيش هنا ثلاثة عشر عامًا أخرى.

لم يبدُ مهتمًا بالجدال معي لأنه أبقى رأسه منخفضًا ناظرًا إلى طبق المقبلات الخاص به حتى سأله الجرسون ماذا يريد أن يشرب.

حين سمعته يطلب من الجرسون بالإنجليزية كأسًا من النبيذ الأبيض، أدركت أنها فرصتي. اندفعت قائلة:

- لا بد أنه من الصعب فهم دولةٍ ما والكتابة عنها دون أن تعرف لغتها.

لم أهتم، فالسخرية منه أفضل من محاولة الحديث مع ذوي الوجهين الزهريين على جانبيَّ.

قال:

- لا يمكننا تعلم لغة كل دولةٍ نذهب إليها. يتم نقلنا من دولةٍ لأخرى كل بضع سنوات. أي لغةٍ عليَّ تعلُّمها؟

- لكن إن كنتَ لا تعرف اللغة لن تستطيع قراءة الجرائد ولن يمكنك الجلوس في المقاهي والحديث مع الناس.

قال في محاولةٍ أخيرة لإنهاء المحادثة:

- أنا أعمل مع مترجم.

قلتُ بنبرةٍ رومانسية:

- إن عرفتَ التركية ستحب إسطنبول.

وبالصوت الرومانسي نفسه، أضفتُ:

- كما قال أحد شعراء إسطنبول: "مَنْ لا يحب إسطنبول، لا يعرف معنى الحب"...

ثم فجأة قررتُ أن أصبح أكثر جدية، فسألتُ:

- هل كتبت مقالاتٍ عن جريمة القتل؟

كان الرجل يحاول فهم الصلة بين المواضيع المختلفة وحالاتي المزاجية المتغيرة. ثم قال أخيرًا:

- نحن لم نتقابل مِن قبل، صحيح؟

مددتُ يدي وقلتُ:

- عرفتُ مِن "جوست" أن اسمك "أوتو". أنا "كاتي هيرشيل".

صافح يدي بضع مراتٍ بأصابعه الضخمة وهو يقول:

- "أوتو فريش"، ناديني "أوتو".

- ويمكنك مناداتي "كاتي".

فجأة أدركتُ أن جميع الرؤوس كانت تنظر إليّ. كان الجرسون يقف ممسكًا بقلمٍ وورقة بانتظار تدوين الطلب. أشرتُ بيدي نحو "أوتو" ثم استدرتُ إلى يساري.

قالت المرأة التي تحب إسطنبول وهي تميل لتنظر إليّ:

- هل نأكل السمك؟

- أظن ذلك.

ثم دخلتُ في مناقشةٍ مع الجرسون لأعرف ما نوع السمك المتداول في هذا الموسم.

حين قررتُ أنه يمكننا تناول سمك الدنيس كان الآخرون ما زالوا ينظرون إليّ. قلتُ لهم:

- أنا لا أعرف الاسم الألماني للسمك الذي طلبته.

قالت المرأة التي تحب إسطنبول وهي تعتدل في كرسيها:

- سنرى ما هو حين يصل.

ربت "أوتو" على جيب قميصه وقال:

- لديَّ قاموسٌ، لنرَ ما هو.

مستحيل أن يكون لديه قاموس "شتويرفالد" ألماني/تركي بصفحاته الألف في جيب القميص ذاك. في الحقيقة لقد أخرج قاموسًا صغيرًا أصفر اللون غلافه بلاستيكي اسمه "لانجنشيدت"، ولوَّح به في الهواء.

قلتُ له:

- لا تزعج نفسك بالبحث، لن تجد الكلمة هنا.

سأل بعناد:

- كيف تُكتب؟

بدأت أتهجأ له الكلمة.

بعد البحث عنها بتفاؤلٍ قال:

- أنتِ على حَقٍّ. إنها ليست هنا.

كان الرجلان زهريا الوجه صامتين لبعض الوقت، ثم فجأة بدآ بالحديث معًا.

سألت الذي على يميني:

- أتودُّ تبديل مكانك معي؟

هذا يعني أنني كنتُ على بعد كرسيٍّ واحدٍ عن باقي الطاقم، لكن على الأقل هربت من الأنفاس المشبعة برائحة البيرة الصادرة من ذوي الوجهين الزهريين.

سألت "أوتو" مجددًا:

- هل كتبت مقالًا عن جريمة القتل؟

- نعم، لمَ تسألين؟

- لقد قرأتُ ما كتبته.

- لم أكتب الكثير. أشكُّ في وجود معلوماتٍ أخرى تستحق الكتابة عنها.

- لماذا؟

هل أنا الوحيدة التي لم تفقد الأمل بعد؟

- بلا أي سببٍ على الإطلاق. إنها جريمة قتلٍ مستعصية. أجريت مقابلةً صحفية اليوم مع المفتِّش المسؤول عن التحقيق في تلك الجريمة، ستُنشر غدًا. يقول إنهم لا يملكون مزيدًا من الأدلة ويستعدون لغلق ملف القضية. وهو ما سيحدث بعد بضعة أيام.

- مع مَنْ تحدثت؟

سأل وهو يحاول ابتلاع قطعة سردين:

- أتعرفينه؟

- أعرف شخصًا في المباحث الجنائية.

أخرج مفكرة من جيب القميص نفسه الذي يحتوي على القاموس وبدأ في تقليب الصفحات. ثم قال:

- "باتوهان أونال"، أتعرفينه؟

أجبت بهدوء:

- لا، هل قال إنهم يعجزون عن حل تلك الجريمة؟

- بالطبع لم يقل ذلك. هذا ما فهمته مما قال. عجيبٌ أمرهم، إنهم يرفضون تمامًا تدخل الشرطة الألمانية في التحقيق. إن كانوا يعترفون بعجزهم عن حل القضية، فلمَ لا يقبلون المساعدة؟ لا أفهم.

- ألم تقل للتو إنه لا توجد خيوط أدلة؟

- بلى.

- إن كانت لا توجد خيوط أدلة، فماذا في يد الألمان ليفعلوه؟

- حسنًا، الأمر ليس كذلك. لو كانت الشرطة الألمانية هنا لوجدوا خيطًا لاتباعه.

وجدتُ صعوبةً في منع نفسي من لكمه والضحك بصوتٍ عالٍ. قلت له:

- من اللطيف أنك تثق بقْدرة الشرطة الألمانية. معرفتي بالشرطة الألمانية هي أنهم مشهورون بقتل الرهينة للقبض على المجرم.

أعاد "أوتو" المفكرة إلى جيبه وهَزَّ رأسه بغضب. من الواضح أنه لا يوافق على موقفي المعادي للألمان.

سألته:

- مَنْ تظنه القاتل؟

قال بتجهُّم:

- لا أحبُّ هذا النوع من التخمينات.

قلتُ:

- هيًا فلتخمِّن. ألا تلعب قمار أبدًا؟

انزعجَ بشدةٍ ولم يجب. حتى سمك الدنيس المتبل والجرجير والذي ابتلعه دون مضغ لم يكن كافيًا ليبدد غضبه نحوي.

بينما أتناول سمكتي في صمتٍ أربكني أدركتُ أنني لن أتمكن من محادثة الآنسة "باور" وهي تجلس في آخر الترابيزات الثلاث المضمومة معًا وأنا في الطرف الآخر. بينما يزيل الجرسون الأطباق اقترحت أن نتناول مشروبًا في كافيه قريب. قال معظم أفراد الفريق إنهم يرغبون في العودة للفندق لأنهم متعبون ونالوا ما يكفيهم يومًا واحدًا. "بيترا" كانت من بين من يرغبون في العودة.

بدأت أتمشَّى في الشوارع الخلفية في منطقة "باياغلوا" متجهةً إلى كافيه "كاكتوس" مع "جوست" والآنسة "باور" و"أوتو" والمرأة التي تحب إسطنبول والتي اكتشفت أخيرًا أن اسمها هو الآنسة "وولف". أثناء سيرنا تصرفت كمرشدٍ سياحي. أشكُّ في أننا سنجد مكانًا في كافيه "كاكتوس" لكننا سنحاول. وإذا لم نجد فسنذهب إلى واحدٍ من الستة آلاف كافيه أو بار في أنحاء

منطقة "باياغلوا" الواسعة، يزيد عدد تلك الأماكن على عشرة آلاف لو أحصينا غير القانونية منها.

رغم الزحمة فقد وجدنا ترابيزة في كافيه "كاكتوس" كان قد رحل زبائنها لتوِّهم، وهذا هو ثاني أمرٍ جيد يحدث اليوم بعد حجر تذكرة لبرلين. لم يفت الآنسة "وولف" أن الساقي "فاحيت" حيَّاني كوني صديقةٍ قديمة.

قالت فور جلوسنا:

- مِن الواضح أنكِ معروفةٌ للغاية هنا.

ابتسمتُ بتواضع.

أرجعت الآنسة "باور" شعرها الأحمر الناري للوراء وقالت:

- أنت بائعة الكتب صديقة "بيترا"، صحيح؟ رأيتك في المطار يوم وصولنا إلى إسطنبول.

- لديك ذاكرة ممتازة.

كان صعبًا تمييزي وسط تلك الحشود ثم التعرف عليَّ لاحقًا.

كانت الآنسة "وولف" هي مَن بدأت الحديث عن جريمة القتل. انتهز "أوتو" الفرصة وكرَّر ما أخبرني به على العشاء. أثناء حديثه ركزت على وجه الآنسة "باور" للتأكيد. إما أن تلك المرأة قاتلة متحجرة القلب وإمَّا أن حدسي خاطئ تمامًا ككل حدسٍ آخر ليّ. كان صعبًا على عقلي تخطي هذا الأمر. كان وجهها خاليًا تمامًا من التعابير. لمرةٍ واحدة اتبعت أسلوب الصدمة، فقلت للآنسة "باور" بمجرد أن توقف "أوتو" عن الكلام:

- في الواقع المستفيد الوحيد من تلك الجريمة هي أنتِ.

التفتت الرؤوس الأربعة نحوي، وشعرت بضرورة تخفيف حدة الموقف:

- أمزح فقط، أفكر بصوتٍ عالٍ... لقد أسأتم فهمي.

ضحكت الآنسة "وولف" وقالت:

- لا يمكنكِ حقًّا قول إن "أنيت" استفادت من الجريمة، فهي الآن مضطرةٌ لتحمل الكثير من المسؤوليات الإضافية.

قلتُ وكأن المرأة ليست هنا:

- لمَ لا؟ لقد نالت ترقية.

سأل "أوتو":

- ألا تبالغين في تبسيط الأمور؟

قال "جوست":

- بلى، حقًا.

قلت:

- حسنًا، إنه بسيط.، القتل سهل. نحن نتحدث عن قتل رجلٍ بدافع الشرف أو المال أو الحب أو الانتقام أو الجنس. ما المُعقَّد في ذلك؟

قال "أوتو" وقد ظن أنه حاصرني:

- ربما لدى القاتل دافعٌ آخر.

- أعطيني دافعًا آخر.

بينما أقول ذلك خطر ببالي أن القاتل ربما لديه دافعٌ سياسي، لكني لم أتفوَّه بشيء.

قال "أوتو":

- لا يمكنني التفكير في شيء الآن. لكن مهما يكن الدافع، إنها جريمةٌ بلا أدلة.

لوَّحت بإصبعي تجاهه وقلت:

- ألم تقل إنها جريمة بلا أدلة بالنسبة للشرطة التركية فقط؟

أطلقت الآنسة "وولف" ضحكةً مُجلجلة وقالت:

- أتقولين إنه لو كانت المحققة الخيالية الآنسة "ماربل" من روايات "أجاثا كريتسي" كانت هنا لحلت اللغز؟

فهم "أوتو" ما عنيت، لذا أطبق شفتيه.

قالت الآنسة "باور":

- أظنكِ على حَقٍّ. المستفيد الوحيد من جريمة القتل تلك هو أنا.

قال "جوست":

- لا تكوني سخيفةً يا "أنيت".

ثم نظر إليَّ مباشرةً ليؤكد لي أنه يقول الحقيقة وقال:

- كنا معًا ليلة الجريمة. "أنيت" لم تتركني قط.

هذه ليست أخبارًا جديدةً عليَّ، لكن الأمر استحق التضحية بالأمسية لسماعهما يعترفان بذلك أمام الجميع.

شعر "جوست" بحاجته لشرح الأمر للآخرين:

- سأُطلِّق زوجتي. وأنا و"أنيت" سنكون معًا.

ابتسمت الآنسة "وولف" بتعاطف.

"جوست" الآن يمسك يد الآنسة "باور" بإحكام. أعطاني نظرةً جانبية طويلة ثم قال:

- ليلة مقتل "كيرت" حل الفجر قبل أن...

أوقف جملته ثم أزاح شعر الآنسة "باور" الأحمر وطبع قبلةً على طرف أذنها ثم قال:

- كنا معًا طوال الليل. لم تتركني "أنيت" ثانيةً واحدة.

قالت الآنسة "باور" وهي ترفع كأسها نحوي:

- عذرًا عزيزتي المحققة آنسة "ماربل".

8



استيقظتُ على صوت جرس التليفون.. كانت "لالي"، التي أخبرتني أنها لن تستطيع اصطحابي للمطار لأنها ببساطة عليها الذهاب إلى المكتب. هذا يعني أنه عليَّ إيجاد تاكسي في مطلع الفجر، لكنني مع هذا كنتُ سعيدة لأن "لالي" ذهبت للعمل في موعدها المبكر المعتاد.

ارتديتُ ملابسي وأصبحتُ جاهزة للخروج، أغلقتُ باب البلكون، وتفحَّصت النوافذ مئة مرة، واتصلتُ بصاحبة العمارة في الطابق الأخير لأخبرها أنني سأتغيب عشرة أيام. كانت الساعة الحادية عشرة حين غادرت المنزل. لا أؤمن حقًّا بضرورة الذهاب للمطار قبل إقلاع الطائرة بساعتين، لكن السبب الوحيد لذهابي مبكرًا هكذا كان لكي أتأكد من أنه قد تم إرسال تذكرة باسمي إلى المطار بالفعل.

حين طلبت من سائق التاكسي اصطحابي للمطار لم يقل: "هل يمكنكِ إرشادي لهناك يا سيدتي؟" ولم يشغِّل موسيقى تركية، ولم يعطني أعذارًا لأخذه أكثر من أجرته لأنه لا يملك فكَّة.

وفي المطار كان كل شيءٍ منظمًا. بعد ثلاث دقائق من إعطاء مكتب الخطوط الجوية التركية اسمي، أخذتُ التذكرة.

باختصار إنه يوم حظي.

لم أُضِع وقتي في النظر إلى المحلات في السوق الحرة، بل توجهت مباشرةً إلى البوابة الحادية عشرة لأستقل طائرتي التي تم الإعلان عن اقتراب موعد إقلاعها.

كانت الطائرة ممتلئة. ما إن صعدت على متنها حتى شعرت بالهواء يضغط على وجهي. المكان الوحيد الذي أجده دومًا مكتظًا بالناس في إسطنبول هو المطار في أثناء استقلالي طائرة برلين. أجل، لقد بدأت الصدمة الحضارية بالفعل تفعل أفاعيلها معي.

واجهتُ صعوبة في الوصول إلى مقعدي بسبب العمَّال المهاجرين الذين يدفعون حقائبهم وأمتعتهم المكدسة أمامهم في ممر الطائرة الضيِّق. جلستُ إلى جوار سيدةٍ سمينة ومسنة ترتدي حجابًا، كانت تبحث بشوقٍ عن ضحيةٍ تبادلها الأحاديثِ السخيفة. أخرجتُ كتابًا فورًا وبدأت أقرؤه، وقبل أن أنهي قراءة الجملة الأولى، حاولتِ السيدة بدء محادثة معي. تظاهرتُ بأنني سائحة ألمانية لا تجيد التركية، وهذا ما أفعله دومًا في سفري إلى برلين إن ساءت الأمور.

سألت السيدة المسنة وهي تثبت طرف حجابها:

- أتعيشين في برلين؟

ابتسمتُ وقلت بالألمانية:

- "لا أتحدث التركية".

قالت السيدة:

- آه، هكذا!

ثم استدارت بأمل إلى سائحةٍ ألمانية أخرى ترتدي شورت وتجلس من ناحيتها الأخرى.

عدتُ لكتابي دون لمحةٍ من تأنيب الضمير. هذه المرة وصلت لنهاية الجملة قبل أن أجد إحدى المضيفات بجواري وتتحدث إليَّ بالألمانية:

- عذرًا، هل تمانعين في تغيير مقعدكِ؟

سألتُ وأنا أحاول إيجاد تذكرتي في جيب المقعد الذي أمامي:

- لماذا؟ هل أجلس في المقعد الخطأ؟

قالت المضيفة التي بدت كالدُّمية بمساحيق تجميلها الكثيفة:

- لا، لا، أنتِ في المقعد الصحيح.

- إذًا لماذا؟

- أحد السادة يجلس إلى جوار سيدتين، ولكنهما ترفضان الجلوس إلى جوار رجل. ولا توجد مقاعد شاغرة في الطائرة، لذا تساءلت" أيمكنكِ تبديل مقعدكِ مع السيدة؟

أشرتُ إلى السيدة الجالسة إلى جواري وقلت:

- لا تسأليني، بل اسأليها هي. صدقيني عندها سيرتاح الجميع.

نظرت المضيفة إليَّ باستغراب ثم استدارت إلى السيدة العجوز وكررت الكلام نفسه بالتركية. لم تنتظر السيدة لتكرار الطلب. خرجت من مقعدها بصعوبة لكن بسرورٍ غامر لأنها ستهرب من رفيقتي سفرها اللتين لا تتحدثان التركية. بينما تتقدم السيدة للأمام مددتُ رأسي لأرى ذلك "المنحرف" الذي سيأتي ليجلس إلى جواري.

منذ قليل كان كل هؤلاء الجالسون يقفون في الممر ويضعون حقائبهم على الحوامل المعدنية فوقهم. بغضّ النظر عن السيدة المحجبة التي تتهادى إلى مقعدها الجديد. الشخص الوحيد الذي كان واقفًا كان طويلًا رمادي الشعر ويتحدث مع المضيفات. استقمتُ في جلستي كي أراه بشكلٍ أوضح.

يا إلهي! يا له من رجل!

فكرتُ في نفسي: "لا يمكن أن يكون هذا الرجل". أي امرأةٍ تلك التي ترفض الجلوس إلى جواره؟! والأكثر من ذلك، كيف ترفض أن تلمس قدماه قدميها! أعني.. ذلك الرجل هبةٌ من الله إلى نساء الأرض.

شكر المضيفات وتحرك إلى المقعد المجاور لي.

قلت لنفسي: "لا تمنِ نفسك. على الأرجح هو ذاهبٌ إلى الحمام".

وصل إلى مقعدي وقال بالألمانية:

- أعتذر لإزعاجك.

نهضتُ واقفة حتى يستطيع المرور ليجلس. بعد أن استقررنا في مقعدينا نظرتُ إليه بطرف عيني وهو يثبِّت حزام مقعده ثم يلتقط كتابًا ضخمًا وبعض الجرائد من حقيبته ويضعها في جيب المقعد الذي أمامه. لم أكن واثقة كيف أبدأ معه حديثًا. قبل الإقلاع بحثت عن أفضل ما أقوله لإظهار كم أنا لطيفةٌ ورائعة. في النهاية أشرتُ إلى بعض الجرائد الملفوفة في يده وسألت:

- أيمكنني إلقاء نظرةٍ على جريدة "جوناباكان" التي معك؟

بدا مندهشًا ثم التفت إليَّ وقال:

- للأسف لم أشترِ جريدة "جوناباكان". لكن المضيفة ستحضر الجرائد بعد قليل.

مال الرجل الجالس إلى جوار النافذة لينظر إليَّ. تساءلت: هل سمعني وأنا أقول للسيدة المحجبة أنني لا أتحدث التركية؟ لكنني لم أهتم.

سألت وقد استلهمتُ أفكاري من السيدة المحجبة:

- هل تعيش في برلين؟

- كلا، أعيش في إسطنبول.

بدا واضحًا أنه قليل الكلام. لكنني ما إن أقرر أمرًا لا أتراجع مهما يكن الثمن. وهو ما أفعله الآن. قلت له:

- وأنا أيضًا أعيش في إسطنبول.

أومأ برأسه.

أضفتُ:

- كانت هناك مشكلة بخصوص المقاعد كما أظن؟

قال:

- أنتِ تعرفين ما حدث.

- سألتني المضيفة: هل أوافق على تبديل مقعدي معك؟

بدا مصدومًا وهو يقول:

- إنها المرة الأولى التي يحدث فيها شيءٌ كهذا لي. دومًا أسافر في درجة رجال الأعمال، لكنِ هذه المرة حجزت في اللحظة الأخيرة وكان هذا هو المقعد الشاغر الوحيد. ما حدث في المطار كان سيئًا بما يكفي، لكن هذا...

هز رأسه بعدم تصديق وهو يضيف:

- أن يطلب أحدٌ المضيفة ويقول لن أجلس إلى جوار هذا الرجل، هذا يبدو وكأن هناك اعتراضًا شخصيًا عليَّ...

- أوه لا. في الواقع لا يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لي. إذا كان لا يمكنك الجلوس إلى جوار امرأة في الأتوبيسات، فلمَ لا يحدث الأمر نفسه على الطائرة؟

ضحك وقال:

- أظنكِ تعيشين في تركيا منذ فترةٍ طويلة.

- طويلة بما يكفي.

- لا أعترض على جلوس بعض السيدات إلى جوار بعض لكن...

كان يأخذ الأمر على محمل الجد للغاية.

قاطعته قائلة:

- لا أظن أنه عليك القلق حيال ذلك.

استطعتُ منع نفسي من قول: "أنا واثقة بوجود الكثير من السيدات المستعدات للتضحية بحياتهن للجلوس إلى جوارك".

وثَّقنا معرفتنا ببعضنا البعض بينما تستعد الطائرة للهبوط في برلين. إنه محامٍ مختص في القضايا التجارية الدولية. بالإضافة إلى أنه أعزب وبلا حبيبة، كما فهمتُ من إجاباته على أسئلتي غير المباشرة. حسنًا، أنا أفهم حقيقة كونه محاميًا، لكنني ببساطةٍ لا أستوعب كيف يمكن أن يكون أعزب. حاولت سنوات دحض نظرية "لالي" القائلة: إن كل الرجال الجذَّابين في إسطنبول إمَّا متزوجون وإما مثليون، لكن يبدو أن هذا الوسيم سيثبت خطأ نظريتها هذه الآن.

يراودني شعورٌ أنكم تتساءلون: كيف أكون واثقةً أن "سليم" ليس مثليًّا؟ وبالمناسبة "سليم" هو الرجل الذي أجلس إلى جواره منذ ثلاث ساعات. حسنًا، سأقول الآن كما قالت الآنسة "وولف" ليلة البارحة: "إنه إحساس، وعليكم الثقة بي". أهذا كافٍ لكم؟ قد يعترض بعض القراء قائلين إنه لا يمكن الثقة بحدسي حين أقوم بحلِّ جرائم القتل. أقول لهم ببساطةٍ: إن لكل شخصٍ مجال اختصاص، وفي هذا الوقت اختصاصي ليس القبض على المجرمين.

"سليم" كان ذاهبًا إلى فندق "هيلتون" في ميدان "جيندارمين" ببرلين. كان ذلك الميدان يقع على الحدود مع برلين الشرقية، وبعد انهيار جدار برلين جذب العديد من الاستثمارات وصار مكانًا ترفيهيًّا لشباب الطبقة المتوسطة.

سرنا إلى طابور سيَّارات التاكسي أمام مطار "تيجيل"، ذلك المكان البشع خارج ضواحي المدينة. قال "سليم":

- سأوصلكِ أولًا ثم سأذهب إلى فندقي.

- سأذهب مباشرةً إلى المستشفى.

- ماذا ستفعلين بشأن حقيبتكِ؟

لم أعتد قط السفر بأمتعةٍ قليلة، لذا كنتُ معتادةً كون أمتعتي مشكلة.

- سآخذها معي إلى المستشفى.

وصلنا إلى أوَّل تاكسي كان واقفًا في مقدمة ذلك الطابور الطويل. وعندما رأى السائق حقائبنا سارع بفتح حقيبة السيَّارة الخلفية.

سأل "سليم":

- أين ستقيمين؟

- في منزل أمي، لكن عليَّ إحضار المفتاح أولًا، كما أريد الحديث مع أطباء أمي بأقصى سرعة. لذا عليَّ الإسراع إلى المستشفى أولًا.

وضع السائق الحقائب في السيَّارة بسرعة ثم ذهب إلى مقعد القيادة.

قلتُ له:

- ستذهب أولًا إلى مستشفى "أوربان" ثم إلى مكانٍ آخر.

قال "سليم":

- يمكنني أخذ حقيبتكِ إلى فندقي ثم يمكنكِ القدوم لأخذها حين تنهين أمورك.

سعلتُ وكأن هناك شيئًا عالقًا في حلقي.

قال:

- هل المسافة بعيدةٌ من المستشفى للفندق؟

قلتُ:

- لا.

أي امرأةٍ بعمري ولا تملك حبيبًا تتعلم قراءة معاني سلوك الرجال. لقد قدَّم "سليم" اقتراحين في خمس دقائق، وقد فهمتُ من ذلك أن اهتمامه بي يساوي

اهتمامي به. الرجال يختلفون عن النساء، فهم يتصرفون دومًا ببعض الأنانية، دومًا يملكون أهدافًا دفينة. هذا يعني احتمالين. إما أن "سليم" يأخذ حقيبتي ويأخذني من مكان لمكان لأنه معجبٌ بي، وإما أنه يلازمني لأنه لا يعرف المدينة جيدًا ولا يريد أن يكون بمفرده فيها.

قررتُ تجاهل أفكاري السلبية حاليًا والاستمتاع باللحظة. على أي حال عليَّ تنحية أفكاري والتركيز على أمي الراقدة في المستشفى.

قالت أمي وهي تضع يديها المعروقتين بلونيهما البنفسجي على بطنها:

- الكسور تلتئم ببطءٍ لدى كبار السن.

ساعة كاملة ظلت تتحدث عن الأمراض والعلاج. لذا أردتُ تغيير الموضوع، فقلتُ وأنا ألمس يدها اليسرى:

- لمَ لا تضعين المانيكير؟

ضحكت هازئة.

منذ ساءت صحتها، لم تعد تقدر على الذهاب إلى الكوافير، أي منذ أربع سنواتٍ على الأقل، كانت تأتي امرأة كل أسبوعين للاعتناء بيديها وكل شهرٍ لصبغ شعرها.

قالت دون أن تبعد عينيها عن يديها:

- لن أزعج نفسي بعمل يدي بعد الآن.

قررتُ إرسال كوافيرة إليها في المستشفى في اليوم التالي لعمل يديها.

قالت وكأنها تقرأ أفكاري:

- لا أريدُ ذلك هنا.

ثم أضافت:

- أنا جادة. إن أردتِ حقًا القيام بشيءٍ لأجلي أحضري كوب قهوةٍ لذيذًا غدًا. ما يحضرونه لنا هنا أشبه بماء غسيل الصحون. لمَ كنت أدفع للتأمين الصحي الخاص طوال تلك السنوات ما دمتُ لن أستطيع تناول كوب قهوةٍ لائق؟ لديَّ غرفةٌ خاصة، هذا كل شيء. أفترض أنه عليَّ الشعور بالعرفان لهذا. لو كنت في غرفةٍ بسريرين ومعتركي في الغرفة نفسها، لكان عليكِ إخراجي من هنا في كفني. أحيانًا يصعب القول: أهذا مستشفى أم مكان للتنزه؟ كل ما تحتاجينه هو أحدهم يرقد في المستشفى بانتظار مئة زائر...

استقامت قليلًا لتشير إليَّ بتعديل وضعية وسائدها ثم واصلت:

- كما أنهم لا يعرفون اللغة الألمانية. قلتُ للممرضة التركية أن الأتراك في تركيا يجيدون الألمانية أفضل مما تفعل هي. لم تُبدِ أي رد فعل على الإطلاق. إنها لا تتفاعل معي على الإطلاق. والآن يأخذون أموالنا ويصرفونها على دروس الاندماج مع المجتمع للأتراك. ستدفع ثمنها السيدة "هيرشيل"؟

وضعت يدها على قلبها مع تلك الجملة الأخيرة. ثم أشارت إلى الأرفف المجاورة لسريرها وقالت:

- ناوليني تلك الجريدة.

قلَّبت الصفحات ثم لوَّحت بالجريدة أمام وجهي قائلة:

- انظري، اقرئي ذلك.

- سأبتاع جريدة عندما أغادر يا أمي. سأذهب للحديث مع طبيبك. عليكِ أن تهدئي وإلا سيرتفع ضغط دمكِ.

- أوه نعم، سيرتفع ضغط دمي. عليَّ ألا أنفعل.

قبَّلت غمازتيها اللتين ضاعتا وسط البقع البنية التي ملأت وجهها، ثم قلتُ:

- سأذهب.

- أولًا، اطلبي تلك الممرضة التركية ليّ.

- أخبريني ماذا تريدين.

- كلا، اطلبي الممرضة.

خرجت بينما دخلت الممرضة.

تجاهلتُ سيَّارات التاكسي الواقفة أمام المستشفى. قررتُ السير لتصفية ذهني. قال الطبيب إن بإمكان أمي مغادرة المستشفى متى شئت. المشكلة الوحيدة هي توفير دار رعايةً لها.

قال الطبيب إن بإمكانه ترشيح دور رعاية ممتازة. لكن المشكلة في إقناع أمي بالبقاء في دار رعاية، وهو ما لا يبدو ممكنًا لي.

استمررتُ بالمشي سريعًا. كنتُ أتحدث إلى نفسي محاولةً إيجاد كلماتٍ منطقية يمكنني إقناع أمي بها. "ستنالين رعايةً أفضل هنا يا أمي، وستحصلين على العديد من الأصدقاء"، "من الصعب على كبار السن العيش في المدن الكبيرة... يمكننا إيجاد دار رعايةٍ أينما تحبين. هناك واحدٌ حتى في "مايوركا" حيث يقيم فيها الألمان. والعاملون هناك ألمان. وهناك أيضًا في "بلوك فوريست"...". ظللتُ أحدِّث نفسي.

عندما وصلت للفندق الذي يقيم فيه "سليم" كان وقت الغروب. عبرت الباب الدوَّار واقتربتُ من موظفة استقبال تبدو ودودة وابتسمت. كنتُ على وشك فتح فمي حين أدركتُ أنني لا أعرف الاسم الكامل لـ"سليم".

قالت موظفة الاستقبال وهي تنظر إلى فمي نصف المفتوح:

- هل يمكنني مساعدتك؟

قلتُ:

- يُفترض بي مقابلة أحد نزلاء الفندق، لكنني لا أعرف اسمه بالكامل. إنه تركي ووصل باكرًا هذا الصباح. اسمه "سليم".

احمرَّ وجهي حرجًا.

- في الواقع لا يُسمح لنا بإعطاء أرقام غرف نزلائنا لأي شخص، لكن...

نظرت حولها ثم أضافت ضاحكة:

- لمرةٍ واحدة سأقوم باستثناء. كيف يُكتب اسمه؟

أمليتها الاسم. نظرت الموظفة إلى الكمبيوتر أمامها وصمتت لبعض الوقت. استمعت إلى صوت تكتكة أصابعها على لوحة المفاتيح.

توقف صوت التكتكة وقالت:

- وجدته. إنه "أوزتورك". إنه اسمٌ تركي على الأرجح، صحيح؟

ابتسمت وأنا أومئ برأسي.

- غرفة رقم ٥٣٢. يمكنكِ الاتصال بتليفون غرفته من هنا.

طلبتِ الرقم ثم أعطتني السماعة.

قال "سليم" بمجرد أن سمع صوتي:

- سأنزل فورًا. لنخرج ونأكل.

في الواقع كل ما أردته حقًا هو الاستحمام ومشاهدة فيلمٍ من الدرجة الثانية، بدلًا من الخروج للعشاء. آخر ما أردته هو أن أضطر لسحب حقيبتي حتى منزل أمي. جلستُ أنتظره في أحد المقاعد المريحة لصالة الاستقبال حيث يمكنني رؤية المصعد.

خرج "سليم" من المصعد بعد بضع دقائق. شعرتُ بالاضطراب في معدتي. يا له من وسيم! ظللتُ جالسةً في مقعدي أتفحص بنيته الجسدية وهو يسير نحوي، ثم تمعنت في وجهه عندما وقف إلى جواري. نظرت في عينيه... تتداخل فيهما درجات اللون الأخضر مع اللون البني. أمسك يدي بين يديه وسحبني

إليه ثم ضغط خده على خدي. كان خده ناعمًا وبلا أثرٍ لعطر ما بعد الحلاقة. لذا استنشقت رائحته الطبيعية، رائحته الرجولية. منعت نفسي بصعوبة من الهمس في أذنه قائلة: "انسَ العشاء، لنصعد إلى غرفتك".

سألته:

- أين سنأكل؟

قال بوجهٍ جادٍّ:

- هناك مطعم كبابٍ لذيذ بالقرب من هنا.

عندها أدركتُ لماذا أكره الألمان الذين يداومون على شرب البيرة، والأتراك الذين يداومون على أكل الكباب.

ثم قال وهو ينظر إليَّ متعمدًا إثارتي:

- أم أنكِ تودين أخذ حقيبة سفرك والعودة لمنزل والدتك؟

- ظننتُ أن المحامين لا يمزحون.

- التعميم ليس جيدًا.

ضحكتُ، ورأيت عن بُعد موظفة الاستقبال وهي ترفع رأسها وتنظر إليَّ.

كنا ما زلنا ممسكين بأيدي بعضنا البعض في صالة الاستقبال. سحبتُ يدي والتقطتُ حقيبتي من فوق المقعد. بينما يتقدمني في السير ليفتح لي الباب، أمعنتُ النظر في ظهره. لا بأس به أبدًا، خاصةً في عمره هذا.

سرنا صامتين لوهلةً. حين وصلنا الكاتدرائية الألمانية سألته مجددًا:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

أشار أمامنا وقال:

- هنا. إنه مكان يسمى "بوركهارت"، لا شيء مميز. أجده ممتعًا ليس بسبب الطعام، لكن لأن المرء قد يجد نفسه يأكل إلى جوار وزيرٍ ألماني في مطعمٍ

رخيص مقارنةً بمعايير إسطنبول. آخر مرة أتيتُ هنا كانت هناك وزيرةٌ تجلس في الترابيزة المجاورة لي تمامًا. لم يكن معها حارسٌ واحدٌ حتى.

شعرتُ برغبةٍ ملحة في مد يدي ومداعبة شعره. بحق الله، هل الأتراك الرائعون مثله يستحقون حقًّا هؤلاء السياسيون الأتراك؟

"بوركهارت" كان مكانًا هادئًا في أمسيات الأحد كما توقعتُ. لكنهم أجلسونا على ترابيزة قريبة من الباب في حال جاء أحد الزبائن الدائمين حتى في تلك الساعة.

جلس "سليم" وفرد فوطة الطعام فورًا على ركبتيه. ثم قال:

- أردتُ حقًّا تناول شراب قبل الطعام، لكنني أتضور جوعًا. تناولي بعض المقبلات إن أحببتِ.

- كلا، سأتناول كأسًا من النبيذ معك.

ألقى الجرسون بعض المنيوهات أمامنا وأسرع مبتعدًا.

قال "سليم" وهو يراقب الرجل يبتعد:

- الخدمة هنا غير منطقية بالمرة. إنهم لا يسمحون للرجال أمثاله بالعمل جرسونًا في أي مكانٍ آخر عدا ألمانيا. قلتُ:

- مَن يعملون في البار في هذا المطعم محترفون على الأرجح، لكن من يقومون بخدمة الترابيزات جميعهم من الطلبة الجامعيين. لهذا الخدمة هنا سيئة.

- حسنًا، لكن الزبائن لا يهتمون بمَن يقوم بالعمل. سواءً كان طالبًا أم عاملًا، أنا أريد خدمةً جيدة.

- معك حق.

كلانا طلب شريحة لحم ونبيذًا أحمر.

طلب بالألمانية، وكانت ألمانيته جيدةً للغاية.

سألته بمجرد أن ابتعد الجرسون:

- أين تعلمت الألمانية؟

- درستُ في سويسرا.

- ماذا درستَ؟

- القانون بالطبع.

- بالطبع.

- أنتِ لا تحبين المحامين كثيرًا.

- في الواقع لن أقول إنني لا أحبهم. على أي حال، كان أبي محاميًا.

- قلتِ إن عائلتكِ عاشت في تركيا في طفولتكِ، صحيح؟ هل بسبب عمل والدك؟

- ليس بالضبط. هرب هو وأمي من الحرب، أو بالأحرى الفاشية. أبي كان أستاذ قانون يهوديًا. عِشنا في إسطنبول حتى ١٩٦٥، ثم عُدنا إلى ألمانيا. لو كان الأمر بيد أبي لبقينا في إسطنبول، لكن أمي أرادت العودة. وُلدتُ أنا وأخي في إسطنبول.

- إذًا متى عدتِ إلى إسطنبول؟

- في ١٩٨٨. هناك قصةٌ طويلة وراء قرار استقراري في إسطنبول. سافرتُ إلى هناك مدة أسبوعٍ لزيارة صديق، فبقيت ثلاثة عشر عامًا.

- لكن، ألم تواجهي مشكلات للحصول على تصاريح الإقامة أو العمل؟

- آهِ منكم أيها المحامون! تسألون عن أمورٍ غريبة.

هَزَّ كتفيه.

- حصل أبي على الجنسية التركية في الخمسينيات. كان أحد اللاجئين القلائل في تركيا الذين تمكنوا من ذلك، واحتفظ بها حتى وفاته. كما تعلم، إن كان أحد الوالدين تركيًا إذًا فالأطفال كذلك.

أومَأ علامة على الفهم. بدا منزعجًا.

سألته:

- ما الأمر؟

- كنتُ أفكر في أن ذكريات الحروب لا تموت.

- لم يمضِ سوى خمسين عامًا وحسب... بالطبع لم تمت. فكر بالأمر هكذا، ما زال بعض الناجين من معسكرات الاعتقال أحياء. أحيانًا أجدُ صعوبةً في تصديق وجود تلك المعاناة القاسية في التاريخ الحديث.

- نعم، نعم إنه...

عجز عن إيجاد وصفٍ مناسب.

عندئذ وضع الجرسون طبقًا أمامي، كان مغطى تمامًا بشريحة لحمٍ ضخمة. أدركت مع أول قضمةٍ أنه بغض النظر عن حجمها لن أجد صعوبةً في تناولها كلها.

- كيف تشعرين حيال نفسك؟

- ماذا تعني؟

- أي ثقافةٍ هي الأقرب إليكِ؟

- أنا إسطنبولية. المكان الوحيد في العالم الذي أشعر بأنه وطني هو إسطنبول. ربما لأن إسطنبول هي المكان الوحيد الذي لا يعترض على طبيعتي... بعد وهلةٍ لا يميز الناس بين الخبرات التي اختاروها لأنفسهم وبين التي دُفِعت إليهم. لديَّ جواز سفرٍ تركي أصلي، مع ذلك أنا ألمانية في تركيا. ألمانية تُجيد التركية. وحين أكون في ألمانيا أكون يهودية، على الرغم من جواز سفري الألماني وأمي الكاثوليكية الرومانية.

بعد العشاء عُدنا إلى الفندق، ووجدتُ موظفة الاستقبال تجلس حيث تركتها. ابتسمت لنا.

سألني "سليم":

- أتودين الصعود أم أحضر لكِ حقيبتكِ للأسفل؟

- أحضرها إن لم تمانع. لن أصعد، فأنا سأسقط من التعب.

أسرع إلى المصعد ثم استدار وصاح:

- سأعود سريعًا.

أردتُ تمضية الوقت، فوقفت أتأمل واجهات المحلات الموجودة في صالة الاستقبال. يا لغرابة ما يبيعونه!

- هيا.

قفزتُ من مكاني حين همس في أذني. كان يحمل حقيبة سفري ويقف إلى جواري مباشرةً.

مددتُ يدي لآخذ الحقيبة منه، فقال:

- دعيني أوصِّلكِ.

- إلى أين؟

- إلى المنزل.

ثم مشى بخطواتٍ واسعة نحو الباب، فركضتُ خلفه وقلتُ:

- لا تكن سخيفًا، سأستقل تاكسي إلى المنزل.

قال وهو يضحك:

- أنتِ ألمانية، ستركبين المترو لأنه أرخص. لن أصدق أنكِ ستركبين تاكسي إلا إذا رأيتكِ بعيني.

كان لا يزال يضحك وهو يفتح لي الباب لأعبره.

بغض النظر عن إخبار السائق العنوان، لم نتحدث مجددًا حتى وصلنا أمام منزل أمي.

سألته قبل الخروج من التاكسي:

- هل أتصل بك في الفندق غدًا؟

- جدول مواعيدي مزدحمٌ للغاية غدًا، ولا أعرف متى سأعود إلى الفندق.

أدرتُ رأسي حتى لا يرى كم كنتُ منزعجة، ثم فتحت الباب واندفعت خارجة. خرج خلفي، كنت واثقة أن وجهي أحمر تمامًا. أبقيت عينيَّ مثبتتين على الأرض.

أمسك يدي، أو بالأحرى أطراف أصابعي، وبدا وكأنه يشرح لطفلةٍ صغيرة أسباب تغير فصول السنة وهو يقول:

- لسنا بحاجةٍ للاتصال ببعضنا البعض. لنتقابل غدًا مساءً الساعة الثامنة. هناك مطعمٌ تايلاندي أحبُّه للغاية. إنه في حي "برينتس لاور". لنتناول الطعام هناك.

ربَّت على جيب سترته بيده الأخرى ليبحث عن قلمٍ وورقة دون أن يترك يدي.

أخرجت مفكرةً صغيرة من حقيبتي وقلتُ له:

- تفضَّل.

وضعها على التاكسي وكتب العنوان.

سألته:

- هل تحفظ عنوانه؟

- إنه مطعمي المفضل، بالطبع أحفظ عنوانه.

أعدتُ المفكرة إلى حقيبتي ومددتُ خدي إليه لأسلم عليه.

- لحظة واحدة، دعيني أحمل حقيبة سفركِ إلى شقة والدتكِ.

- أنت تتمادى الآن.

أطلَّ برأسه عبر النافذة وتحدَّث إلى السائق الذي كان يجلس في مقعده دون حراك، طلب منه أن يفتح حقيبة السيَّارة الخلفية.

9



حين استيقظتُ في الصباح التالي كنت مندهشة لأنني لم أشعر بكوني أسعد امرأة في العالم. أحد الجوانب التي كرهتها بشأن التقدُّم في العمر هو ازدياد الشعور بالمسؤولية. إنه يمنعني من تناسي واجباتي والانشغال تمامًا بالحب.

عندما ذهبتُ للاستحمام لم يكن عقلي منشغلًا بـ"سليم" بل بأمي. هذا أمرٌ مرير بالنسبة لامرأة في الثالثة والأربعين من العمر. كان الماء ما زال يقطر مني عندما اتصلت بأخي "شالوم".

أجابت "يوت" وسألتني:

- هل أنتِ في برلين؟

- نعم. علينا إخراج أمي من المستشفى وإيجاد دار رعاية مناسبة لها.

- حسنًا، سأتصل بـ"شالوم".

بعد إنهاء الاتصال ارتديتُ ثيابي وخرجتُ لتناول الفطور. سرتُ بمحاذاة القناة، وقرأتُ المنيوهات المثبتة على أبواب المقاهي. كان منزل أمي في الحي التركي في منطقة "كروتسبيرج". يُطلق عليه الألمان اسم "إسطنبول الصغيرة" ويمتنعون عن الاختلاط بالأتراك هناك. أي شخصٍ رأى طابعًا بريديًا

لإسطنبول لن يطلق أبدًا على هذا المكان البائس اسم "إسطنبول الصغيرة"، لكن لا تعليق.

لا يرغب ألمانيو الطبقة العاملة في السكن بمنطقة "كروتسبيرج" لأن جدار برلين كان ملاصقًا لها سابقًا. عندما كان جدار برلين قائمًا كانت الإيجارات في الحضيض. لذلك الأتراك الذين جاؤوا عمالًا مهاجرين بعد عام ١٩٦٥ استقروا في هذه المنطقة؛ لأنها رخيصة. أولًا جاء أولئك العمال، ثم خلال سنوات دراستي جاء الألمان اليساريون. غادر العمال غير الأتراك ألمانيا تدريجيًا عندما تحسَّن اقتصاد بلادهم. مما يعني أنه خلال تلك السنوات كان الواصلون الجدد الوحيدون هم الأتراك الذين تزوجوا وأنجبوا العديد من الأطفال واستقروا في "كروتسبيرج".

لم أفهم قط لمَ اختار والداي العيش في تلك المنطقة المليئة تمامًا بالمهاجرين. أتفهَّم لماذا اختار أبي العيش هنا بعد عودتنا من إسطنبول، لكن أمي استمرت بالعيش في هذا المنزل حتى بعد وفاته على الرغم من كل شكواها بشأن الأتراك. أحبَّت أمي إرباك الناس من حولها بتحدثها بالتركية، لكن على الرغم من هذا، سيكون من السخيف التفكير في أنها عاشت هنا طوال حياتها فقط لتسمع موظفة الدفع الشابة المحجبة تقول لها: "تيزا، من أين تعلمتِ تركيتك؟" بضع مراتٍ في الأسبوع في أحد الأسواق التركية في "كروتسبيرج". أيضًا اعتادت القول إنه لو ناداها أحدهم بـ"تيزا"، فإن ذلك يغضبها بشدة لدرجة أنها قد ترغب في قذف كل ما تحمله على مَن يناديها بـ"تيزا".

أحيانًا كنتُ أفكر في أن السبب الذي جعل أمي تبقى في "كروتسبيرج" هو حبها للماء. وُلِدَتْ أمي في ميونيخ إلا أنها قضت طفولتها في مدينة هامبورج. وجدتُ أمي إسطنبول "إسلامية" زيادة عن اللزوم فلم تحبها، لذا أظنُّها وافقت على البقاء

هناك بعد الحرب بسبب حُبِّها للماء. بغض النظر عن البحيرات القريبة، فالمياه الوحيدة المرئية في برلين هي القنوات المحيطة بالمدينة ونهر "سبري".

أحبَّت أمي منزلها المجاور للقناة حتى ولو لم تحب "كروتسبيرج".

في زيارتي الأخيرة قالت إنها تفكر أحيانًا في أن رائحة القناة تشبه رائحة البوسفور.

لكنها انزعجت حين قلتُ لها: "أظنك تفتقدين إسطنبول".

قررتُ التوجُّه إلى أحد المقاهي المطلة على سكة القطار السريع الذي اكتشفته في إحدى زياراتي إلى برلين. ظللتُ أتفحص المنيوهات المثبتة على أبواب كافيه "باول لينكه أوفير"، وانتظرتُ بلا فائدة الجرسون ليركض نحوي قائلًا: "مِن هنا يا سيدتي، لدينا سميط مقرمش، وعسل، وكريمة، وزيتون". أدركتُ أنني أضيع وقتي.

تركت القناة خلفي واستدرتُ إلى شارع "مانتوفيل". أحب كلًّا من المنظر والفطور في كافيه "مورجينلاند" الذي يوجد على ناصية الشارع المجاور لمحطة مترو "جورليتسير" الذي يطلق عليها الأتراك اسم "جوليتسار".

ما أردته حقًّا هو بعض السجق الإيطالي للفطور، لكن بعد التفكير في مرض جنون البقر قررتُ طلب بعض الجبن.

بينما أنتظر الفطور، أخرجتُ مفكرتي وكتبتُ لائحة من الحجج التي كنت أفكر بها منذ البارحة لإقناع أمي بالذهاب إلى دار رعاية المسنين.

تلك الظهيرة دخلتُ غرفة المستشفى ومعي كوب حراري به قهوة، وقد شعرتُ أنني طفلة أدت واجبها على أكمل وجه.

لاحقًا بينما أنتظرُ في الطابور إلى المطعم التايلاندي في حي "برينتس لاور"، أشعلتُ سيجارة وزفرتُ شاعرةً بالرضا عن نفسي.

فور ذكري لكلمة "دار رعاية المسنين" قالت أمي: "كنتُ أفكر بذلك منذ وقتٍ طويل. في حالتي لا أملك أي أصدقاء في برلين. من لم يمت منهم انتقلوا إلى دور رعاية. وأضافت لتقنع نفسها: "أظن ذلك أفضل ما نفعله".

كنتُ مندهشة. ربما لأني ظننتُ لسببٍ ما أنه ما من كبير سنٍّ - خاصة امرأة مثل أمي - سيقبل بالذهاب إلى دار رعاية المسنين. أخي على حق. لقد بدأتُ أفكر كالأتراك في بعض الأمور، لكن ليس جميعها بالطبع. بدأت أفكر أنه كارثي لأي شخصٍ الالتحاق بدار رعاية المسنين. لكن في ألمانيا تشكل تلك الدور جزءًا من الحياة، هناك مكانٌ يناسب الجميع.

حين غادرتُ المستشفى ذهبتُ لكافيه قريب وشربت كأسين من النبيذ الفوَّار للاحتفال بأنه للمرة الأولى في حياتها تصرفت أمي كامرأةٍ عادية. ومِن هناك ذهبت للمكتبة المفضلة لديَّ في شارع "أورانيين". ثم ذهبتُ للمنزل ونلت قسطًا من الراحة، حتى أنني قرأتُ قليلًا قبل أن أستعدَّ للخروج مساءً. والآن أقفُ في طابور خارج المطعم الذي اتفقتُ مع "سليم" على اللقاء فيه.

سمعتُ صوتًا يقول لي:

- أنتِ في عالم آخر تمامًا.

"سليم". كان يحمل حقيبة أوراقٍ ضخمة، ويرتدي بذلةً كتانية لونها بني فاتح وكرافتة غير مربوطة.

قلتُ له بصوتٍ مرح بدا غريبًا حتى لأذنيَّ:

- أهلًا.

أحنى رأسه ردًا على تحيتي وأشار نحو رجلٍ خلفه تمامًا:
- دعيني أقدمكما. "جين"... "كاتي"...
لم يقل لقب عائلتينا. صافحت الرجل.
سألني:
- أتتحدثين الفرنسية؟
- ليس بإتقان.
نظر إلى "جين" وقال:
- في تلك الحالة لنتحدث الألمانية.
وصلنا لمقدمة الطابور ثم قادنا أحد الموظفين إلى ترابيزة لأربعة أشخاص قُرب المطبخ.
بينما يتفحص "سليم" المنيو، أخبر صديقه أهم معلومةٍ عني:
- "كاتي" لا تحب المحامين. رغم أن والدها كان محاميًا لكن...
قاطعه "جين" بحماسة:
- حقًا؟ ما اسم والدك؟ ربما نعرفه.
- "أبراهام هيرشيل".
بدا "جين" وكأنه لا يصدق أذنيه وصاح:
- هل تقصدين القول إن المحامي الجنائي "أبراهام هيرشيل" هو والدك؟!
- نعم.
كنت معتادةً على رد الفعل ذلك من الناس لدى سماعهم اسم والدي، حتى أنني تعلمتُ الاستمتاع بدهشتهم.
- كان والدك نابغة في القانون الجنائي.
قلتُ بفخر:

- هذا ما يقولونه. لا بد أنك محامٍ جنائي أيضًا على ما أظن.
أومأ برأسه.
سألت "سليم" الجالس قبالتي:
- ألا تعرف والدي؟
- بلى، أعرفه. أو بالأحرى أعرف اسمه. كان مندمجًا مع الأتراك... لكن القانون الجنائي لا يتعلق كثيرًا بعملي.
قال "جين" مُحاولًا إغاظة "سليم":
- يقضي "سليم" معظم وقته في اجتماعات لجان الشركات المجهولة.
وقف الجرسون التايلاندي ثابتًا إلى جوار ترابيزتنا ومعه مفكرته ليدون الطلبات.
قال "سليم":
- سأشرب البيرة. وأقترح ألا تشربا النبيذ.
أنا و"جين" طلبنا البيرة أيضًا.
قال:
- الطعام هنا لذيذ، لكن كما تريان...
وأشار إلى التصميم الداخلي للمطعم ثم همس:
- هذا ليس بالمكان المناسب لشرب النبيذ.
- أخبرني ماذا سنتناول.
- إن كنتِ تحبين السمك، فالطبق رقم تسعةٍ وسبعين لذيذٌ للغاية. إنه سمكٌ مجفف. يطهوه التايلانديون بالخضروات. لكن إن كنتِ لا تحتملين الطعام الحار فلتتناولي صنفًا آخر.
- أحب الطعام الحار. سأطلب رقم تسعةٍ وسبعين.
طلب "سليم" و"جين" سمك السلمون المطهو بالبخار مع الكرفس.

نهض "جين" ليغسل يديه قبل الأكل، وانحنى "سليم" عبر الترابيزة نحوي وقال:

- أنا آسف. كنتُ سأرتب الأمر لنكون وحدنا، لكن "جين" عليه العودة إلى بروكسل غدًا، والليلة هي الوقت الوحيد الذي يمكننا اللقاء فيه. لذا اضطررتُ لإحضاره معي.

قلتُ بتفهمٍ كامرأةٍ محنكة:

- لا توجد مشكلة.

ربَّت "سليم" على رأسي بخفةٍ بسبابته كاعترافٍ صامت بتصرفي الكريم.

خلع "جين" سترته بيديه النظيفتين وعلقها على ظهر مقعده. ثم قال:

- من الغريب أن شخصًا يعيش في إسطنبول يعرف مطاعم برلين أفضل منكِ، أليس كذلك؟

من الواضح أن "سليم" لم يخبره الكثير عني. أوضحتُ له:

- أنا أيضًا أعيش في إسطنبول.

- آخر ما سمعته هو أن والدكِ في برلين.

- نعم، لكنني عدتُ إلى إسطنبول.

رفع حاجبًا وسأل:

- هل أنتِ سعيدةٌ هناك؟

- للغاية. أمضيتُ ثلاث عشرة سنة هناك.

أومأ برأسه بتفكير.

ثم رفع يده وكأنه تذكَّر شيئًا وقال:

- آه! سألتُ "سليم" شيئًا ونحن قادمان في التاكسي لكنه لم يعرف الإجابة، بما أنكِ تعيشين في إسطنبول، ربما تعرفين شيئًا عن الموضوع. جريمة القتل تلك... قرأتُ عنها في الجرائد...

بدأ قلبي يخفق بعنف.

قاطعته والكلمات تتعثر في فمي:

- أي جريمة قتل؟ أتعني مقتل "مولر"؟

استدار لـ"سليم" وقال:

- أرأيت؟ مَن يقرأ الجرائد يعرف عنها.

- حسنًا، هذا الأمر في مجال اهتمامات "كاتي".

- ماذا تعني بـ"مجال اهتماماتها"؟

- "كاتي" تبيع روايات الجريمة. مكتبتها هي الوحيدة في إسطنبول التي تبيع القصص البوليسية.

استدرتُ إلى "جين" وقطعت كلام "سليم":

- عمَّ كنتَ ستسأل؟

- كنتُ سأسأل عمَّا حدث. هل اكتشفوا القاتل؟

- لا، لم يكتشفوه بعد ولن يفعلوا على الأرجح. كان هناك لقاء صحفي مع المفتِّش المسؤول عن القضية في عدد أمس من جريدة "فيست دويتشه تسايتونج". حسب ما فهمت، لا تملك الشرطة أي خيطٍ لاتباعه، لذا ستغلق قضية قتل أخرى وتبقى دون حَلٍّ.

بمجرد أن قلتُ ذلك أدركتُ كم انزعجت لأن مغامرتي الأولى في عالم التحقيقات باءت بالفشل.

قال "جين" وهو يشعل سيجارة:

- مِن المثير للاهتمام أن الشرطة الألمانية لم تطالب بالتدخل في التحقيق.

- مَن قال لك إنهم لم يطلبوا التدخل؟

- لو أرادوا لفعلوا.

- على حَدِّ علمي، إن طلبهم قد رُفض
سأل مجددًا ليتأكد مما أقصد:
- أتعنين أنهم أرادوا التدخل وتم رفض طلبهم؟ هذا مثيرٌ للاهتمام حقًا. هل أنتِ واثقة؟
- لمَ تعتبر الأمر مثيرًا للاهتمام؟
حَكَّ أذنه وهو يفكر بعمق وقال:
- لو أن شرطة بلد أحد ضحايا القتل أرادت التدخل في التحقيق الجاري في بلد ارتكاب الجريمة، لا يتم رفض الطلب عادةً. خاصةً بين بلدين كتركيا وألمانيا، فهما تمتلكان روابط قضائية قوية... أتساءل: لماذا رفضوا؟
جملته الأخيرة كان يوجهها لنفسه.
ضحك "سليم" وقال:
- صديقيَّ العزيزين، لا حاجة للتفكير مطولًا في الأمر. لو عرفتما أبسط أمرٍ عن الأتراك لما اندهشتما هكذا.
سأل "جين" وهو ما زال يحكُّ أذنه:
- ماذا تعني؟
زمَّ "سليم" شفتيه ثم سأل:
- ألا تعرف عن السيادة الوطنية؟
ثم أشار إليَّ وقال:
- أنتِ تعرفين كم تهمنا السيادة في وطننا.
رجاه "جين":
- تحدث بطريقةٍ أفهمها.

- لن تقبل الشرطة التركية أبدًا المساعدة من شرطةٍ أجنبية لحل جريمة قتلٍ حدثت ضمن نطاق سلطتهم القضائية. لن يقبلوا مساعدةً خارجية حتى لو عنى ذلك بقاء الجريمة بلا حَلٍّ. لا يُسمح لأحدٍ بالتدخل في الشؤون الداخلية لدولة تركيا. وإن كان الأمر يخصُّ الشرطة، فحتى الحكومة لا يمكنها التدخل.

قلتُ بنفاد صبر:

- لا بأس أبدًا، لكن الشرطة تقول إن ما من دليل. هذا يعني أنه ما من بصمات أصابع أو شهود عيان أو عينات دم أو حتى زرٌّ أو خصلة شعر في مسرح الجريمة. والأهم من ذلك أنه لا أحد يملك دافعًا لقتله. لذا أخبرني، كيف سيكشفون لغز الجريمة؟ هل ستكتشف الشرطة الألمانية الدليل الذي عجزت عن إيجاده الشرطة التركية؟

قال "جين" وهو يهزُّ كتفيه:

- لمَ لا؟

قلتُ بتعجبٍ:

- لمَ لا؟! تتحدث كما لو أنك تجهل موضوع عدم كفاءة الشرطة الألمانية. ألا تذكر محاولة السطو على البنك واحتجاز رهينتين؟ قتلت الشرطة إحدى الرهينتين بدلًا من السارقين.

- أنتِ مُحقَّة، إنهم عاجزون في حالات الرهائن. لكن الشرطة الألمانية تُجيد حَلَّ جرائم القتل. وبالطبع تملك الشرطة الألمانية - ببساطة - تكنولوجيا أفضل.

قلتُ:

- حسنًا، هذا دليلٌ واضح على الانحياز. حَلُّ جرائم القتل لا علاقة له بالتكنولوجيا. جرائم القتل تُحَل بالتفكير.

واصلت كلامي وقد بدا صوتي أشبه بمعلمة مرحلة ابتدائية:

- مهارة شرطة أيِ بلدٍ في القبض على المشتبه بهم لا تتعلق أبدًا بالدخل القومي للفرد. الأمر نفسه يتعلق بالصحة. الجميع يظن أن الرعاية الصحية في تركيا سيئة لأن تركيا فقيرة. لكن حين يتعلق الأمر بالتشخيص، فالأطباء الأتراك يتفوقون بشدةٍ على الأطباء الألمان.

قال "جين":

- حسنًا، لكنكِ تستشهدين بمثالٍ أصبح فيه الألمان في غاية السوء. الجميع يعلم أن الرعاية الصحية في ألمانيا تتدهور. نعم، الأطباء فاشلون في التشخيص تحديدًا. لكن حل جريمة قتلٍ أمرٌ مختلف...

حَكَّ "جين" أذنه بينما يفكر، ثم أكمل:

- لا أتذكر رقمًا محددًا، لكن وفقًا للإحصاءات فإن نسبة جرائم القتل التي تحلُها الشرطة الألمانية مرتفعةٌ للغاية.

- أيًا كان. لستُ مهتمةً حقًا بمناقشة نظرية الشرطي الجيد والشرطي السيئ هذه. لماذا أنت مهتم بقضية قتل "مولر"؟

ركّز نظره بتفكيرٍ على نقطةٍ أعلى رأسي وقال:

- أنا أحاول إثبات تهمة محددة عليه منذ عامين.

أُصبتُ بالذهول. مَن يصدق أني سأكتشف سر "مولر" في ذلك المطعم التايلاندي الصغير البسيط؟

سألته وأنا أحاول تمالُك نفسي:

- لماذا؟

أحضر لنا الجرسون طبقًا ضخمًا من الأرز. انتظر "جين" حتى غادر، ثم قال:

- لا أعرف إن كنتِ تذكرين. في نهاية الثمانينيات، حدثت سلسلة من جرائم قتل الأطفال التي هزَّت أوروبا الغربية. في الواقع الاسم الأنسب لها هو مجزرة الأطفال.

اثنتا عشرة جثةً لأطفال تتراوح أعمارهم بين أربع إلى تسع سنوات، تم إيجادهم واحدًا تلو الآخر. تعرض الأطفال المخطوفون للاغتصاب أولًا ثم القتل...

تقريبًا صرخت قائلة:

- توقَّف.

ثم وضعت يدي على فمي وركضت للحمام. للمرة الأولى منذ طفولتي أفقدُ السيطرة على أمعائي.

وضعتُ رأسي في المرحاض لأتقيأ بينما أفكر: "هذا... هذا كله بسبب ما حدث لابن "بيترا"، "بيتر"...". أردتُ التقيؤ عندما سمعتُ ذلك للمرة الأولى لكنني لم أفعل.

لقد مضى وقتٌ طويل منذ هضمت الجبن الذي تناولته على الفطور، ولم يدخل معدتي شيء آخر غير القهوة التي شربتها في المستشفى مع أمي وكأسين من النبيذ. في تلك اللحظة أمسكتُ برأسي، أمَّا ركبتاي اللتان حرصت على وضع كريم غالي الثمن عليهما، فلقد شعرت بهما تحتكان بأرض الحمام الحجرية لهذا المطعم الرخيص. كنتُ سعيدةً لأنني لم أتناول الطعام بعد.

بمجرد أن انتهيتُ، أغلقت غطاء المرحاض وجلست عليه. بقيت هكذا خمس دقائقٍ على الأقل بينما أعدُّ نفسي لمواجهة العالم الخارجي. نهضتُ ورأيت وجهي في مرآة الحوض. بدوت مرعبة، وكأنني كنتُ أبكي، لكن على الأقل لم تفسد زينتي. بللتُ منديلًا ورقيًا بالماء ومسحتُ خديَّ. عندما خرجتُ رأيتُ على الحائط أمام الباب صورة طفل يجلس على حمَّام الأطفال "نونية". وقفتُ وجهًا لوجه مع "سليم" الذي كان مستندًا على آلة بيع السجائر ينتظرني. أمعن النظر في وجهي بقلق وقال:

- ماذا حدث؟

أجبته:

- أظنه شيئًا أكلته على الغداء.

ثم خفضتُ رأسي، ليس لأنني أكذب بل لأن الطريقة التي نظر إليَّ بها أقلقتني. سرتُ بخفةٍ إلى الترابيزة وجلست بثقلٍ على المقعد الذي سحبه "سليم" لي. صنف السمك رقم تسعةٍ وسبعين الذي طلبته بتلذذ كان أمامي على الترابيزة. دفعتُ الطبق أبعد مما يمكن عني.

قلتُ لـ"سليم" باعتذار:

- لا يمكنني تناول هذا. هلًا طلبت لي بعض الشاي بالياسمين؟

سأل "جين":

- هل أنتِ بخير؟

حاولتُ الابتسام وأنا أجيبه:

- كنتُ أعمل بجهدٍ مؤخرًا.

تلك ليست كذبة. ثم أضفت:

- كنتُ تخبرنا لماذا تسعى خلف "مولر".

اقترح "سليم":

- لمَ لا ننسى تلك المواضيع البغيضة. لمَ لا نتحدث عن السياسة التركية؟

ثم مسك يدي التي كانت على وشك الإمساك بعلبة السجائر وأضاف برقة:

- ربما من الأفضل ألا تدخني الآن.

لم أحتج إلى مرآةٍ لرؤية التعبير العدواني المخيف الذي ارتسم على وجهي.

تراجع "سليم" فورًا وقال:

- فليكن، دخني إن أردتِ. كنت أفكر بمصلحتك وحسب.

من الواضح أن "جين" لم يكن سعيدًا بمشاهدة ذلك الصراع المحتدم بين اثنين يحاولان مغازلة بعضهما البعض بطرقٍ غريبة. كان أكثر حرصًا مني على العودة لموضوع "مولر". راقب "سليم"وهو يشعل سيجارتي وأكمل الحديث:

- فشلت الشرطة في كشف ما حدث للأطفال المخطوفين. في خلال سبعة أشهر تم خطف اثني عشر طفلًا واحدًا تلو الآخر. وُجِدَت الجثث بعد الاختطاف ببعض الوقت. اتبعت الشرطة بعض الخيوط لكن لم تسفر عن شيء.

سألته وأنا أخشى الإجابة:

- مِن أين هؤلاء الأطفال؟ أعني في أي بلدٍ حدث ذلك؟

- تعرض الطفل الأول للاختطاف في ألمانيا الغربية، ووُجِدَت الجثة في منطقة غابات بين بروكسل و"بروج". أمَّا الطفل الثاني كان من بلجيكا، كما اختُطِف أطفالٌ من هولندا وفرنسا. وُجدَت الجثث لاحقًا بأسبوعين أو ثلاثة. وُجِدَت في أماكن مختلفة، البعض على الطريق السريع والبعض في غابة... كل شيءٍ تم باحترافٍ لا يقوى عليه منحرفٌ بسيط.. مضى وقتٌ طويل قبل أن يكتشفوا أي أدلةٍ عن الاختطاف أو مكان احتجاز الأطفال. أقوال شاهدٍ واحد أعطت وصفًا لمشتبه به في إحدى حالات الاختطاف، لكنه لم يشبه مطلقًا المشتبه به في الحالة التالية. بدا واضحًا أنها عصابةٌ من مغتصبي الأطفال وليس منحرفًا واحدًا.

- قلتَ مُسبقًا إنه تم إيجاد القليل من الأدلة.

- نعم، قاد بلاغٌ سري الشرطة إلى المنزل الذي احتجز فيه الأطفال.

وضع في فمه قطعةً من خضارٍ زهري غريب كان في طبقه وواصل كلامه:

- وهكذا، عثروا على المنزل لكن لم يجدوا أدلةٍ كافية لإكمال التحقيق. في الواقع...

- نعم؟

- اتضح أن الأطفال قد تم استخدامهم لصنع الأفلام الإباحية. القبو كان مجهزًا ليكون استوديو.

- ألم يجدوا بصمات أصابعٍ أو عينات دم؟

- لا، تم تنظيف المكان بدقةٍ قبل وصول الشرطة. هذا مفاجئ بالطبع، لأن أي شخصٍ سيتساءل: لماذا لم يحرقوا المكان وحسب؟ لكنه ليس بالأمر الغريب الوحيد لتلك القضية، إنها أكثر قضيةٍ معقدة ومحيرة قابلتها في حياتي.

سألته:

- ماذا حدث قبل عامين؟

- ماذا تعنين بقبل عامين؟ آه... نعم، لأنني قلتُ إنني أسعى خلف "مولر" منذ عامين... تلقت الشرطة بلاغًا سريًا عن بعض أفلام الأطفال الإباحية التي صادروها من محلٍّ لبيع أشرطة الفيديو الإباحية في باريس. صُنعت الأفلام أصلًا في الشرق الأقصى من روسيا، لكن أحدها لفت انتباههم.

قاطعته:

- أما زالت الشرطة تبحث عن قاتلي الأطفال الاثني عشر؟

- حسنًا، لم تُغلق القضية بالطبع. لكن السبب الذي جعل ذلك الفيلم يلفت الانتباه هو التقنية التكنولوجية والجودة العالية للخلفيات. الأمر لا يتعلق بما حدث في تلك السنوات الماضية حيث تم استخدام الأطفال بلا شَكٍّ في الأفلام الإباحية.

تجعَّد وجهي من الاشمئزاز.

قال "جين":

- نعم، أنتِ محقة.

"سليم" كان يجلس صامتًا.

- الأمر مُقزِّز، لكن هذا ما حدث. التقنيات المستخدمة في أفلام الأطفال الإباحية تكون عامةً بغاية السوء. ذلك النوع من الأفلام يصنعه عادةً منحرفٌ واحد بمعدات تصوير بسيطةٍ للهُواة. لكن هذا الفيلم تمت صناعته بآلات إضاءةٍ ومعدات متطورة، وهو ما جذب انتباه الشرطة.

قال "سليم":

- هلَّا أغلقنا هذا الموضوع؟

قلتُ:

- لحظة واحدة. هل يمكنك التوضيح دون الكثير من التفاصيل؟

قال "جين:

- لا أستمتع بالحديث عن تلك القذارة.

- ماذا حدث في النهاية؟ أعني، كيف توصلت إلى "مولر"؟

- أثبتت الشرطة أن الطفل الظاهر في الفيلم الذي وجدوه في محل أشرطة الفيديو الإباحية في بلدة "كليشي" هو "ويم"، طفلٌ اختُطِف من دار أيتام في "روتردام"، وتم قتله بعد ذلك مثل باقي الأطفال. استجوبوا بائع المحل عن كيفية حصوله على الشريط.. سأختصر الأمر بناءً على رغبتك. على أي حال، اتضح أخيرًا أن "مولر" كان ضمن تلك العصابة، وهو الشخص الذي صنع تلك الأفلام بالفعل. تم اكتشاف ذلك حين اعترف مغتصب أطفالٍ آخر أثناء الاستجواب أنه تم استخدامه للمساعدة على خطف الأطفال. لقد أَمِلَ في الحصول على عقوبةٍ مخففة إذا قال ما يعرفه عن العصابة. أشار هذا الرجل إلى "مولر" بالاسم في أقواله التي أدلى بها قبل قتله بقليل.

- قبل قتله؟

- وجدوا جثته في حمام السجن قبل أن يدلي بأقواله في المحكمة.

سألت:

- أتتمتع تلك العصابة بهذا النفوذ؟

بدأت معدتي تتوعك مجددًا.

قال:

- نعم، أظنُّها كانت عملية بغاية الضخامة.

- إذًا، أتظن أن تلك العصابة قتلت "مولر"؟

- بالطبع، ليمنعوه من الإدلاء بأقواله.

- لكن أسلوب الجريمة... أليس غريبًا قليلًا؟

قال:

- ألم تنفذ الجريمة بمجفف شعر؟

أضاف قائلًا:

- أي قاتلٍ سيرتكب جريمةً بتلك الطريقة؟ إنها تبدو بدائية للغاية، بغض النظر عن عدم وجود أدلة، لذا مِن هذا المنطلق قد تكون عمليةً احترافية. مع ذلك إذا كانت العصابة قد استأجرت قاتلًا لكان...

أكملتُ جملته:

- استخدم مسدسًا.

توقف فجأة وفكر فيما قلت، ثم قال بنفور:

- أظن أن الأمر برُمَّته في غاية القذارة والتعقيد.

- أأنتَ المحامي الخاص بإحدى عائلات الأطفال؟

- هذه نقطةٌ مهمة. اختارت العصابة الأطفال بدقة، لم يتركوا مجالًا للمصادفات. من بين الأطفال الاثني عشر هناك خمسة أيتام يعيشون في دور

أيتام. أما الآخرون فينتمون لعائلاتٍ محرومة أو لاجئين، لعائلاتٍ لا تملك الموارد المالية أو المكانة الاجتماعية للتعامل مع ذلك.

سألته:

- في تلك الحالة، مَن أدخلك في الأمر؟

- أنا أمثل عائلة كاميرونية نالت حق اللجوء السياسي إلى بلجيكا. صديقٌ لي يعرف أنني متخصصٌ في جرائم الأطفال، واقترح أن تتحدث العائلة معي. بمجرد أن درستُ القضية قليلًا قبلتها مجانًا. لكن على مدى عشر سنوات لم نتوصل لشيء. وعندما ظهر بصيصٌ من الأمل...

تنهَّد بحنق وأكمل:

- حسنًا، كما ترين...

قلتُ وأنا أخفي وجهي خلف كأس البيرة:

- ذكرت طفلًا تم اختطافه في ألمانيا الغربية. إنه أول طفلٍ يتعرض للاختطاف، هل كان ينتمي لدار أيتام أيضًا؟

وضع رأسه بين يديه وقال:

- كلا، كان يعيش مع جدته المسنة. يعيش والداه في سيول عاصمة كوريا الجنوبية. الأم ألمانية والأب كوري. كانت العائلة الوحيدة من بين عائلات الأطفال المختطفين التي يمكنها فعل شيءٍ حيال ما حدث. لكن الزوجان أظهرا اهتمامًا ضئيلًا بالطفل وبما أعقب ذلك. لكنني عرفت أنهم استأجروا مُحقِّقًا لكشف الحقيقة. لكن بالطبع لم يجد شيئًا يمكن أن يدلَّهم على الطفل. كان الطفل بعمر السادسة أو السابعة حين قُتِل.

- هل تذكر اسمه؟

قال بحزن:

- "بيتر". كيف تسأليني إن كنت أذكر؟ أعرف اسم كل طفلٍ منهم.
أشعلتُ سيجارةً أخرى وسألت مجددًا:
- تلك الحادثة... أكان الطفل يعيش في قريةٍ على نهر الراين؟
- إن أمكنكِ تسميتها قرية، أجل. اسمها غريب. لحظة واحدة...
أشار بيده ليمنعنا من مقاطعته أو مقاطعة أفكاره. ثم قال:
- "بفافينفيك"! أجل، أجل، إنه "بفافينفيك". اسم الأم هو "جودرون كيم".
بينما أعمل على ذلك عرفتُ أن نصف الكوريين اسمهم "كيم".
- تعني أن الطفل كان نصف ألماني ونصف آسيوي.
- نعم، لكن برأيي إنه لا يملك الملامح الآسيوية.
هَزَّ كتفيه وحَكَّ أذنه في الوقت نفسه ثم قال:
- لا أهتم أبدًا بما يفعله الناس في حياتهم الزوجية.
قلتُ بصوتٍ عالٍ ما كنت أفكر به:
- إذًا هذا يعني أن اسم والدة "بيتر" هو "جودرون".
ثم سألت "جين":
- إذًا ماذا سيحدث الآن؟
- لا شيء. كنتُ آمل أن أتوصل إلى حَلٍّ لغز جرائم القتل إلى أن قُتِل "مولر". هذا الرجل كان بداية سلسلةٍ طويلة. وفقًا للشاهد الذي أدلى بأقواله للشرطة ثم تعرَّض للقتل، كان "مولر" حلقة الوصل، مما يعني أنه يعرف أفراد العصابة بلا شك.
زمَّ شفتيه ثم أضاف بحزن:
- كل تلك السنوات من العمل الشاق ضاعت سدى.
- إذًا، هل أُغلقت القضية؟
حَكَّ أذنه مجددًا وهو يقول:

- فقط أقوال "مولر" كانت ستساعدنا على استكمال التحقيق في القضية. ربما تمكنًا من الحصول على بعض الأسماء. أما الآن فلا يوجد ما نفعله. كما ترين، أنا حتى لا أتابع مقالات الصحافة حول مقتل "مولر". لقد انتهى الأمر بالنسبة لي.

أكمل:

- أكاد أكون حزينًا لمقتل "مولر".

لوَّح بيده خلف رأسه وكأنه يقول إنه ألقى بالأمر خلف ظهره.

قال "سليم" وهو يربت على ظهره:

- لنتحدث عن موضوعٍ إيجابي.

بالنسبة لباقي الوجبة، لم أفتح فمي إلا لإجابة الأسئلة الموجهة مباشرةً لي. لم يكن هناك حاجةٌ لأن يُصرَّ "سليم" على إيصالي للمنزل هذه المرة. كنتُ في غاية التعب وغارقةً في أفكاري بحيث عجزتُ عن أي مقاومة.

حين توقف التاكسي أمام منزل أمي كنتُ أفكر في "بيترا" و"بيتر"، لذا لم أفهم لماذا قال "سليم":

- عليَّ الاستيقاظ في السابعة صباحًا غدًا.

قلت:

- ستستيقظ إن ضبطتَ المنبه.

- ما عنيته هو أنني لن أصعد معكِ الآن. يجب أن تكون ليلتنا الأولى مميزة. على الأقل يجب أن نتمكن من تناول الفطور معًا في الصباح.

ربما تلقائيته هي ما أعادتني لطبيعتي، لا أعرف. قلتُ له:

- لا عليك. إن كانت الليلة جميلة، هذا يعني أننا سنحظى بأوقات كثيرة في كل صباح باكرٍ آتٍ لنتناول وجبات الفطور معًا.

في الصباح التالي استيقظ "سليم" في السابعة صباحًا بالفعل. بعدما غادر تململتُ وتقلبت في السرير بينما أفكر في جملٍ كثيرة لكن لم يعجبني أيٌّ منها. ماذا سأقول لـ"بيترا"؟

في الواقع لم أقل حقًّا أي شيء. أو أنني قلتُ كل شيء في مكالمةٍ تليفونية مختصرةٍ للغاية.

- أعرف مَن قتل "مولر".

- في تلك الحالة لماذا تتصلين بي أنا؟ اتصلي بالشرطة.

- لا أريدُ الاتصال بالشرطة.

- لماذا؟

- أظنكِ عانيتِ بما فيه الكفاية. ولا أريدكِ أن تدخلي السجن. أريدكِ فقط أن تعرفي أنني أتفهمكِ.

أغلقتُ الخط وأخرجت أفضل ثيابي من حقيبتي. بعد كل شيء عليٍّ أن أتأنق لزيارة أمي.



10



لاحقًا بثلاثة أيام، سافرتُ إلى "مايوركا" لأضع أمي في دار رعاية بينما سافر "سليم" إلى إسطنبول ليرتب أعماله. ثم تقابلنا في برلين مجددًا لنسافر إلى المغرب معًا، كنتُ بحاجةٍ لإجازة ممتعة بعدما أمضيتُ أسبوعًا مع أمي في "مايوركا".

الناس ينسون التعب سريعًا حين يقعون في الحب. وأنا أشعر بالانتعاش وكأنني وُلدتُ من جديد. بغض النظر عن الكريم المضاد للشمس الفعَّال الذي استخدمتُه، أمضيتُ وقتًا قليلًا في الشمس لأنني لم أكن مستعدةً لأن أُصاب بالتجاعيد المبكرة. مع ذلك بالنظر إلى العلامات التي تركتها قطعتي البكيني الخاص بي على جلدي، يبدو أنني اكتسبتُ بعض السمرة على الرغم من كل شيء.

حين عُدنا إلى إسطنبول بعد ثلاثة أسابيع كان واضحًا أن "بيلين" استطاعت بمهارة كبيرة تولِّي أمور المكتبة. كل شيء كان يسير بدقةٍ كالساعة في غيابي، مما يثبت أن وجودي ليس ضروريًّا على الرغم من كوني صاحبة المكتبة.

لم تستقل "لالي" من جريدة "جوناباكان"، لكن تم تسريحها بتعويضٍ نظرًا لعملها الشاق وطول فترة خِدمتها. هي تفكر بالذهاب إلى كوبا فترة، ولا تنوي العودة للصحافة عند رجوعها. الله أعلم بما ستفعله.

تم تسريح بعض الموظفين من شركة الدعاية والإعلان التي يعمل بها "يلماز"، لكن لم يتم تسريحه، بل أصبح موظفًا أساسيًّا ممن بقوا في الشركة. لكنه لا يتحدث عن ذلك. لا بد أن سوق البورصة في إسطنبول في طريقه للارتفاع، لأن السبت الماضي قام "يلماز" بدفع حساب الشاي لنا في كافيه في "فيروز أغا".

و"فوفو"؟ ما زال مغرمًا. لقد حزم أغراضه في غيابي وترك مفتاح الشقة مع صاحبة العمارة. يا له من فظٍّ ليعاملني هكذا.

لدى عودتي وجدتُ رسالةٍ صوتية من "باتوهان". كنت مرتعبةً من أن يسألني "سليم" مَن هذا الرجل. لا يمكن أبدًا معرفة رَدِّ فعل هؤلاء الرجال الأتراك.

لم أتصل بـ"بيترا" مجددًا، وهي لم تتصل بي أيضًا. بعد عودتنا من المغرب ببضعة أيام، قرأ "سليم" خبرًا في أثناء تناولنا للفطور. كان يقول إن طاقم عمل الفيلم لا يزال في إسطنبول. يبدو أن رجلي الجديد قارئًا نهمًا للجرائد.

أظن أن "ماسوت" سيبقى في السجن فترةً طويلة. حين يخرج سيكون قد نساني بأي حال. مع ذلك سيكون رائعًا لو اتصل ليعتذر بشأن تغيبه عن موعدنا، ألن يكون ذلك رائعًا؟



الدود وأشياء أخرى

"سليم" في رحلة عمل إلى مدينة "أضنة" ثلاثة أيام. أحد نتائج إفلاس الشركات وانهيار البنوك هو أن سكرتيرته تراه أكثر مني. يزداد عمل المحامين وقت الأزمات، لأن العديد من الناس يعجزون عن دفع ديونهم ويزداد عدد اللصوص والمرتشين والمطلقين.

لا تظنوا أنني أشتكي من بُعد "سليم". البُعد المؤقت مفيدٌ للعلاقات، بصراحة أنا أجيد إمتاع نفسي حين أكون بمفردي. ومع ذلك وللمرة الأولى لم ينجح الحذاء الجلدي البرتقالي اللامع الذي اشتريته مؤخرًا في التخفيضات في رسم الابتسامة على وجهي. هناك شيء يشغل بالي... مثل يرقةٍ ضخمة تلتهم عقلي.

ربما تسألونني عمَّا يمكن فعله بشأن تلك المنغصات، لكنني لا أملك جوابًا شافيًا. لديَّ وظيفةٌ جيدة، وحبيبٌ لا أستطيع أن أحيا من دونه، وأصدقاء أشاركهم أفراحي وأحزاني. ما الذي قد تطلبه امرأة في بداية منتصف العمر أكثر من ذلك؟ حسنًا، ليس لديَّ الكثير من التجاعيد، ربما بعض المناطق المترهلة في جسدي. لكنني لستُ المرأة التي تقضي وقتًا طويلًا تتأمل تجاعيدها وترهلاتها في مدينةٍ كإسطنبول حيث الحفاظ على جمال المرءِ في النصف الثاني من حياته صار هوسًا.

لستُ من هذا النوع، مهما يَقُل الجميع.

لكن لماذا أقول ذلك؟

أدركُ أنكم بانتظار شرحي.

الأمر كله يتعلق بـ"خوان أنطونيو بيريز دومينجيز"، أو باختصار "فوفو".

أظن أنه عليَّ العودة عشرة أيامٍ للخلف وشرح ما حدث.

كما تعرفون، هذه السنة مرت الفترة بين نهاية الشتاء وبداية الصيف سريعًا بحيث أنني بصعوبة نطقت كلمة "ربيع". تلك هي الفترة التي وقع فيها "فوفو" في الحب واختفى. ولم أسمع عنه شيئًا حتى الثلاثاء الماضي.

في ذلك الثلاثاء السيئ في الساعة الخامسة وفي وقت الذروة في المكتبة، وقد قرَّر الأتراك أن يتجاهلوا الأزمات الاقتصادية التي يمرون بها ويشترون روايات الجريمة. رفعتُ نظري فرأيتُ "فوفو" يقف عند الباب.

يمكنكم تخيُّل مدى سروري.

انتقل "فوفو" لمنزل "ألفونسو" في جزيرة "كويوكادا"، كبرى جُزر "الأمراء". من الواضح أنه لم يأتِ لرؤيتي، فهو لا يأتي كثيرًا لإسطنبول. بالنسبة لمن لا يعرف، عليَّ القول إن "كويوكادا" تقع على بحر "مرمرة" وليس على البحر المتوسط، ويستغرق الأمر فقط ثلاثين دقيقةً بالأتوبيس البحري للوصول إلى إسطنبول. في الواقع لم أستقل قط إحدى تلك الأتوبيسات البحرية التي أتذكَّر فيها خوفي من الأماكن المغلقة. أفضِّل الجلوس على متن عبَّارة أو معديّة وأشرب الشاي في بحر "مرمرة".

بالطبع بما أنني رأيت "فوفو" لم أكن لأدعه يذهب. اتصلت فورًا بـ"سليم" وطلبتُ منه الحجز في مطعم لهذا المساء. سنتناول العشاء معًا. أعلم أن "سليم" يفضِّل الذهاب لمطاعم الكباب في مناطقِ بائسة مثل منطقة "إمينونو"، لذا أخبرته بأنني أريدُ الذهاب لمطعمٍ راقٍ.

بصراحة ليس عدلًا أن أصف "إمينونو" بكلمة "بائسة"، لذا سأشرح لكم المشكلة. أروع الأماكن المفتوحة في إسطنبول تقع في "إمينونو"، لكنها صارت ضحية لمجلس إسطنبول المحلي وإدارة تخطيط المدينة، والآن أصبحت محطة أتوبيسات مركزية للمدينة. لكن هذه مسألةٌ أخرى.

اتفقنا على مقابلة "ألفونسو" و"سليم" في الثامنة مساءً في المطعم الياباني في منطقة "الماداغ". أردتُ مغادرة المكتبة باكرًا والذهاب للمنزل والاستحمام وتغيير ثيابي للعشاء بالخارج، هذا تصرفٌ طبيعي، صحيح؟

مع ذلك أصرَّ "فوفو" أنه بدلًا من العودة للمنزل، علينا الذهاب إلى حديقة الشاي المقابلة للمكتبة لبعض الدردشة. لم يصر وحسب، بل ألحَّ حتى وافقت. بعدها ظَلَّ ينفعل حتى ثار من الغضب وفي النهاية صار يقذفني بالإهانات. وأي إهانات! ما المشكلة إن اضطررتُ للعشاء بالخارج بثياب العمل! الطبقة المتوسطة من أمثالي لا تحتمل بعض أنواع الرفاهيات بأي حال. ألم أدرك وجود أمورٍ أخرى في الحياة أهم من ثيابي وذقني المترهل وبشرتي التالفة؟ فمع الهجوم الإرهابي على برجي التجارة العالميين، ومع الحرب العالمية التي تهدد بالنشوب، ما الأمر الأكثر أهمية الذي عليَّ حقًّا القلق بشأنه؟ هل خطر ببالي كم أصبحت مملة؟ هل صار مستحيلًا فتح محادثةٍ لائقة معي؟

كما خمَّنتم، تلقى "فوفو" ردًّا حادًّا على سؤاله الأخير. وهكذا انهارت مخططات العشاء لتلك الليلة، ولن أقابل "ألفونسو" أبدًا.

لا، التعبير المتجهم على وجهي لا يتعلق أبدًا بشجاري مع "فوفو". ولا بتلك الدودة التي تلتهم عقلي. لم أُرغِم شخصًا قط على صداقتي. ففي سني لا يمكنني التغيير، ولا يمكنني إزعاج نفسي بالأشخاص الوقحين أو المنتقمين أو الحاقدين.

لا علاقة لعصبيتي بدورتي الشهرية الوشيكة، كما يحب "سليم" أن يزعم كلما واتته الفرصة. هناك مجموعةٌ كبيرة من الرجال من ضمنهم حبيبي، يصرون على أن الدورة الشهرية هي السبب وراء كل مشكلةٍ نسائية بلا حَلٍّ. في الواقع أحب هذا النوع من الرجال.

على كل حال لنعُد لموضوع الدودة تلك... منذ طفولتي وأنا أتلاعب بالمحادثات كي أتجنب الموضوعات التي لا أحبها. أنا دليلٌ حيٌّ على أن الناس لا يتغيرون، صحيح؟

لذا وللمرة الأخيرة لنعد لموضوع الدودة...

بصراحةٍ أواجه صعوبة في شرح سبب تلك الدودة.

(لحظة صمت قصيرة)

ربما هناك دودة مثل تلك الدودة تتجول في عقول البعض منكم. إن كان الأمر كذلك فأنتم قد فهمتموني منذ وقتٍ طويل. بالنسبة للبقية، لا تزعجوا أنفسكم بمحاولة الفهم. لن أُضيِّع وقتكم، سأقول فقط ما عليَّ قوله. المشكلة كالتالي:

لقد تقبَّلتُ أن "بيترا" خططت ونفذت جريمةً كاملة، إلا أنها لم تعترف بعد. وتفكيري بالموضوع يتحوَّل إلى دودة عملاقة تلتهم عقلي.

(ملحوظة لقرائي الأعزاء: بالنسبة لمن لا يحب تشبيه الدود يمكنكم إرسال مقترحاتكم البديلة إلى katihirschel@web.de لن تُقبل المقترحات التي ستسلم شخصيًا في المكتبة).

حين دخلت المكتبة في الصباح التالي، كان وجهي يحمل تعبير الإجهاد والإصرار الخاص الذي يظهر على شخصٍ يحمل مهمةً حياة أو موت. لم أنم الليلة الماضية، ولعدة ليالٍ قبلها. ذهبتُ إلى التليفون مباشرةً واتصلتُ بـ"معزز" هانم التي أوصلتني بـ"جين". "معزز" هانم هي سكرتيرة "سليم".

لاحقًا بخمس دقائق، كان "جين" معي على الخَطِّ، قاطعني وأنا أُقدِّم نفسي باختصار:

- بالطبع أتذكركِ.

- أنا... لقد اتصلت لأطلب شيئًا... ربما يبدو سخيفًا لك ولكن...

- هل أكون صادقًا معكِ؟

صادقًا بشأن ماذا؟

- قل ما عندك؟

- لا شيء يبدو سخيفًا لي بقدر كونكِ امرأة "سليم".

سعلتُ وتنحنحتُ ثم قلتُ:

- تذكُر أننا تحدثنا عن جرائم قتل الأطفال تلك على العشاء تلك الليلة... بحسب فهمي، لديك معلومات عن جميع الأطفال وعائلاتهم.

- هممم.

أدركتُ أنه طلب غريب وأنا أقول:

- كنتُ سأطلب منك إن كان بإمكانك إرسالها لي عبر الفاكس.

قال بجدية:

- لن أسألكِ عن سبب اهتمامكِ بتلك القضية. فالأمر عائدٌ إليكِ إن كنتِ ستخبرينني أم لا.

- إن كنت تعترض على إعطائي المعلومات التي أريدها، إذًا أفضِّل ألا أقول لك السبب.

عليَّ الاعتراف أنه حتى بعد كل تلك السنوات سأجد صعوبةً في تركيب تلك الجملة بالتركية.

جاءت لحظة صمت. كتمتُ أنفاسي وانتظرتُ.

قال:

- حسنًا، سأعطيكِ الملفَّ. لكن...

- نعم؟

- لكن سيستغرق وقتًا طويلًا لإرساله بالفاكس. جميع ملفاتنا محفوظةٌ على الكمبيوتر. لذا إن أعطيتني الإيميل الخاص بكِ سأرسلها لكِ.

أعطيت "جين" الإيميل الذي قلتُه لكم سابقًا يا قرائي الأعزاء. لم أنتظر طويلًا. بعدها بعشر دقائق حين فتحت الإنترنت وجدتُ ملفًا من ١٨٣ صفحة. احتوى الملف على تقارير الشرطة والمحكمة، بعضها مُترجَم. البعض الآخر كان بالفرنسية والألمانية ولغاتٍ أخرى لم أفهمها مطلقًا. عليَّ الاعتماد على نفسي في خوض تلك المعلومات حتى أجد غايتي.

كنتُ مستعدةً لفعل ذلك.

تركت المكتبة والزبائن لـ"بيلين" وعدتُ للمنزل.

قرأتُ التقارير الألمانية وترجمتُ الفرنسية وحاولت فهم شيء من الهولندية، وكتبتُ الكثير من الملاحظات. عندما انتهيتُ من الوثائق الخاصة بخطف الطفل الثامن ومقتله. كان الظلام قد حَلَّ بالفعل ونام معظم السكان. ما كنت أقرؤه يُمزِّق القلب. شعرتُ بالجوع، وآلمني ظهري بسبب الجلوس على المكتب طوال اليوم، فتحتُ ثاني علبة سجائر ولم أتمكن من إيجاد معلومةٍ واحدة تنقذني من تلك الدودة التي تأكل عقلي وتقلق راحة بالي.

لكن حتمًا ما أبحثُ عنه موجودٌ في مكانٍ ما في ذلك الملف ذي الـ١٨٣ صفحة.

انتقلتُ للطفل التاسع.

كان الطفل التاسع من ألمانيا الغربية. اختُطِفَ من معسكرٍ للاجئين في مدينة "كريفلد".

لم يكن الطفل قد بلغَ الخامسة بعد حين تم اختطافه. لم يبلغ الخامسة حتى!

ارتجفتُ. إنه أصغر طفل حتى الآن. وضعتُ يدي على جبهتي شاعرةً أنها معجزة أنني لم أُصَبْ بالصداع النصفي بعد. أشعلت سيجارةً أخرى وأكملت القراءة.

محل ميلاد الطفل: "صوفيا".

الأقارب المقربون...

الأم.

فقط اسم الأم كان مكتوبًا. خانة اسم الأب كانت فارغة.

الأم: "ميتكا مارينوفا".

تم رفض استمارة الأم لحَقِّ اللجوء السياسي. خُطف ابنها قبل أسبوعٍ من الموعد المقرر لإعادتها إلى بلادها.

عنوان الأم: "منطقة "ك.ك. إليندين"، بناية رقم ٥٤ (مجمع "فيلا ٧") مدخل ٣، شقة رقم ١٣٤٢ مدينة صوفيا، بلغاريا.

تليفون: ٢٩٢٢٤٤٧٦ (+٣٥٩٢)

خرجتُ لمطعم "بامبي" السريع لأتناول ساندوتش الخبز المحمص بالجبن.

استيقظتُ في الصباح التالي شاعرةً بانهيارٍ جسدي ونفسي. التفاصيل التي عرفتها جعلتني أتململ وأتقلَّب طوال الليل. حتى غسيل أسناني لم يخلصني من المذاق المُر في فمي. إنه يوم السبت، لكن حالتي لا تسمح لي بالانضمام إلى "يلماز" أو الاندماج في ثرثرةٍ مرحة.

اتصلت به للاعتذار عن عدم قدومي.

دخلت المطبخ لأعد بعض القهوة لأستجمع شجاعتي وأعود للملف الذي ينتظرني على الكمبيوتر.

كنتُ بانتظار غليان الماء لأعد القهوة وعيناي مثبتتان على الغلاية، وفجأة ومض كل شيءٍ في عقلي.

عادت أفكاري إلى أحد أيام يونيو منذ ثلاثة شهور، حين كانت الحرارة حارقة لدرجة أن الحمام نفسه تصبَّب عرقًا. كنتُ أصعد درجات الفيلا في حي "يني كوي". عبرت الباب فتلقيتُ هواءً باردًا مختلطًا بالرائحة الرطبة للتحف

الثقيلة. عبرتُ غرفة الجلوس. أردتُ الجلوس في البلكون وليس على ذلك الأثاث المعروض. قبل الخروج للبلكون...

لم أكن وحيدة.

الخادمة ذات الزي الأبيض كانت تقف بجانبي لتخبرني كيف تعلمت التركية. قالت: "أتيتُ من بلغاريا وبدأت العمل هنا".

قالت: "أتيتُ من بلغاريا". من بلغاريا!

دخلتُ مكتبي لإجراء مكالمة. شعرت بالغباء الكلي. سيوافقني قرائي الأذكياء.

اتصلتُ بالرقم الذي دوَّنته مساء البارحة.

سمعتُ صوت تكتكة وانتظرت. كان قلبي يخفق بعنف. واصلت الانتظار بنفاد صبر. لم يتم الاتصال.

ضغطتُ زر إعادة الاتصال.

فكرت أن ماء القهوة يغلي في المطبخ حتمًا. لم يتم الاتصال مجددًا.

هذه المرة لم أضغط زر إعادة الاتصال. تساءلت: هل أشرب القهوة أولًا ثم أتصل؟

انتظرتُ قليلًا ثم عندما أوشكتُ على وضع السماعة سمعت صوت الرنين. لقد تم الاتصال! لكن إن رفع شخص السماعة، ماذا عليَّ أن أقول وأي لغةٍ تلك التي عليَّ استعمالها؟

رفعَ شخص السماعة بالفعل وقلتُ بالإنجليزية:

- صباح الخير.

جاءني ردٌ بالبلغارية، فقلت بسرعةٍ بالإنجليزية:

- أتتحدثين الإنجليزية؟

ثم أضفتُ سريعًا:

- أو الألمانية؟

قالت المرأة شيئًا بالبلغارية مجددًا.

هذه المرة بدلًا من تجربة اللغات قلتُ:

- "ميتكا مارينوفا".

استمرت المرأة بقول شيءٍ بالبلغارية.

كررتُ بصوتٍ أعلى:

- "ميتكا".

وكأن المشكلة ليست في عدم وجود لغةٍ مشتركة بل في قدرتنا على سماع بعضنا البعض.

لم أتلقَّ ردًا. نظرتُ حولي باحثةً عن علبة سجائر.

قال صوتٌ رجولي بالألمانية:

- ألو! تريدين "ميتكا"، من أنتِ؟

- قابلت "ميتكا" في ألمانيا، في "كريفلد". أنا صديقة.

- "ميتكا" ليست في "صوفيا". إنها تعمل في تركيا.

سحبت نفسًا عميقًا.

سألته:

- ألديك رقمٌ أتصل بها من خلاله؟ كنا صديقتين عزيزتين، لكنني لم أسمع أخبارها منذ مدةٍ طويلة. ربما ذكرتني لك. اسمي "تينا". أنا من غانا.

لا تسألوني: أهناك أيُّ امرأةٍ في غانا تُدعى "تينا"، لأنه لا فكرة لدي؟ وأثقُ أيضًا أن الرجل الذي أحدثه لا يملك فكرةً أيضًا.

قال:

- هناك رقم.

ثم أعطاني إياه.

لم أتصل مباشرةً بل سمحت لنفسي بتناول بعض أكواب القهوة وتدخين بضع سجائر.

قلتُ:

- يبدو أن مدينة "أضنة" تناسبك.

ابتسم ونظر لساعته ثم قال:

- سنتأخر. فلنذهب.

تركني "سليم" خارج الكافيه في "يني كوي" وتوجه لمكتبه.

لحظة دخولي من الباب الخشبي للكافيه، رأيت سيدتين تجلسان على ترابيزة في الركن البعيد. هذه المرة كانت الخادمة ذات الزي الأبيض ترتدي سترةً صفراء. شعرها كان مربوطًا إلى الخلف تمامًا كما رأيتها أول مرة في يوم يونيو ذاك. كانت تضع أحمر شفاهٍ كثيفًا حتى أنه كان ملحوظًا من على بعد.

بينما أتوجَّه إليهما كنت أتفحص السيدة الجالسة جوار "ميتكا". أنفها ضخم، وكذلك شفتاها وعيناها. بغض النظر عن عينيها، كان أكثر ما يُلاحظ بشأنها هي البلوزة جلد الفهد التي كانت ترتديها. يداها اللتان ظلتا تحاولان تدفئة ذراعيها كانتا دليلًا على أنها أدركت أن موسم ارتداء البلوزات الحريرية الصيفية قد انتهى.

توقفتُ أمامهما. بدا واضحًا أن أيهما لم تشعر برغبةٍ لمصافحتي. قلتُ "مرحبًا" ثم جلست.

كنتُ مدركةً أنهما تتفحصانني بينما أخرج سجائري وولاعتي من حقيبتي. طلاء أظفاري، طريقتي في تعليق الحقيبة على مسند الكرسي الخشبي، تسريحة شعري، الكحل الذي وضعته على عجل.

سألتُ:

- هل تناولتما الفطور؟

لم تجيبا.

قلتُ للسيدة ذات بلوزة جلد الفهد:

- لم نتقابل مِن قبل.

قالت:

- أعرف مَن أنتِ.

قلتُ:

- لكنني لا أعرف من أنتِ.

رفعتْ يدها إلى شخصٍ ما ولوَّحت. ركض إلينا رجلٌ يقف جوار الباب وقال:

- نعم، سيدتي.

- أحضر لي سترة يا "نجمي". أشعر بالبرد.

قال "نجمي":

- حالًا.

ضاقت عينايَ ونظرتُ للسيدة وقلت:

- أنتِ "ياقوت".

الآن أشعر بالإثارة.

- لماذا أردتِ مقابلة "ميتكا"؟

كانت نبرتها عدائيةً للغاية حتى أنني شعرت بضرورة الاعتراض.

قلتُ وأن أهزُّ رأسي نفيًا:

- لا. اسمعي، لقد أردت الحديث فقط.

هذا ليس جيدًا! لا وقت لأكون لطيفةً، ومع ذلك دخلت في صلب الموضوع مباشرةً.

طلبت من الجرسون بعض القهوة.

قالت "ياقوت":

- أعلم أنكِ تحدثتِ إلى "بيترا". عجزتِ عن استجواب "بيترا" القوية ففكرتِ بأن "ميتكا" ستكون أسهل، صحيح؟ لكن أنتما لستما بمفردكما هنا، هناك أنا. وعليكِ التصرف وفْقَ هذا!

ضربت الترابيزة بيدها العظمية الدكناء. اهتزت زجاجة الماء وكؤوس صودا "أولاداغ"، وتناثرت المحتويات على الترابيزة وانسكبت على الأرض. دفعت "ياقوت" كرسيها إلى الوراء.

قالت من بين أسنانها:

- لا يمكنكِ ابتزازنا!

- لا نية لديَّ في ابتزاز أي أحدٍ.

- من الأفضل ألا تفعلي!

نظرتُ حولي، كان الكافيه مليئًا بالعائلات مع أطفالهم والشباب الذين يمتعون أنفسهم.

أكملت "ياقوت":

- إن كنتِ تعتمدين على صديقكِ المحامي الأحمق ذاك...

هل ما أشعل غضبي هو سماعي إياها تصف "سليم" بالأحمق؟ أم ظنها بأنني بحاجةٍ للاعتماد على شخصٍ ما؟

فجأة ملتُ إلى الإمام وأمسكت ياقة بلوزتها بيدي اليمنى وجذبتها نحوي. أمسكتُ ذقنها شاعرةً بالماء المنسكب على الترابيزة يلامس ذراعي.

قلتُ وأنا أُقرِّب وجهها أمام وجهي مباشرةً:

- أنتِ حمقاء. احذري! وإلا تسببتِ في فضيحة هنا.

تركتُ ياقتها وجذبت شعرها بيدي اليسرى. وقفت "ميتكا" بسرعةٍ وشرعت بالصراخ. ضربت وجه "ياقوت" في الترابيزة، ثم تركت شعرها عندما سمعت صوت أقدامٍ تجري خلفنا. جلسَت على كرسيها مجددًا وأمسكت أنفها وبدت كما لو كانت ستفقد الوعي. تورمت شفتها السفلى وسال منها القليل من الدم.

قال رجلٌ ذو بذلةٍ سوداء:

- سيدتي!

لم يكن "نجمي". ثبت عينيه عليَّ بانتظار الأوامر بشأني.

قالت "ياقوت":

- لا شيء. ارحل.

وعندما استعدَّ للمغادرة أضافت:

- توقَّف! خُذْ "ميتكا" للمنزل.

بعد مغادرتهما غطت فمها بيدها ونهضت للحمام.

أشعلت سيجارة.

تزامَنَ وصول قهوتي مع عودة "ياقوت" من الحمام.

سألتني وهي تجلس:

- كيف أبدو؟

لم أجب.

كررتْ سؤالها:

- كيف أبدو؟
- أفضل عن ذي قبل.
قالت وهي تفرك ذراعيها بيديها لتدفئة نفسها:
- لم يجدوا لي سُترة.
كنتُ مستاءة لمرأى تلك السيدة التي شققت شفتها للتو، وأردتُ إعطاءها سُترتي.
سألتها:
- هلّا ذهبنا؟
لم أحب الوجود بهذا المكان أكثر. توقف الزبائن الآخرون عن الحديث وظلوا ينظرون إلينا. لا ألومهم، فلو كنت مكانهم لفعلت الشيء نفسه.
قالت وهي بحاجةٍ لبعض الوقت كي تستجمع قوتها كما هو واضح:
- لنجلس هنا بعض الوقت.
سألتها:
- هل أطلب لكِ بعض الشاي؟
- القهوة أفضل، بلا سكر.
استدعيتُ الجرسون الذي كان واقفًا ومثبتًا عينيه علينا. طلبت منه فنجانين من القهوة بلا سكر.
قالت "ياقوت":
- أنتِ امرأةٌ غريبة.
هل هذه مجاملة؟
قلتُ:
- وكذلك أنتِ. كيف تورطتِ بذلك العمل؟
شردت بعينيها بعيدًا وغرقت في تفكيرٍ عميق.

تمتمت لنفسها:

- امم. كيف تورطتِ في ذلك العمل؟

كلا، في الواقع هذا ليس ما أردت السؤال عنه. يمكنني الإجابة عن هذا السؤال بنفسي، من الواضح أن "ياقوت" سيدة مبادئ، ولا تخشى مَدَّ يد العون لمن بحاجةٍ لمساعدة من حولها.

نظرت إليَّ بخواء وسألتني:

- كيف عرفتِ؟ أهي "ميتكا"؟

قلتُ:

- لا نية لديَّ في إبلاغ الشرطة. أنا فقط فضولية، هذا كل شيء. إن كنتِ لا تريدين إخباري، فلننسَ كل شيء.

هزَّت كتفيها وقالت.

- أعلمُ أنه لا نية لديكِ في إبلاغ الشرطة. "ميتكا" تعمل في بيت أخي.

- أعلم.

- مؤكَّد لاحظتِ أنها مرت بمحنةٍ مريعة.

و"ماسوت"؟ هل علم أيضًا؟

- أكان "ماسوت" و"يوسف" على علمٍ بـــ..

لم أقدر على إتمام جملتي.

قالت:

- كلا، هذا الشأن خاص بالنساء.

ثم أضافت بابتسامة:

- مجفف الشعر سلاحٌ نسائي للغاية، ألا توافقينني الرأي؟

- أجل، سلاح نسائي...

أحضر الجرسون قهوتنا وشكرته. ثم واصلت:

- مَنْ ألقى مجفف الشعر في البانيو؟

أشارت إلى السجائر وكأنها تطلب مني واحدة. التقطت العلبة وقلت:

- كلها مُبتلة.

نظرت للسجائر وضحكت. ثم قالت:

- مَن برأيكِ ألقى مجفف الشعر في البانيو؟

قلتُ دون ابتسام:

- "بيترا".

- أحسنتِ.

- وأنتِ خططتِ ذلك.

- يا لها من خطة. حتى أنها شملت إقناع زوجي الكسول بالقيام ببعض العمل. كان هناك العديد من الممثلات المثاليات لهذا الدور، لذا كان عليٌّ بالطبع القيام بمجهودٍ إضافي لجعل "بيترا" تحصل على الدور.

- حسنًا، و"ميتكا"؟

- أهميتها حاسمة. فمن دونها لما عرفت بوجود "كيرت مولر" أصلًا.

- كيف وجدتِ "بيترا"؟ كيف عرفتِ أن ولدها أحد الضحايا؟

- هناك محققون بارعون يمكنهم اكتشاف تلك الأمور.

- لكن لا أحد عرف أن "بيتر" هو ابن "بيترا".

- عزيزتي، انظري إليَّ جيدًا. هل أبدو لكِ امرأةً قد تصدق تلك القصة عن أختها التي في كوريا؟

نظرت لعينيها الواسعتين وأنفها الضخم وشفتيها الممتلئتين. ثم أجبتُ:

- لا، حتمًا لا.

نظرتُ لعينيها مجددًا وأضفتُ:

- أشعر بالحر الشديد، سأعطيكِ سُترتي.

سألتني والسائق يفتح الباب لتجلس في سيَّارة فارهة:

- أأنتِ واثقة أننا لا يمكننا إيصالكِ للمنزل؟

- سأستقل تاكسي.

قالت وهي ترفع يدها لشفتها:

- إنها المرة الأولى التي يحدث شيئًا كهذا لي ويقولون إن الألمان جبناء.

- لقد تماديتُ كثيرًا.

- لو لم تكوني بغاية الجمال لما سامحتُكِ.

- يا إلهي! دعينا لا نَخُضْ في ذلك. لقد وصلتِ إلى عمرٍ أضطرٌّ فيه لإقناع نفسي بأن الجمال بلا أهمية.

قالت "ياقوت":

- لا أظن أن تفكيركِ هذا صحيحًا على الإطلاق.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمى نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلى لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	بيتى بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	مشروع روزى	جرايم سيمسيون	أستراليا
.6	لأننا كنا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.7	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
.8	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.9	الموت والبطريق	أندرى كوركوف	أوكرانيا
.10	تاتى	كريستين دوير هيكى	أيرلندا
.11	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.12	موسم الساحرة	أرنى ثورارينسون	أيسلندا
.13	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتورينى	إيطاليا
.14	احترس من جوعى	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.15	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.16	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.17	نيزك في جالفاييش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	صانع الملائكة	شتيفان بريجس	بلجيكا
.20	فندق الغرباء	ديميترى فيرهولست	بلجيكا
.21	مخاوف السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.22	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.23	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.24	أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
.25	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشى	تركيا
.26	امرأة صديقى	تونا كيرميتشى	تركيا
.27	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.28	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.29	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.30	الشيطان امرأة	هاندى ألتايلى	تركيا
.31	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشى	تركيا
.32	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.33	لون الغواية	هاندى ألتايلى	تركيا
.34	مينتا	سوللاز كاموران	تركيا
.35	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا

36. الموت في بابل.. الحب في إسطنبول	إسكندر بالا	تركيا
37. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38. حُفظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43. الكنائس السبع	ميلوس أوربان	التشيك
44. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45. العقل المدبر	دافيد أونجر	جواتيمالا
46. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50. فيل في الحديقة	ميرال قريشى	سويسرا
51. بكين.. بكين	شيو تسى تشين	الصين
52. بين الجبل والبحيرة	جوو دا شين	الصين
53. سبع ليال في حدائق الورد	يى ماى	الصين
54. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56. رئيس القبيلة الأخير	يى ماى	الصين
57. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
58. المجاعة البيضاء	آكى أوليكانين	فنلندا
59. النسيان	إيكتور آباد فاسيولينسى	كولومبيا
60. القنّاص	بلايز ماينفسكى	مقدونيا
61. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلى	مقدونيا
62. خرابيشكو	إيرميس لافازوناوفسكى	مقدونيا
63. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
64. صيف بارد جدًا	روى ياكوبسن	النرويج
65. دكان السارى	روبا باجوا	الهند
66. جوى سبيدبوت	تومى فيرينيجا	هولندا
67. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
68. المنزل الصيفى	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

69. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
70. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
71. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
72. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
73. الهندى الأحمر الأيسلندى	جون جنار	أيسلندا
74. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلى	إيطاليا
75. خيالات الشرق	إيسا دى كيروش	البرتغال
76. ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
77. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
78. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
79. النشوة المادية	جى. إم. لو كلوزيو	فرنسا
80. لن أمنحكم كراهيتى	أنطوان لاريس	فرنسا
81. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
82. الجرى	ثور جوتاس	النرويج
83. عقول مريضة	دوى درايسما	هولندا
84. اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

.85 النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
.86 وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
.87 أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
.88 القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.89 ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.90 ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
.91 خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
.92 الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.93 دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.94 التطهر	سوفي أوكسانين	فنلندا
.95 لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.96 هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

.97 بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.98 القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا

#كتب_مختلفة #تركيا



"كاتي هيرشيل"، ألمانية في أواخر الثلاثينيات، وصاحبة المكتبة الوحيدة في إسطنبول التي تبيع روايات جريمة. "سافرتُ إلى هناك لمدة أسبوعٍ لزيارة صديق، فبقيت ثلاثة عشر عامًا". في أحد الأيام يفاجئها اتصالٌ من زميلتها - التي لم ترها لِما يزيد عن العشرة أعوام - "بيترا"، وهي ممثلة ألمانية شهيرة جاءت إلى إسطنبول لتقوم ببطولة فيلم تدور أحداثه في إسطنبول، لكن عندما يتم العثور على مخرج الفيلم مقتولًا، تستيقظ داخل "كاتي" حاسة محققي الجرائم، فأخيرًا حانت اللحظة التي ستتمكن فيها من ممارسة شغفها الحقيقي وتطبيق كل ما قرأته في روايات الجريمة المفضلة لديها ولكن .. بطريقتها الخاصة.

أسمهان أيكول

وُلِدت في "أدرنة" بتركيا عام ١٩٧٠. قامت بتأليف أربع روايات جريمة بطلتهم "كاتي هيرشيل". "جريمة في البوسفور" و"بقشيش" هما أول روايتين وقد تمت ترجمتهما إلى ثماني لغات

تخرجت في كلية الحقوق في جامعة إسطنبول، وحصلت على الماجيستير في الحقوق من جامعة "هامبولت" ببرلين. أثناء دراستها في إسطنبول، كتبت مقالات عن المشاكل الاجتماعية للمجلات الثقافية التركية. وبعد تخرجها عام ١٩٩٦، انتقلت إلى برلين مع زوجها حيث بدأت بالكتابة في أدب الجريمة، لكن باللغة التركية. وهي الآن تعيش في إسطنبول وبرلين.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-355-3





تصميم الغلاف: عصام أمين